

كتاب

صلى الله عليه وسلم

رسالة عائشة عبد الرحمن
بنت الشاطئ



Bibliotheca Alexandrina



0007393

دار المعارف

المصطفى

صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

دكتورة عائشة عبد الرحمن
بنت الشاطئ

أستاذ التفسير والدراسات العليا
كلية الشريعة بجامعة القرويين

طبعة جديدة
معدلة ومنقحة



دارالمعارف

تصميم الغلاف : منال بدران

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ
يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾

صدق الله العظيم

دليل

- ٩ إهداء
- ١١ هذا الكتاب

(١)

قبل المبعث : الدار والأهل

- ١٥ أم القرى والبيت العتيق
- ٢٣ اليتيم الهاشمي : المولد
- ٣٣ من مهد مولده إلى غار حراء

(٢)

مع المصطفى ﷺ في دار مبعثه

- ٤١ مع المصطفى ﷺ في ليلة القدر
- ٤٦ السابقون الأولون
- ٥٢ والليل إذا يغشى »
- ٦٩ أم يقولون افتراه ؟
- ٨٥ هجرة إلى الحبشة
- ٩٧ الحصار... وعام الحزن
- ١٠٣ الإسرائاء

(٣)

بوادر التحول

- ١١١ نجران.. ويشرب
- ١٢٢ أبواب موصدة
- ١٢٦ بيعة العقبة ومُتَجَّه الأحداث

(٤)

مع المصطفى ﷺ في دار هجرته

- هجرة... وتاريخ ١٤٣
- أبعاد الموقف في ميدان الصراع ١٥٩
- تحويل القبلة إلى المسجد الحرام ١٧٤
- نذر الصدام مع مشركى قريش ١٧٦
- يوم بدر، وموازين القوى ١٨٢
- درس من أحد ورسالة من شهيد ١٩٢
- الإسلام في الجبهات الثلاث ١٩٨
- في الجبهة اليهودية، ومع الوثنية القرشية، وفي جبهة المنافقين ١٩٨
- ١- في الجبهة اليهودية من أول الهجرة إلى خيبر ٢٠٠
- الأحزاب وبنى قريظة ٢٠٤
- حديث الإفك ٢٠٨
- الله أكبر، خربت خيبر ٢١١
- ٢- في الجبهة القرشية: من هدنة الحديبية حتى الفتح ويوم حنين ٢١٢
- هدنة الحديبية وبيعة الرضوان ٢١٢
- قد أَجْرْنَا مَنْ أَجَارَتْ ٢١٨
- تجربة «مؤتة» ولقاء الروم ٢٢٢
- المسير إلى مكة ٢٢٤
- الفتح ٢٢٩
- ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كُنُتُكُمْ﴾ ٢٣١
- ٣- المنافقون... والفاضة ٢٣٦

(٥)

﴿ودخل الناس في دين الله أفواجا﴾

- ٢٥١ ☐ سنة الوفود
- ٢٥٣ ☐ حجة الوداع وآية إكمال الدين وإتمام النعمة
- ٢٥٦ ☐ الرحيل

باسم الله ، والحمد لله ،
له الأمر من قبل ومن بعد

نجوى . . وإهداء

ابنى الفقيه الغالى ، المهندس أكمل أمين الخولى
فقدتكَ فجأة فى عزِّ شبابك يا ولدى الحبيب ، وأنا هامةُ اليوم
أوغد . حين كنت أعدُّ هذه الطبعة الجديدة من كتابى (مع
المصطفى ﷺ) فتصدع كيانى وأوحشت دنياى وكأنى فقدت إرادة
البقاء .

وفىما كنت تحت وطأة المحنة الصعبة أطوى أوراقى وأنطوى
على نفسى الضائعة ، إذا بطيفك حياً شاخصاً ماثلاً أمامى ملء
بصرى وسمعى ، ملء قلبى وخواطرى ورؤاى ، يشد أزرى
بصحبة الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام ، فأجمع شتات
نفسى الضائعة وكيانى المتداعى ، لأرفع إليه صلوات الله عليه
وسلامه هذا الكتاب : زكاة وقربى ونجوى . .
أحتسبك عند الله يا بنى رضى الله عنك . .
وسلام أنت وسلام عليك ،
ووداعاً ، إلى أن نلتقى ،
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . .

أمك .. عائشة

مصر الجديدة : ربيع الآخر ١٤١٢ هـ
أكتوبر ١٩٩١ م

هذا الكتاب

مع المصطفى ﷺ عشت من يوم مولدى،
آيات معجزته كانت أول ما يصل إلى سمعى مع نور الفجر، يتلوها والدى التقى العابد
رضى الله عنه، فى تهجده وصلاته.
وأحاديثه الشريفة كانت مع آيات القرآن، الزاد الروحى الذى تعيش به بيتى المتدينة، من
قبل أن أعرف الدنيا.
وسيرته الزكية العطرة، كانت أنس دنيانا، من قبل أن نُحَلَّ عنى ثنائى الصبا.
والمدائح النبوية والأناشيد الصوفية، كانت أول ما لمس وجدانى وأرهف احساسى، من يوم
أن بدأت خطوتى الأولى على درب الحياة..

ومع المصطفى ﷺ عشت وأنا أستقرئ ما وعى التاريخ من تراجم سيدات بيت النبوة،
رضى الله عنهن فأجتنى ملامح شخصيته صبيّاً فى (أم النبى) وزوجاً فى (نساء النبى) وأباً فى
(بنات النبى) صلى الله عليه وعلى آله وسلم
ثم، مع المصطفى نبياً رسولاً، أمضيت حياتى العلمية منذ استشرف بى أستاذى «أمين
الخلوى» إلى الأفق الرحب الذى طمحت إليه فى دراساتى القرآنية، وقاد خطاى على الطريق
الصعب لأجتنى أسرار البيان المعجز...

وإذ يسر الله وأعان، فقدمت إلى المكتبة الإسلامية محاولتى المنهجية فى (التفسير البيانى
للقرآن الكريم) ودراساتى القرآنية: (مقال فى الإنسان، والشخصية الإسلامية، والقرآن وقضايا
الإنسان) وأتممت دراستى لما شغلنى أعواماً من (الإعجاز البيانى للقرآن الكريم). وما تعلقت به
من تحقيق أعز ذخائرنا فى علوم مصطلح الحديث: (مقدمة ابن الصلاح ومحاسن الاصطلاح)..
استروحت إلى صحبة المصطفى عليه الصلاة والسلام، فإذا بى فى فيض من سناه، قد طويت
أبعاد المكان وآماد الزمان، إلى مسرح الأحداث الكبار التى يداها عصر جديد للإنسان،

وعشت بوجداني وفكرى مع المصطفى ﷺ من مهد مولده إلى غار حراء، ثم في مثواه في المدينة المنورة.

ولم أشأ، بل لم أستطع، أن أنصرف عن هذه الصحبة مع المصطفى صلوات الله عليه وسلامه، فكأنني إذ أعكف على كتابتها أطيل مدى أنسى بها، وألتمس من مشاركة أصدقائي القراء، ما يضاعف لي عطاءها السخي..

* * *

وما أقدمه إلى أبنائي وأصدقائي القراء، من حديث هذه الرحلة (مع المصطفى، عليه الصلاة والسلام) ليس التاريخ وليس السيرة، وإنما هي مشاهد مما اجتليتُ سيطرتُ على وجداني، ومواقف شددت إليها تأمل بجازبية أسرة، وارتبط فيها الماضي الحى بالحاضر المشهود، فما تتجلى لنا رؤى الماضي ومشاهده، إلا لتؤنس وحشتنا وتهدي خطانا، ولنذكر نعمة الله الكبرى أن أعزنا بالإسلام وبعث فينا المصطفى ﷺ شاهداً ومُبَشِّراً ونَذِيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسِرَاجاً مُنِيرًا ﴿

مصر الجديدة

١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م

عائشة عبد الرحمن
(بنت الشاطئ)

(١)

قبل المبعث الدار، والأهل

- أم القرى والبيت العتيق
- اليتيم الهاشمي: المولد
- من مهد مولده إلى غار حراء

أُمُّ الْقُرَى، وَالْبَيْتُ الْعَتِيقُ

﴿..... وَادْجَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً
لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ٣٥﴾

صدق الله العظيم

في مكة المكرمة كان مهد مولد المصطفى ﷺ ومنزل آبائه من عهد إسماعيل عليه السلام،
الجد الأعلى للعرب العدنانية.

وتاريخ الأديان يعي، ما سبق الإسلام من بوادر آذنت بوشك فجر جديد لا بد أن ينسخ
ما تراكم على أفق الدنيا من ظلمات ليلٍ طال...

وقضت المشيئة العليا أن تكون مكة مبعثاً لخاتم الرسل الأنبياء عليهم السلام، ومكة وقت
المبعث كانت دار شرك ومركز الوثنية العربية، وليست في ظاهر الحال أولى من بلادٍ أخرى
كانت مهداً للأنبياء من قبل، ومبعثاً لرسالاتٍ دينية سبقت الإسلام.

المؤمنون لا يترددون في أن يتلوا كلمته تعالى ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.
ثم لا يجدون حرجاً في أن يتدبروا، كما أمرهم دينهم، حكمته تعالى في سننه، وأن ينظروا في
واقع الحياة قبل المبعث، وموضع منزل الوحي في عالمٍ كان، حينذاك، يريد أن ينقض.

وتاريخنا الديني يمكن أن يعطينا ما ندرك منه الحكمة في اصطفاة مكة لمبعث خاتم المرسلين،
وقد كانت من قديم العصور والآباد حرماً مقدساً، وعلى أرضها قام أول بيتٍ عُبد فيه الله
سبحانه على الأرض.

ولا ندرى تماماً، الظروف التي تداعى فيها بنیان ذلك البيت العتيق، وتسربت إليه ظلال
وثنية دُنست حرمة، حتى تلقى «إبراهيم الخليل، ولده إسماعيل» عليهما السلام، العهد من الله

تعالى بأن يرفعاه القواعد من البيت ويظهره للطائفين والعاكفين والركع السجود. وبأمر الله تعالى، أذن إبراهيم في الناس بالحج إلى البيت العتيق، فأتوه رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق.

ومن ذلك الزمن الموغل في الماضي السحيق، رسخت مكانة مكة في تاريخنا الديني، ولكن الوثنية عادت فتسللت إلى حرمة، مع أوثان وأصنام كانت في أول الأمر رموزاً للمخلوق المعبود، ثم فقدت رمزيتها وصارت معبودات.

قال «ابن إسحاق»، في السيرة النبوية:

«ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل - أهل مكة - أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم، حين ضاقت عليهم، والتمسوا الفسح في البلاد، إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم، فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة، حتى آل ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسِنوا من الحجارة، حتى خلف الخلوف ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات، وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم يتمسكون بها، من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على المزدلفة وهدى البدن والإلهال بالحج والعمرة، مع إدخالهم فيه ما ليس منه».

وكانت عبادتهم مشوبة برواسب من قديم ما قبل الطوفان، كما يظهر ذلك في أسماء أصنامهم، بأسماء الأصنام التي اتخذها الكفار من قوم نوح آلهة لهم، وذكرها الله تعالى في سورة نوح: ﴿وَقَالُوا لَا تَدْرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا، وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾.

فكان لهذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر صنمها «سواع» ولقبيلة كلب بن وبرة القضاعي، صنمها «ود» واتخذت بطون من طيئ ومذجع صنمها «يغوث» واتخذت خيوان، بطن من همدان «يعوق» وأما «نسر» فكان لذي الكلاع بأرض حمير^(١).

وظل لمكة مع ذلك، مركزها الديني لا تنازعها فيه بلدة أخرى. وبقيت متابة حج العرب في الجاهلية الوثنية، على مر الحقب، وكأنما كان البيت العتيق فيها، ذكرى شاخصة من عهد إيمانها القديم، يحمي بقية من الوعي كامنة في العمق الغائر من ضمير الجاهليين، عبدة الأوثان والكواكب، قال تعالى:

(١) ابن إسحاق، السيرة الهاشمية، مع الروض الأنف ١/١٠١ والأصنام للكلبي ط دار الكتب المصرية.

﴿وَلْتَنُ سَأَلَتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾.

ومع رسوخ الوثنية العربية في مكة إبان الجاهلية، لم تستطع قط أن تطوى تماماً ذكريات ماضيها الديني وتلقى به في متاهة النسيان. وكان الزمن كلما تقدم بها هزتها رجفه الوعي فخامرها ريب في تلك الأوثان التي تكدست في حرم بيتها العتيق، لم تنس بها خالقها، وإن أشركتها معه، سبحانه، في التعبد.

وكانت القبائل العربية تحجج إلى الكعبة في الموسم، وتطيف كل قبيلة بوثنها ضارعة ملبية، فتذكر الله من حيث تدرى أو لا تدرى، وترفع إليه الضراعة والنجوى، إما بمنطق الشرك: يبدؤون بالتلبية لله وحده ثم يشركون به أصنامهم وإن جعلوا أمرها لله، كتلبية كنانة وقريش:

ليبك اللهم لبيك لبيك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك إلا شريك هو لك
تملكه وما ملك

أو على وجه الملاذ إليه وحده، وترك أصنامهم في منازل القبيلة، والحجج إليه، ابتغاء رضوانه، كتلبية «همدان» في الجاهلية:

ليبك رب همدان من ساحط ومن دان
جنناك نبغى الإحسان بكل حرف مذعان
نطوى إليك الغيطان نأمل فضل الغفران

ليبك مع كل قبيل لبوك همدان أبناء الملوك تدعوك
قد تركوا أصنامهم وانتابوك فاسمع دعاء في جميع الأملاك^(١)

ومؤرخو الإسلام، يذكرون ما راج في المنطقة قبل المبعث، من إرهابات عن نبي آن مبعثه، ولا نجادل من يستريب من أبناء هذا الزمان في هذه المرويات، ويحملها على منحولات الرواة وإضافات السمار، غير أن الواقع التاريخي يؤكد أنها، على أى وجه رضيناها لها وحملنا عليها، تكشف عن تطلع الحياة قبيل الإسلام، إلى تحول جديد وحاسم.

(١) تجدد في (رسالة الغفران) نصوصاً مع هذه، من تلبيات العرب في الجاهلية: ص ٥٣٤ وما بعدها. ط خامسة، ذخائر العرب وانظر معها (كتاب الأصنام للكلبي).

وتاريخ الأديان العام، يمكن أن يضيف إضاءة أخرى إلى ما قدمه مؤرخونا عن أرض المبعث:

الجزيرة العربية عرفت بصورة أو بأخرى، كل الملل والنحل والعقائد التي كانت البشرية تعتنقها قبل الإسلام.

عرفت المسيحية في نجران والحيرة وغسان وتخوم الحبشة، واليهودية في يثرب وما حوّلها من مستعمرات يهود شماليّ الحجاز، وعرفت الصابئة عبدة النجوم والكواكب، في سبأ، وسمعت عن المجوسية بحكم اتصال إمارة المناذرة العربية بالفرس...

وتلاقت هذه الأديان الوافدة، مع الوثنية العربية، ومع بقية من دين إبراهيم قاومت الضياع قروناً وأدهاراً، فتمثلت في قلة من الحنفاء رفضوا عبادة الأوثان في أخريات الجاهلية، وتجدد أخبارهم بتفصيل، في الجزء الأول من (السيرة النبوية لابن إسحاق رواية ابن هشام).

والتقاء هذه الأديان والعبادات في المنطقة الواحدة، يمنحها فرصة التنبيه إلى ما بينها من مظاهر التشابه والخلاف، ومثار الخصومة والتنازع.

كما أن توزع أهل الجزيرة العربية بين مختلف الملل والنحل، في فترة من حياتهم كانت تقتضى التجمع والترابط لمواجهة التهديد الخارجي من فرس وروم وحبشة ويين، أرهف حسهم لما داخل تدين كل طائفة من شوائب الانحراف والتعصب، فإن لم يصل بعرب الجزيرة إلى مستوى التمييز، فأدنى أثره أن يجعل المنطقة في حيرة وتردد، لا تدرى أى تلك الطوائف على حق وأياها على باطل.

ولم تكن الفطرة العربية، قد أفسدها ما تسلط على الفرس والروم من ترف باذخ وانحلال منها، ولا قهرها ما تسلط على شعوب المناطق حوّلها - في الشام ومصر وما وراءها من أقطار الشمال الإفريقي - من وطأة الاحتلال الذي جثم عليها قرابة ألف عام، لم تنج منه سوى الجزيرة العربية التي اعتصمت بمنعتها الطبيعية، وحمتها بواديها الجرداء من مطامع الغزاة.

ولمّا ألقت الوثنية غشاوة على بصيرة العربي، فتابع آباءه على دينهم تعصباً وتوقيراً، لا يريد أن يتصور أن أسلافه الكرام كانوا جميعاً على سَفَهٍ وضلال.

وتراث الشعر الجاهلي لقرنين قبل الإسلام، يؤكد مع ذلك، ما كان يحتاج الوجدان العربي من قلق وحيرة، وتطلع إلى نور جديد يمزق الغشاوة، ويسقط أقنعة الزيف عن عقم الوثنية ومهانة الشرك وخلل الأوضاع.

لا في ديوان المتحفين فحسب، ولكن في ديوان تلك الفترة بوجه عام، وفيها كان «قس بن ساعدة» يقف في سوق عكاظ بالموسم، فيهب الضمير العربي بحكمته ومواعظه، وفيها كانت آفاق الجزيرة ترجع ما يأتيها من أسواق أم القرى في مواسم الحج، من مثل قول «زهير بن أبي سلمى والد كعب وبجير رضى الله عنها:

فلا تكتمنن الله ما في نفوسكم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر
وأعلم علم اليوم والأمس قبله
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه
ومن يوفى لا يذمم ومن يهد قلبه
ومهما تكن عند امرئ من خليقة

ليخفى، ومهما يُكتم الله يعلم
ليوم الحساب أو يُعجل فينقم
ولكنني عن علم ما في غد عم
ولو رام أسباب السماء بسلم
إلى مطمئن البر لا يتجمجم
وإن خالها تخفى على الناس تعلم

ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى
بدا لي أن الله حق فزادني
وأني متى أهبط من الأرض تلعة
أراني إذا ما بتت على هوى
إلى حفرة أهدى إليها مقيمة
كأني وقد خلقت تسعين حجة
أراني إذا ما شئت لاقيت آية
ألم تر أن الله أهلك تبعا
وأهلك ذا القرنين من قبل ما ترى
ألا لا أرى ذا إمة أصبحت به
ألم تر للنعمان كان بنجوة
فغير منه ملك عشرين حجة
فلم أر مسلوبا له مثل ملكه

من الأمر أو يبدو لهم ما بدا ليا
إلى الحق تقوى الله ما كان باديا
أجد أثرا قبلي، جديدا وباليا
وأني إذا أصبحت أصبحت غاديا
يحث إليها سائق من راثيا
خلعت بها عن منكبي راثيا
تذكرني بعد الذي كنت ناسيا
وأهلك لقمان بن عاد وعاديا
وفرعون جبارا طغي والنجاشيا
فتتركه الأيام وهى كما هيا
من الشر لو أن امرءا كان ناجيا
من الدهر يوم واحد كان غايبا
أقل صديقا باذلا أو مواسيا

وقول «الناطقة الذبياني» في اعتذاره للنعمان بن المنذر:
حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

لئن كنت قد بُلِّغْتَ عنى وشاية لمبْلُغِكَ الواشى أَعْشُ وأَكْذِبُ
وقول «لبيد بن ربيعة» فى الجاهلية، قبل إسلامه:

بَلِينَا وما تَبَلَى النجوم الطوالعُ وتبقى الديار بعدنا والمصانع
وما المرءُ إلا كالشهاب وضوئه يحور رماداً بعد إذ هو ساطع
وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوماً أن تُردَّ الودائع

وكانت حرمة البيت العتيق تفرض على العرب جميعاً حرمة حماه فى أم القرى، ورسخ فى اعتقادهم «أن مكة لا تَقْر فيها ظلماً ولا بغياً، ولا يَبْغى فيها أحد على أحد إلا أخرجته، ولا يريدُها ملكٌ يستحل حرمتها إلا هلك مكانه. فيقال إنها ما سميت «بَكَّةً»، إلا لأنها كانت تبك - تكسر - أعناق الجبابرة إذا أحدثوا فيها شيئاً»^(١).

وبلغ من حرمة مكة عند القوم، أن تناقلت الأجيال إلى عصر المبعث ما أسنده ابن إسحاق من حديث السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها، قالت:

«ما زلنا نسمع أن أسافاً ونائلة - من أصنام العرب فى الجاهلية - كانا رجلاً وامراً من جرهم، أحدثا فى الكعبة فمسخها الله تعالى حجرين»^(٢).

ويذكر الرواة من أقدم تاريخها المعروف لنا، أن نبع زمزم لما انبثق لإسماعيل استأذنت قافلة من جرهم، - من عرب الجنوب العاربة الرُّحْل - السيدة هاجر أم إسماعيل عليه السلام فى النزول معها حول نبع زمزم. فأذنت لهم، والماء ماؤها. وشب إسماعيل وتعرب فى جرهم وأصهر إليهم، «ثم إن جرهما بغوا بمكة واستحلوا خِلالاً من حرمتها فظلموا مَنْ دخلها من غير أهلها وأكلوا مال الكعبة الذى يهدى إليها، فلما رأت ذلك بنو بكر من كنانة، وبعض بنى خزاعة، أجمعوا لحرهم، وإخراجهم من مكة، فاقتتلوا فغلبتهم بنو بكر وخزاعة، فنفوههم من مكة، وكانت مكة فى الجاهلية لا تَقْر فيها ظلماً، ولا بغياً ولا يَبْغى فيها أحد إلا أخرجته، ولا يريدُها ملكٌ يستحل حرمتها إلا هلك مكانه، فيقال إنها ما سُميت «بَكَّةً» إلا لأنها كانت تبك أعناق الجبابرة إذا أحدثوا فيها.

(١)، (٢) السيرة لابن إسحاق، الهشامية: الجزء الأول. وانظر معه (الروض الأنف) للسهيلى: ٢٧/٨ ط الجُمالية بالقاهرة.

« فلما أُخْرِجَتْ جِرهَم من مكة حزنوا على ما فارقوا من أمن مكة وملكتها حزناً شديداً، وقال شاعرهم «عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي من بكائية له شجية:

وقائلة والدمعُ سَكْبٌ مبادرُ	وقد شرقت بالدمع منها المحاجر
كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا	أنيس ولم يسمر بمكة سامرُ
فقلت لها والقلب منى كأنا	يلجلجه بين الجناحين طائر
بلى نحن كنا أهلها فأزالنا	صروف الليالي والجدود العوائر
وكنا ولاية البيت من بعد نابت	نطوف بذاك البيت والخير ظاهر
ملكنا فعززنا فأعظم بملكنا	فليس لحى غيرنا ثم فاخر
فأخرجنا منها المليك بقدره	كذلك، يا للناس، تجرى المقادرُ
وصرنا أحاديثاً وكنا بغيطة	بذلك عضتنا السنون الغواير
فسحّت دموع العين تبكى لبلدة	بها حرم أمن وفيها المشاعر

قال ابن اسحاق: ثم إن قبيلة من خزاعة استبدت بولاية البيت، يتوارثون ذلك كابراً عن كابر، فقام لهم «قصي بن كلاب» ورأى أنه - وهو من صريح ولد إسماعيل - أولى بالكعبة ويأمر مكة من خزاعة وبني بكر، فكلّم رجالاً من فهر وبني كنانة ودعاهم إلى إخراج خزاعة وبني بكر من مكة، فقاموا لنصرته حتى غلب على أمر مكة وجمع قريشاً وأنزلهم منازلهم وولى ما كان من وظائف دينية بها، واستحدث وظائف الجحابة والرفادة والسقاية واللواء، فحاز شرف مكة كله، ودانت له قريش، وتبعنت بأمره فكان في حياته ومن بعد موته كالدين المتبع، واتخذ لنفسه دار الندوة وجعل بابها إلى مسجد الكعبة، ففيها كانت قريش تقضى أمورها فإذا وقعت حرب بينهم في شهر حرام لم يُنسأ، كانت حرب فجار».

* * *

«قُصِيَّ بن كلاب بن مرة» هو الجد الرابع للمصطفى الهاشمي ﷺ، والجد الثالث لأمه السيدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن قصي. وإلى عام المولد كانت الشواهد تترى بما للبيت العتيق من حرمة، وما يصيب الذي يستحل حرمة من هلاك، على ما يأتي من خبر أصحاب الفيل في موضعه من سياق الأحداث. ثم ما كان من ذلك بعد المولد، وقبل مبعث المصطفى ﷺ.

في هذه البلدة المرفهة الحسّ الديني، المضناة بالقلق والحيرة، المتطلعة إلى حياة جديدة، كان مولد محمد بن عبد الله، ومبعث نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام: اصطفاه الله تعالى من بني

هاشم، واصطفى بنى هاشم من قريش، وقريشاً من كنانة، وكنانة من بنى عدنان صريح ولد إسماعيل عليه السلام، والتقى نسبه الزكى من جهة أبيه، مع نسب أمه عند «قصي بن كلاب»، وهو قريش، فكان ﷺ أزكى الناس نسباً، أباً وأماً^(١).

(١) بتفصيل فى كتابى (أم النبی ﷺ) مستخلصاً من أوثق المصادر.

اليقيم الهاشمى : المولد

«لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام
الطاهرة لا تشعب شعبتان إلا كنت فى خيرهما»
(محمد بن عبد الله)

* * *

فى مكة كان مولده،
وضعته أمه بشرًا سويًّا فى دار أبيه «عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم القرشى الهاشمى»
بجوار البيت العتيق.

ونور الفجر يبشر بصبح جديد.
والدنيا تفتح لموكب الشروق، وتستقبل مع أنفاس الصبح أنفاس ألوف وألوف من
بنى البشر، ولدتهم أمهاتهم من مختلف الأجناس وشقى البقاع، فى تلك الليلة القمرء من ربيع
الأول.

منهم من وُلدوا فى قصور مصر والنام وفارس والروم واليمن.
ومنهم من وُلدوا فى مجاهل القفر ونجوع البوادر وأدغال الغابات وكهوف الجبال..
تباعدت بهم الأصول والأنساب.
وتفاوتت الألوان والأجناس، وتناءت الطبقات.
وجمعتهم بنوتهم للبشر.
وتماثلت فيهم آية الخلق،
وتشابهت مخاطر الحمل وآلام المخاض.
ولم تر فيهم الفطرة الإنسانية إلا انتصارًا لإرادة البقاء وامتدادًا للحياة،
على ما بينهم من تفاوت بعيد..

* * *

وما كان أحد ليلتفت إلى وليد منهم، وضعت أمه يتيمًا في حَيِّ بنى هاشم بجوار الحرم المكي، في تلك الليلة التي بوركنت به..

لولا أن حَفَّتْ بولده ظروف غير مألوفة، جعلت أم القرى تتلقى البشرى بكثير من التأمل والتفكير، ثم تحرص على أن تستوعب كل ما حَفَّ بها أو لابسها من ظروف، وأن تتابع سير الحياة بهذا الوليد إلى أن بلغ أشده واصطفى خاتمًا للأنبياء عليهم السلام.

وحين آن للتاريخ العام أن ينصرف عن أحداث الدنيا في فجر المبعث ليرقب هذا المصطفى للنبوّة، وجد في ذاكرة أم القرى ما يملأ صفحات المرحلة ما بين مولده ومبعثه..

الليلة من بدئها كانت مقمرة واعدة.

ينيرها قمر أوشك أن يكتمل بدرًا.

وتؤنسها أطيايف ورؤى، ظلت تتجلى لآمنة بنت وهب القرشية الزهرية، طوال شهور حملها، فتعينها على احتمال تجربة المخاض.

فمنذ حملت بهذا الجنين، وهى لا تكف عن التفكير فيما كان من أمرها وأمره، بعد أن مات أبوه «عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم» في طريق أوبته إليها من رحلة صيف إلى بلاد الشام. ولم يكن حين ودّعها، قبل بضعة أشهر، يتوجس خيفةً من عائق يطيل أمد غيابه في رحلته، عن ميعادها الموقوت.

ولا كانت «آمنة» في هواجس وحشتها لفراقه، تتوقع أمرًا يجبسه عنها بعد انتهاء الرحلة. في عزّ شبابه ونضرة حيويته، مضى مع قافلة قريش إلى الشام.

ومكة ما تزال تتجاوب بأصداء الاحتفال المشهود بعمره، وتجتر مشاهد القصة المثيرة لافتدائه من الذبح قربانًا لرب الكعبة، وفاء بنذر أبيه عبد المطلب بن هاشم.

كان عبد المطلب منذ ولى شرف السقاية والرفادة لوفود الحجيج إلى البيت العتيق، يشغله هم التفكير فيما يتجشم ويتجشمون في الموسم، من شح الماء في الوادى الأجرد غير ذى زرع.

وذكر بئر زمزم التي أنقذت جده «إسماعيل بن إبراهيم الخليل» عليها السلام. من الهلاك ظمًا، وجذبت إلى مكة القوافل من العرب، فعمرت بهم بعد أن كانت قفرًا جرداء.

وقد طمرت زمزمَ رمال الزمن، فلو أن عبد المطلب عثر على موضعها، لكانت لسقاية الحجيج موردًا مباركًا.

وقوى تعلقه بالأمل في الاهتداء إلى موضعها، حتى صار مشغلة تفكيره ليل نهار. وخايلته الرؤى في منامه، تبسره بتحقيق أمله، وتوجه خطاه نحو موضع بعينه، بين وتنى «أساف ونائلة»، وغدا ذات صباح بمعوله إلى الموضع الذى وجهته إليه رؤياه، ومعه ابنه «الحارث» ليس له يومئذ ولد غيره، فلما هم بالحفر تصدت له قريش تأبى عليه أن يحفر بين وثنيها، ويطمعها في ردّه، أن لم يكن له غير ولد واحد. لكنه تابع الحفر حتى انبتق ماء زمزم. يومها نذر عبد المطلب: لئن وُلد له عشرة أبناء ثم بلغوا معه بحيث يمنعون، لَيُنَحَرْنَ أحدهم عند الكعبة قرباناً.

وتوفى بنوه عشرة^(١) وكان أصغرهم «عبد الله» فتلبت أبوهم زماناً حتى بلغوا، ودعاهم إلى الوفاء بنذره، وخرج بهم إلى الكعبة وقد حمل كل منهم قدحاً عليه اسمه. وقدموها إلى صاحب القداح هناك، وأبوهم يُنقل بصره بينهم، فتستقر نظراته لحظة على أصغرهم «عبد الله» فيفيض قلبه رقة ورحمة، ويتمنى أن يخطئه السهم.

حتى ضرب صاحب القداح على بنى عبد المطلب، فخرج القدح على «عبد الله» وأبوه قائم يدعو في ضراعة وخشوع.

ولم يملك الشيخ أن يتراجع، بل أمسك بيد صغيره الغالى وتقدم يريد الوفاء بنذره، ثم لم يكده يدنى الشفرة من منحره حتى تكاثرت عليه قريش، وقد هالها أن يضع عبد المطلب بتضحية ولده، تقليداً يؤثر ويتبع، «فما بقاء الناس على هذا؟».

وما زالوا به حتى قبل أن يستشيروا في أمره عرافة لهم بخير.

سألتهم العرافة بعد أن سمعت القصة:

- كم الدية فيكم؟ قالوا: عشر من الإبل.

فكانت مشورتها أن يزجروا إلى الكعبة فيضربوا القداح على عبد الله وعلى عشر من الإبل، فإن خرج القدح عليه زادوا عشراً، ثم عشراً حتى يرضى ربه، وإن خرجت على الإبل نحروها عنه.

وعادوا ففعلوا، فما زالوا يزيدون الإبل عشراً بعد عشر، والقدح يخرج على عبد الله، إلى أن بلغت الإبل مائة، وخرج القدح لأول مرة عليها.

(١) أبناء عبد المطلب في السيرة الهشامية مع الروض الأنف ١/١٧٩. وفي نسب قريش للمصعب الزبيرى. وجمهرة أنساب العرب لأبى محمد ابن حزم القرطبي.

صاح الجمع من قريش:

- قد انتهى، رضى ربك يا عبد المطلب.

لكنه ، لصدق إيمانه، أبى إلا أن يكرر التجربة ثلاث مرات، والقدح يخرج على الإبل، وعندئذ اطمأن قلبه، ونحرت الإبل المائة ثم تركت في حِمى الحرم، لا يُصد عنها إنسان ولا سبع^(١).

* * *

وانصرف عبد المطلب بولده عبد الله، فمضى إلى سيد بنى زُهرة نسباً وشرفاً «وهب بن عبد مناف بن زهرة»^(٢) فخطب إليه ابنته «آمنة» عروساً لعبد الله المفتدى.

وكانت قصة الفداء قد هزت قلوب المكين تعلقاً بالشاب الهاشمي الذي مست الشفرة منحره وهو صابر مستسلم، حتى إذا لم يبق بينه وبين الذبح إلا أن تتحرك الشفرة، أنقذه رب الكعبة بأغلى فدية عرفها العرب.

وأضيت المشاعل في أم القرى، وسهرت مسامر البلدة المباركة تسترجع ذكرى قصة الذبيح الأول «إسماعيل بن إبراهيم» حين مضى به أبوه إلى قمة الجبل لكي يذبحه طاعةً وتعبداً، فكان من أمره ما نتلوه من آيات الصافات ١٠١-١١١:

..... قَالَ يَنْبَغِي لِإِنِّي
أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَأَنْظُرُ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا بَنِيَّ أَفْعَلْ مَا تُؤْمُرُ
سَجَدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٢﴾
وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ صَدَّقْنَا الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٤﴾ إِنْ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٥﴾ وَقَدَيْنَاهُ لِذَبْحِ
عَظِيمٍ ﴿١٠٦﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٧﴾ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٨﴾
كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٠﴾

(١) القصة بتفصيل في: السيرة ١٦٢/١ وتاريخ الطبري ١٧٣/٢.

(٢) السيرة النبوية لابن اسحاق ١٦٥/١ - ونسب قريش للزبيرى ١٤ وجمهرة أنساب العرب لابن حزم: ١١٩/١٢ ط الذخائر. وانظر مع ما هنا كتابي «أم النبي ﷺ» ط الهلال بالقاهرة، ومع كتابي (تراجم سيدات بيت النبوة طبعة الأهرام - الجزء الأول.

إنها القصة التي تناقلتها العرب العدنانية، بنو إسماعيل، طبقة بعد طبقة وجيلاً من بعد جيل، تعود فتتكرر على ساحة البيت العتيق الذي رفع القواعد منه إبراهيم وإسماعيل، وطهراه للطائفين والعاكفين والركع والسجود.

والمفتدى هذه المرة الأخرى، من صريح ولد إسماعيل، جيرة الحرم المكي. وغير مستبعد أن يكون من السمار من ربطوا في ليلة العرس بين الذبيحين «إسماعيل بن إبراهيم، وعبد الله بن عبد المطلب» وأن يتوقع ذوو الحس المرهف منهم والرؤية الوجدانية الصافية، أمراً جليلاً لعبد الله، كالذي كان لجده الأعلى إسماعيل عليه السلام، بعد الفداء. وغير مستغرب كذلك، في مثل هذا المناخ الديني للبلد العتيق، أن تهفو قلوب نساء من قريش إلى «عبد الله» وأن يلحن على وجهه مخايل غده الموعود، فيعرضن له في طريقه من الكعبة إلى بيت سيد بنى زهرة، وكل منهن تحاول أن تهبه نفسها أو أن تظفر به زوجاً. عرضت له بنت نوفل الأسدية القرشية، أخت ورقة، فقالت له: - لك مثل الإبل التي نُحرت عنك اليوم إن قبلت أن أهب نفسي لك. ودعته «فاطمة بنت مر» إلى نكاحها، وكانت من أجمل النساء وأعفهن، وفي بعض الروايات أنها كانت كاهنة من خثعم^(١).

وكذلك عرضت «ليلى العدوية» نفسها عليه، وهي تتحدث عن النور الذي في وجهه. وفي الخبر أنه مر بهن بعد أن تزوج «آمنة بنت وهب الزهرية» فانصرفن عنه زاهدات فيه، فعجب لأمرهن وبدا له أن يسألن فيه، فكان جواب بنت نوفل: «فارقك النور الذي كان معك بالأمس فليس لي بك اليوم حاجة». وقالت فاطمة بنت مر: «قد كان ذلك مرة فاليوم لا، واللّه ما أنا بصاحبة ريبة، ولكني رأيت في وجهك نوراً فأردت أن يكون لي، فأبى الله إلا أن يجعله حيث أراد». وردت ليلى العدوية: «مررت بي وبين عينيك غرة بيضاء فدعوتك فأبيت عليّ، ودخلت على آمنة فذهبت بها»^(٢).

وقد وصلت أخبارهن وأقوالهن إلى مسمع عروسه «آمنة بنت وهب» وبلغ من تأثرها بها، بعد

(١) ابن إسحاق: السيرة المشامية مع الروض ١/١٧٨، وتاريخ الطبري: ١٧٤/٢
(٢) السيرة لابن هشام: ١٦٥/١ وتاريخ الطبري: ١٧٤/٢. مع كتابي (أم النبي ﷺ).

الذى كان من قصة الفداء، أن رأت في منامها ليلة عرسها، كأن شعاعاً من النور يشع من كنانها اللطيف فيضيء الدنيا حولها، وسمعت هاتفاً يبشرها بأنها حملت بسيد البشر.

وحين ودعها عبد الله بعد أشهر في رحلته إلى الشام، كان لها من رؤياها ما يؤنس وحشة فراقٍ لم يدر العروسان أنه فراق لا لقاء بعده، ولا خطر لهما على بال أنها رحلة بغير مأب...

* * *

في طريق الإياب ألت عبد الله وعكة طارئة، فتخلف عن قافلة قريش في دار أخوال أبيه بنى النجار بيثرب، ريثما يسترد صحته وعافيته. فلم يلبث إلا قليلاً حتى غاله الموت، ودفن هناك في ثرى يثرب.

ولم يُقبل فيه هذه المرة أى فداء...

وليست مكة توب الحداد على الفتى الهاشمي، وضلّت من النواح عليه حلوق بُحّت من ..
العتاف له حين احتفلت أم القرى بفدائه وعرسه، قبل نحو أشهرٍ ثلاثة.

وترملت زهرة قريش: آمنة بنت وهب، ولما يزل في كفيها خضاب العرس.

وانفض المأتم، لكن القوم لم يفرغوا من صاحبه التاوى في لحده بعيداً في ثرى يثرب.

من كان يظن، حين نُحرت عنه الإبلُ المائة، أن المنايا واقفة بالمرصاد لهذا المفتدى؟

وخيف على آمنة من وطأة الحزن، وقد رفضت أن تقبل في فقيدتها العزاء، ولبثت مكة شهراً وبعض شهر، ترقب في قلق إلى أين ينتهى الحزن بالأرملة العروس...

حتى كانت ليلة من ليالى شوال، أحاط فيها العواد من آل هاشم وعبد المطلب وبنى زهرة بفراش آمنة، وهى لا تفتأ تسأل كل عائد منهم وعائدة:

- فيم كان فداؤه والموت منه وشيك؟ وفيم كان العرس المشهود ويد القدر تخط له لحده بيثرب، والمنايا تحث خطاها نحوه؟

وأغفت مجعدة من إعياء، وعيون الساهرين عليها.

ولم تطل غفوتها، أيقظتها منها انتفاضة مرهفة، وقد أحست خفقة حياة جديدة في أعماقها، فأشرق وجهها بنور الإلهام، وكأنها عرفت سر الذى كان:

إن عبد الله لم يُفتد من الذبيح عبثاً..

كانت مهلة، ما بين فدائه وموته، أودع فيها عروسه آمنة هذا الجنين الذى تحس نبض حياته

في رحمها، والذي من أجله يجب أن تتجلد وتعيش.
ومن تلك اللحظة، أنزل الله سكينة عليها فطوت حزنها وشجنها، وبدأت تفكر في هذا الجنين الذي يعطى حادث الفداء تفسيره ومنطقه، ويجعل لوجودها بعد عبد الله، قيمة ومعنى...

* * *

مضت فترة الحمل والجزيرة العربية توج بإرهاصات عن نبي منتظر حان زمانه، وما أرتاب في أن آمنة ألقت إليها كل سمعها وفكرها، فما نسيت قط أن زوجها هو الذي أوثر من دون بني عبد المطلب، صفوة العرب العدنانية، بمجد الفداء الذي لم يتكرر منذ افتدى جدهم الأعلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل. عليها السلام.

وفي سمعها كذلك صدى لم يغيب من حكاية النساء اللاتي عرضن أنفسهن على عبد الله يوم فدائه - وفيهن الكاهنة من خنعم، وأخت ورقة بن نوفل الذي قرأ الكتب وبشر بنبي منتظر - وكلامهن عن النور الذي انتقل من عبد الله إثر زواجه، والقرة التي ذهبت بها بنت وهب فلم تدع لغيرها من النساء في عبد الله مأرباً...

ثم هي قبل هذا كله، سيدة من صميم البيت القرشي الذي يحظى بالسيادة في أم القرى، وينفرد بشرف الوظائف الدينية الكبرى في مثابة حج العرب ومهوى أفئدتهم...

ومن شأن النساء في هذه البيئة أن يرجون للأجنة في بطونهن، مجداً لم يكن لأحد من قبل. وعلى مدى شهور الحمل، لم تغيب عن السيدة آمنة رؤاها فيما سيكون لابن عبد الله من شأن عظيم، ولم تتخل عنها هواتف البشرية بأمويتها لهذا اليتيم الهاشمي الذي لم يزل ينتقل من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذباً، وتلقى ميراث آبائه الهاشميين وأخواله الزهرين، واجتمع له عز المنافين «عبد مناف بن قصي بن كلاب» جده الثالث لأبيه، و«عبد مناف بن زهرة بن كلاب» جد أمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب^(١).

وكتاب السيرة النبوية ومؤرخو الإسلام الأولون، ينقلون أخبار تلك الهواتف والرؤى عن لا يهتمون من الأخباريين والرواة.

وقد يشكك فيها بعض المحدثين، وقد يرفضها آخرون منهم رفضاً عقيباً، فلا نجادل هؤلاء

(١) نسب قريش: ١٤، وجمهرة أنساب العرب: ١٢ ذخائر.

ولا هؤلاء، إلا أن يتكلموا باسم العصرية والعلم فيعدوها من «الخرافات التي لا يقبلها عقل» كما قال «بودلى في كتابه (الرسول)^(١) - ﷺ.

ومن عجب أن ينكروا على «السيدة آمنة، أم محمد» ما جاز على سائر الأمهات من البشر، وكأن ليس من حقها أن تستشرف رؤاها لجنينها، حفيد المنافين وابن الذبيح المفتدى، إلى أقصى ما تسعف عليه بيئة يعرف تاريخ العرب عزها وشرفها وعراقتها، وظروف فريدة حفت بهذا الجنين، لم تعرف دنياه لها مثيلاً.

وإنما الذى يرفضه العقل حقاً، هو أن نجرد «آمنة» من بشريتها وأماني أمومتها، وكل الحوامل قبلها وبعدها عرفن ويعرفن الهواتف والرؤى في فترات الحمل، وإنما يتفاوت مدى الطموح فيها، بقدر ما تسعف عليه ظروف كل حامل، وتحتمله بيئتها وتستشرفه آمالها.

من نبض حياته في كيانها، كانت تستمد طاقة الحياة.

ومن هواتف البشرى في تأملاتها ورؤاها، كانت تجد ما يؤنس وحشتها ويهون عليها تجربة الحمل الأولى.

حتى إذا أوشك حملها أن يتم أجله، رُوِّعت كما رُوِّعت الجزيرة كلها، بغزو «أبرهة الحبشى الأشرم» لأم القرى، يريد أن يصرف عنها حج العرب، إلى كنيسة بناها في «صنعاء» وجلب إليها «الرخام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب، من بقايا قصر بلقيس، وكان على فراسخ من موضع الكنيسة، وفيه البقايا من آثار مملكة سبأ. ونصب أبرهة الأشرم في كنيسته صلباناً من الذهب والفضة، ومنابر من العاج والآبنس، وكتب إلى مولاه نجاشي الحبشة يسترضيه: إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لمليك كان قبلك، ولست بمُنته حتى أصرف إليها حج العرب»^(٢).

وإذ رأى أمير مكة «عبد المطلب بن هاشم» ألا قبل لأهلها بالجيش الزاحف، رأى أن يتحرز

(١) ص ٢٥ من الترجمة العربية للسحار. وقد ناقشت هذه القضية مزيد تفصيل في الفصل الخامس من كتابي (أم النبي ﷺ) ط دار الهلال بالقاهرة، وطبعة الأهرام لكتابي (تراجم سيدات بيت النبوة: الجزء الأول).

(٢) انظر سبب غضب النجاشي - وكان له ملك اليمن - على أبرهة الذي عدا على عامله «أرياط» وانتزع منه اليمن، وما كان من محاولته استرضاء النجاشي، في السيرة لابن إسحاق، رواية ابن هشام، مع الروض الأنف ٦١/١ وما بعدها.

بهم في شغف الجبال والشعاب تخوفاً من معرة الجيئس الذى جاء به «أبرهة» من اليمن. وشقَّ على «أمنة» أن تضع وليدها بعيداً عن الحرم المكى، وعن دار أبيه عبدالله بن عبدالمطلب، ولأذت بإيمانها بأن الله مانع بيته، فليس لطاغية الأحباش إليه من سبيل. فقرَّ عزمها على ألا تبرح مكانها في جوار الحرم، إلى أن يقضى الله أمره.

وفيما كانت تحسب حساباً لما يُتوقع من مجرى الأحداث، جاءتها البشرى بأن الله سلَّط على الغزاة أصحاب الفيل نقمته، فانتشر فيهم وباء غريب حاصد، رمتهم بجراثيمه المهلكة طير أبابيل ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾.

ولم تكن أرض العرب قد شهدت وباء الحصبة والجدرى قبل ذلك العام المشهود، فيها روى «ابن هشام» في (السيرة النبوية) عن «ابن إسحاق».

«وقد ولى الأحباش مذعورين يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك... وأبرهة معهم ينتثر جسمه وتسقط أنامله أنملة أنملة»^(١).

وأقبلت قريش على كعبتها المقدسة تطيف بها ملبة عابدة، وتجاوبت آفاق البلد الأمين بدعوات المصلين وتلبيات المحتفلين وأناشيد الشعراء.

وآمنة في بيت عبد الله، تصغى إلى ما يبلغ سمعها من دعاء وهتاف، فتحس سكينه وغبطة: أن استجاب الله لها فلن تضع وليدها بعيداً عن الحرم الآمن.

* * *

بعد فترة قصيرة من هلاك أبرهة عام الفيل، ذاعت في أم القرى بشرى المولد، فجر «يوم الاثنين، لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول عام الفيل» في رواية ابن إسحاق.

حدد قوم هذه الفترة بخمسين يوماً «وهو الأكثر والأشهر» على ما نقل «السهيلي» في (الروض الأنف)^(٢).

واكتفى آخرون بأن المولد كان في عام الفيل.

* * *

جاءها المخاض في وقت السحر من تلك الليلة المقمرة، فأرھف شعورها بالترقب والتطلع،

(١) بتفصيل في كتابي (أم النبي ﷺ) مستخلصاً من أصول المصادر
(٢) وانظر الزرقاني في المولد: ١٣٠/١، والنويرى في نهاية الأرب ٦/٦٨ دار الكتب المصرية.

مع إحساس مرهف بتجربة الوضع التي طالما سمعت الأمهات يتحدثن عن آلامها ومخاطرها «وإن كانت تُحدث أنها لم تجد حين حملت به ما تجده الحوامل من ثقلٍ ولا وَحَمٍ»^(١) لكنها ما لبثت أن صرفت بالها كله إلى ما يغمر الدنيا حولها من نور بازغ، وصرفت سمعها كله إلى هواتف البشرى، فتجلدت للحظة الحاسمة.

وما كاد نور الفجر يهل على الأفق، حتى كانت قد وضعت وليدها كما تضع كل والدة من البشر.

وتألفت دنياها نوراً وأنساً، وهى ترنو إلى وليدها المبارك، وتذكر به أباه الحبيب الذى أودعها إياه ثم ودعها ورحل...

وكانت مكة حين ذاعت فيها بشرى مولد ابن عبد الله، ما تزال تحتفل بما أتاح الله لها من النجاة من أصحاب الفيل، من حيث لا تحتسب، فرأى القوم فى مولد محمد آنذاك، آية تذكر بأخرى، يوم اختير أبوه عبد الله قرباناً لرب الكعبة، ثم افتدى بالإبل المائة.

وإن لم يتوقع أحد فى مكة، أو فى الدنيا كلها يومئذ، أن تلك الليلة المقمرة الغراء من شهر ربيع الأول عام الفيل، التى وُلد فيها ألوف وألوف من سنى الأجناس والألوان ومختلف الملل والمذاهب ومتفاوت الطبقات والدرجات، قد خلدت وبوركت بمولد يتيم هاشمى فى أم القرى، ابن امرأة من قريش تأكل القديد، يُصطفى للنبوّة فتكون رسالته ختام رسالات الدين كله، وتغدو أقواله وأفعاله وتقريره، سنةً وشريعةً لملايين الناس على امتداد الزمان والمكان...

(١) أسنده ابن عبد البر فى الاستيعاب، كتاب النساء، والطبرى فى (التاريخ) عن عثمان بن أبى العاص عن أمه «أم عثمان الثقفية - واسمها فاطمة بنت عبد الله - وقد حضرت مولد المصطفى الهاشمى. مع (الروض الأنف: فصل فى المولد)

مِنْ مَهْدِ مَوْلِدِهِ إِلَى غَارِ حِرَاءِ

﴿ وَالضُّحَى ① وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ③
وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ④ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ
فَتَرْضَى ⑤ أَلَمْ يَجْعَلْكَ يَتِيمًا فَتَآوَى ⑥ وَوَجَدَكَ ضَالًّا
فَهْدَى ⑦ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ⑧ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَهْزَنْ ⑨
وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ⑩ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ⑪ ﴾

صدق الله العظيم

ومضى التاريخ لم يطل الوقوف بمكة مهد مولده.
شغلته عنها وعن يتيماها الهاشمي، أحداث جسام كانت تجرى على مسرح الدنيا في النلت
الآخر من القرن السادس لميلاد المسيح عليه السلام.
وراح يرصد نذر الانهيار في عالمٍ يريد أن ينقض،
ويتابع الجولات الأخيرة للصراع بين قطبي ذلك العالم القديم، حيث كانت دولتا الفرس
والرومان تخوضان حرباً طاحنة، على مراكز القوى والسلطة والاستغلال والنفوذ.
وإحدى الدولتين قد أعنتت نار المجوسية بصرها وبصيرتها، فما عاد يعنيها سوى أن تجعل
من ساحة الشرق كله معبداً لتلك النار، تصلاها شعوب المنطقة بالعسف والإكراه.
والأخرى قد أثختتها جراح الحرب وهذتها أمراض الشيخوخة، واستنزفت بقايا قوتها فتنة
الصراع الطائفي بين القائلين بناسوتية السيد المسيح والقائلين بلاهوتيته، فتهاوى النسر
الروماني على الأرض يحثم على أنفاس خلق الله، ويتسلط على مستعمراته في الشرق الأوسط،
والشمال الإفريقي، بالإرهاب والطغيان، في محاولة يائسة تستبقي له من الهيبة ما يستر وهنه،
ويعوضه عن قواه المستنزفة.

حتى بلغ ذلك اليتيم الهاشمي المكي الأربعين من عمره، وتلقى رسالة الوحي في شهر رمضان بعد ستة قرون ونحو من عشر سنين من ميلاد المسيح عليه السلام، فالتفت التاريخ إلى مكة، وتوقف برهة يجمع كل ما وعت ذاكرتها عن ذلك المصطفى وآبائه وعشيرته، وعاد يصحبه من مهد مولده في دار أبيه عبد الله بجوار البيت العتيق.

ولم تكن ذاكرة مكة قد أفلتت شيئاً ذا بال، من أخبار يتيمها الهاشمي من مولده إلى مبعثه، وقد تعلقته به تتابع خطاه على درب الحياة.

وهي التي أعطت التاريخ ما احتاج إليه بعد المبعث، من أخبار سيرته في المراحل الأولى من حياته، إذ تفد المراضع من بنى سعد بن بكر ليحملن رضعاءً قريش بعيداً عن جو مكة القاسي، ويُعرض عليهن «محمد بن عبد الله» فيزهدن فيه يُتمه، وأن لم يكن ذا ثراء يكافئ نسبه الشريف في البيت الهاشمي القرشي، وقد مات أبوه في مقتبل العمر قبل أن يتأثّل لنفسه مالا، لم يترك لولده اليتيم وأمه، سوى جاريته الحبشية «بركة، أم آيين» وقطعة يسيرة من الإبل والغنم.

وأحزن «آمنة» أن ترى المراضع يوشكن أن يرجعن إلى البداية زاهدات في وليدها الشريف اليتيم، مؤثراتٍ عليه أطفال الأحياء ممن يُرجى منهم الخير الوافر.

غير أن واحدة منهن: «حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية، زوج الحارث بن عبد العزى، من سعد بن بكر بن هوازن»، رجعت إلى أم محمد تطلبه رضيعاً لها، بعد أن انصرفت عنه أول ذاك النهار كسائر المراضع. وحفظت مكة من قصة الرضاعة، ما نقله التاريخ بعد المبعث، من رواية عبد الله بن جعفر الطيار الهاشمي رضى الله عنها - فيما أسند عنه محمد بن إسحاق - قال: «كانت حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية أم رسول الله ﷺ التي أرضعته، تحدث أنها خرجت من بلدها، بادية بنى سعد، مع زوجها وابن لها صغير ترضعه، في نسوة من بنى سعد بن بكر تلتمس الرضعاء. قالت: وذلك في سنة شهباء لم تبق لنا شيئاً. فخرجت على أتانٍ لي - عجفاء - معنا شارف لنا - ناقة مسنة - والله ما تبض بقطرة، وما ننام ليلتنا أجمع من صبيتنا الذي معنا، من بكائه من الجوع، وما في تَدْيِي ما يغنيه، وما في شارقنا ما يغذيه. ولكننا كنا نرجو الغيث والفرج. فخرجت على أتانٍ تلك، حتى قدمنا مكة تلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عُرض عليها محمد - رسول الله ﷺ - فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم. وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي فكنا نقول: يتيم؟ وما عسى أن تصنع أمه وجده؟

«فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً، غیری، فلما أجمعنا على الانطلاق قلتُ

لصاحبي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعاً. والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلاأخذنه...

«قال: لا عليك أن تفعلنى، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة.

» فذهبت إليه فأخذته، وما حملنى على أخذه إلا أنى لم أجد غيره. فلما أخذته رجعت به إلى رحلى، فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ندياً بما شاء من لبن، فشرب حتى روى، وشرب معه أخوه حتى روى. ثم ناما وما كنا ننام معه قبل ذلك. وفام زوجى إلى سارفنا تلك فإذا هى حائل، فحلب منها ما شرب، وشربت معه حتى انتهينا رياء وشبعاً، فبتنا بخير ليلة...
«يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلمى والله يا حليلة، لقد أخذت نسمة مباركة.

فقلت: والله إني لأرجو ذلك.

ثم خرجنا وركبت أتانى وحملت محمداً عليها معى، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شىء من مخرمهم، حتى إن صواحبى ليقلن لى: - يا ابنة أبى ذؤيب، ويحك، اربعى علينا؛ أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها؟

فأقول لهن: بلى والله، إنها لهى هى...

فيقلن: والله إن لها لساناً.

» ثم قدمنا منازلنا، من بلاد بنى سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجذب منها. فكانت غنمى تروح على، حين قدمنا بمحمد معنا، شباعاً لبناً فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان غيرنا قطرة لبن، ولا يجدها فى ضرع. حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم، اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب!

فتروح أغنامهم جياغاً ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمى شباعاً لبناً. فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير، حتى مضت سنتاه وفصلته.

وحفظت مكة للتاريخ من أخبار صباه، رحلته مع أمه إلى يثرب فى السادسة من عمره: كانت مشوقة إلى زيارة قبر والده الثاوى هناك، وقد طال عليها الانتظار رينها جاوز صغيرها مرحلة الطفولة الغضة، ليحتمل مشقة الرحلة، وفى يثرب تُعرف إلى أخواله بنى النجار، وانطلق مع لداته من صبيبتهم فى دروب المدينة التى ستكون دار هجرته.

وأُمضت أمه أيامها على قبر الحبيب، تبت طيفه أشجانها ومواجهها ونجواها، وتتزود لفراق لا تدري كم يطول.

في طريق العودة إلى مكة، ألت بها وعكة طارئة لم تطل: انطفأت فيها الحياة بين يدي صغيرها اليتيم، وعلى مرأى منه أضجعوها في لحيد حفروه لها بقرية «الأبواء» وهالوا عليها الرمال...

واستأنف سيره، مع «بركة» مولاة أبيه، إلى مكة محزوناً مضاعف اليتيم، ليروع بعد قليل بموت جده عبد المطلب الذي كان له أباً، وينتقل إلى دار عمه «أبي طالب» فيجد فيه العوض عن جده وأبيه، ولا عوض عن الأم!

وتمضى الأعوام وقلبه ينزع نحو مرقدتها الأخير بالأبواء، ولم يستطع ضجيج الحياة في أم القرى أن ينسيه مشهد موتها الفاجع، أو يبعد عن مسمعه حشجة احتضارها في الفلاة^(١).. ويبلغ مع عمه مبلغ السعى، فيصحبه معه في رحلة قريش إلى الشام، ثم يقترح عليه بعدها أن يخرج إلى الشام في مال «السيدة خديجة بنت خويلد» فتبدأ مرحلة جديدة من حياة الشاب الهاشمي، تلاً أعوامه ما بين الخامسة والعشرين، والأربعين، بنعمة الزوجية السعيدة الهائلة، وتقر عيناه بشمرتها المباركة القاسم وعبد الله وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة^(٢).

وأرخص الزمن للزوجين السعيدين خمسة عشر عاماً، ارتوى فيها الشاب الهاشمي من نبع الحنان معوضاً حرمان ماض ظامئ، ومتزوداً لغد مقبل، حافل بالجهاد والشواغل الجسام. ووعت مكة من أخبار تلك المرحلة، مشهد محمد بن عبد الله إذ يدخل البيت العتيق ذات يوم، وهو في نحو الخامسة والثلاثين من عمره، فإذا الأحياء من قريش هناك في ساحة الحرم، قد احتدمت بينهم خصومة أنذرت بشر:

كانت الكعبة، قبل ذلك اليوم، قد مستها شرارة تطايرت من بحجرة إحدى النساء، فأحرقت ستائرهما وأوهت بنيانها... ووقفت قريش تجاه حرمها الأقدس مكتوفة الأيدي لا تدري ماذا تصنع، حتى شاع خبر عن سفينة رومية جنحت إلى جدة، فسعى إليها رجال من قريش، وعادوا بأخشاب السفينة، ومعهما رجل قبضي من مصر، كان فيها، نجار بناء.

(١، ٢) بتفصيل في كتابي: (نساء النبي، وبنات النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم) منفردتين، وفي مجموعه (تراجم سيدات بيت النبوة، رضى الله عنهن) الجزأين الثاني والثالث: مطابع الأهرام بالقاهرة

وتم الاستعداد لتجديد الكعبة، ولكن قريشاً عادت فتهيبت أن تهدم بقايا البناء القديم، حتى قام «الوليد بن المغيرة المخزومي» فأخذ المول وقال:

«اللهم لم نزع، اللهم إنا لا نريد إلا الخير».

ثم أهوى بالمول والقوم ينظرون إليه مرتاعين، خائفين عليه وعلى أنفسهم جميعاً. فلما لم يُصبه سوء، أبوا إلا أن يتربصوا به ليلتهم تلك ليروا عاقبة ما كان. وأصبح «الوليد» بخير لم يمسسه سوء، فهدم وهدم الناس معه.

وتنافست القبائل في العمل، وشارك «محمد» فيه فكان ينقل الحجارة مع الناقلين. حتى إذا تم البناء، اختلفت أحياء قريش، فيمن يكون له شرف رفع الحجر الأسود إلى موضعه، ومكنت على الحصومة أربع ليالٍ أو خمسا، ونذر الخطر تشتد منذرة بحرب، لولا أن اقترح عليهم «أبو أمية بن المغيرة المخزومي» - زاد الركب، والد أم سلمة رضى الله عنها، وهو يومئذ أسن قريش - أن يُحكموا بينهم أول من يدخل من باب المسجد الحرام. فقبلوا، وتعلقت عيونهم بالباب، فكان محمد بن عبد الله أول من دخل.

قالوا جميعاً حين رأوه:

«هذا الأمين، هذا محمد بن عبد الله الهاشمي، رضينا بحكمه».

وحدثوه عما اشتجر بينهم من خلاف، فطلب ثوباً ثم تناول الحجر الأسود فوضعه بيده في الثوب وقال:

«لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعاً»

ولما بلغوا موضع الحجر، وضعه الأمين بيده، نقلاً من الثوب.

ثم آب إلى بيته، فكان أول ما استقبله هناك، بشرى مولد ابنته فاطمة، فاقرن مولدها بنجاة قريش، على يد الأمين، مما كان يُخشى عليها من صدام وحرب^(١).

بعد ذلك المشهد في البيت العتيق، يرهف التاريخ سمعه مستوعباً أخبار مكة وبشريات المبعث رانية إلى «محمد» قبيل بلوغه الأربعين من عمره، ويعن النظر في آثار خطاه ما بين بيته

(١) ابن إسحاق؛ السيرة النبوية، رواية ابن هشام. مع الروض الأنف: ٢٥٥/١، ٢٠٩/١.

في جوار الحرم، وغار حراء بظاهر أم القرى، حيث اعتاد الأمين أن يعتزل الناس ليخلو إلى
تأملاته، بعيداً عن ضجيج المجتمع وصخب الزحام.
وآن للتاريخ أن يمضي مع المصطفى في عصر المبعث، على معبر التحول الخطير ما بين ليل
الجاهلية وفجر الإسلام....

* * *

(٢)

مع المصطفى ﷺ في دارِ مَبْعَثِهِ

- مع المصطفى ﷺ في ليلة القدر.
- السابقون الأولون.
- والليل إذا يغشى ...
- أم يقولون افتراه ؟
- هجرة إلى الحبشة.
- الحصار... وعام الحزن.
- الإسراء.

مع المصطفى ﷺ في ليلة القدر

﴿ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۝ ﴾

صدق الله العظيم

غشى الكون ليلٌ ثقیل، ولَفَّ أُمُّ القُرَى صمْتُ مكدود لا يكاد يُسَمَعُ فيه غير أنفاس الليل مختلطةً بهمهمة صلواتٍ وثنية، كانت ما تزال تتردد في البيت العتيق...

وقمرُ رمضان قد توارى واحتجب، فليس على الأفق المعتم سوى ضوء شاحب تكاد تحجبه عن مكة جبالها الصخرية التي تبدو كأنها كتل ماردة من ظلمات متكاثفة متركمة...

ونامت الدنيا، لا تلقى بالاً إلى رجل من بني هاشم، ابن امرأة من قريش تأكل القديد، قد أوى إلى غارٍ هناك مستغرماً في تأمله، يلتمس في العتمة الداجية شعاعاً من نور الحق، وينشد في خلوته أنس الهدى وراحة اليقين، وخواطره تحوم حول البيت العتيق الذي رفع إبراهيم الفواعل منه وإسماعيل وطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود، فلم يلبث أن صار مع الزمن مشوى لأوثان شائهة ممسوخة، لكل قبيلة من العرب وثناً تحج إليه وتطيف به وتلبى عنده، وترفع إليه الدعاء وتقدم القرابين....

وغير بعيد من غار حراء، هجعت مكة تجتر ذكريات مجدها الديني الغابر طوته وتنتية عمياء، وتساورها من حين إلى حين رجفة من قلق الوعي، لا تلبث أن تهمد تحت وطأة الكابوس الجاثم؛ لا تحسب حساباً لهذا المختلى في غار حراء، وقد ألفت أن تراه ينسحب من زحام المجتمع المكي، عازفاً عن تلك الأوثان التي يعبدها قومه، لأنهم وجدوا آباءهم لها عابدين... وماذا على القوم أن عزف «محمد بن عبد الله» ﷺ عن أوثانهم وأبي أن يعبدها؟ كذلك فعل نفر غيره من الحنفاء، ليس عددهم بالذي يدخل في الحساب بزيادة أو نقصان، في الحشود من الحجيج الذين ينثالون إلى مكة من كل فج عميق، ليطيّفوا بأوثانهم في البيت العتيق ويؤدوا طقوس عبادتهم ومناسك حجهم...

وأوغل الليل قبل أن يطلع فجر هذه الليلة من رمضان، وينشر نوره البهي على القمم
والسفوح والأودية والقيعان، فيضيء الظلمة الداجية.

ومع نور الفجر الوليد من الليلة الغراء، تجلى الوحي للمختلي في الغار، وألقى إليه الكلمة:
﴿اقرأ﴾

وما كان محمد بقارئ، وما كان يتلو من قبله من كتاب ولا يخطه بيمينه.
وتكررت كلمة الوحي الأولى ﴿اقرأ﴾ وهو لا يدري ماذا يقرأ حتى قال أمين الوحي:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ
وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾

* * *

وبدأ تاريخ جديد:

الرجل الذي سري في الليل إلى غار حراء، على مألوف عادته منذ أنكر موضع الأصنام في
البيت العتيق، وأيقن أن حياة الناس لا يمكن أن تمضي هكذا على سفه وضلال، خرج مع الفجر
من الغار، نبياً مبعوثاً بخاتم الرسالات.

والكلمات الأولى التي تلقاها في تلك الليلة من وحي ربه، كانت بداية كتاب معجز، وآية نبي
بشر، ولواء عقيدة وجهت التاريخ وحررت الإنسان، وصنعت أمة وقادت حضارة...

خرج المصطفى ﷺ من الغار، واتجهت به خطاه نحو بيته، والكون من حوله ساج خاشع،
وعلى الأفق الأعلى نور الفجر الجديد ينسخ ظلمات ليل طال، ويوشح البيت العتيق بسني
وضاء، يكشف عما تكدس في رحابه من أصنام وأوثان، فتبدو على حقيقتها العارية، ممسوخة
شائنة بلهاء...

وكان لها من ظلام الليل سترٌ كثيفٌ أصم، يخدع البصر ويزيف الرؤية....

* * *

النور ملء قلبه وبصيرته، والكلمات ملء فكره ومسمعه...

(١) حديث بدء الوحي بطوله، متفق عليه من رواية الزهري عن عروه عن السيدة عائشة رضي الله عنها، وانظر
رواية ابن إسحاق في السيرة الهشامية مع الروض الأنف: (مبعث النبي ﷺ).

ولكنه في حيرة من أمره، يُعنيه أن يستوعب السر الأعظم الذى تجلى له، ويأخذه من جلاله ما يشبه الدوار، فيكاد لفرط دهشته وعجبه وانبهاره، لا يدري ما إذا كان فى وعى يقطته، أم تلك رؤيا بصيرة أرهفها طول التأمل فى آيات القدرة، وطول التطلع إلى اجتلاء سر هذا الكون وخالقه؟

وأحس وطأة العبء الثقيل تجهده وترهقه، فما بلغ بيته حتى بدا مكدوداً مرتعداً شاحباً، كأنه عائد من سفر سناق طويل...

ولمحا هناك فى انتظاره: «خديجة» التى كانت له على مدى خمس عشرة سنة زوجاً وأماً، وكانت له منذ تزوجها ملاذاً وسكناً...

ودون تفكير أو تردد، ألقى نفسه يفضى إليها بما رأى وما سمع، وهو يعين النظر فى ملاحظها إذ تصغى إليه بسمعها وقلبها، محاولاً أن يستبين وقع هذا الأمر على أقرب أهله إليه، وأعزهم عليه، وأصفاهم له ودّاً وأرشداهم نصحاً ورأياً...

وقالتها على الفور، بصدق اليقين والثقة:

«الله يرعانا يا أبا القاسم. أبشيراً يا ابن عمّ وانبت، فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة. والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتصديق الحديث وتحمل الكل وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق».

فنفذ صوتها الواثق إلى قلبه، وأحس راحة الأمن والطمأنينة، وزوجه تقوده فى رفق وحنو إلى مضجعه فتدثره وتبقى إلى جانبه رانية إليه حانية عليه حتى ينام...

«نبى هذه الأمة»؟!

ما الذى ألقى إلى بال «السيدة خديجة بنت خويلد الأسدية القرشية». بتلك الكلمة الكبرى، حين كانت الوثنية غاشية، والعرب قبائل شتى والناس طوائف وأممًا متناحرة متناكرة؟ أهى من تعبير التاريخ الإسلامى عن إدراك أم المؤمنين الأولى لجلال الأمر وبُعد نظرها لما بعده، بمجرد أن سمعت زوجها المصطفى ﷺ يتحدثها عن أول الوحي؟

أم كانت الكلمة تعبيراً عن واقع - لم يكن قد انجلى بعدُ تماماً فى تلك الليلة من رمضان - يئمل موقف زوج المصطفى الأولى، فى ضوء الواقع التاريخى بعد ليلة القدر؟

لا أرى الكلمة غريبة على الموقف، فما كانت السيدة خديجة وهى من صميم قریش وجيرة الحرم، بحيث يفوتها شيء مما ماجت به بيئتها قبيل المبعث من تطلعات إلى تحول خطير رنا إليه حكماء العرب وحنفاؤهم وشعراؤهم، ومن إرهابات عن نبي جديد حان مبعثه تناقلها الرواة والأخباريون عن رهبان النصارى في الشام ونجران، وأخبار يهود في يثرب وما حولها، شمالاً الحجاز.

ومكة على الخصوص، كانت المركز الذى تتلاقى فيه تلك التطلعات والإرهابات، وتتجمع روافدها من هنا ومن هناك وهناك، لتصب حول البيت العتيق، وتحوم حول حى بعينه من أحياء قریش هو حى بنى هاشم بن عبد مناف بن قصي، وترنو إلى شخص بذاته من الهاشميين، هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم.

وقد كان لمكة من واقعها ورؤاها وذكرياتها، ما تضيفه إلى تلك الإرهابات الوافدة من شمال وجنوب وشرق...

فمن عهد إبراهيم وإسماعيل، وبيتها العتيق مثابة الحج والعبادة، يرتفع منه الدعاء «لبيك اللهم لبيك» فتتجاوب به أوديتها والبطاح، وتخشع له جبالها الصخرية، وتعنو هامات البدو الصلاب أبناء الصحراء

ومع الزمن تأصلت حرمة ذلك البيت العتيق، ورسخت تقاليد إعظامه وطقوس إجلاله، ومنه أخذت قریش مكانة السيادة لجوارها الحرم المكي، واستأثرت بوظائف الشرف الدينية، وراثته عن جدها قصي بن كلاب المضرى العدناني^(١).

وإذا كانت مكة قد استرجعت بفداء عبد الله بن عبد المطلب، ذكرى الفداء الأولى لإسماعيل جد العرب العدنانية، فليست بحيث يقوتها غداة ليلة القدر، أن تربط ما بين محمد بن عبد الله، وإسماعيل بن إبراهيم، برباط نسجته يد الزمن على مدى قرون وأدهار... وتربطها كذلك، في وعى السيدة خديجة، بما آنتست من شمائل زوجها وما رأت من ميله إلى التأمل والخلوة في غار حراء، وما عرفت من رفضه الأصنام التي تكدست في الحرم، ومن حيرته في أمر قومه: كيف ضلت عنهم أحلامهم فنسوا أنهم الذين صنعوا الأوثان بأيديهم، وجعلوا منها آلهة وأرباباً مع الله!

(١) انظر ما استحدثته «قصي بن كلاب» من وظائف دينية للحرم، في مطلب (غلبة قصي على أمر مكة وجمعه أمر قریش) في سياق النسب الزكى من السيرة الهشامية، مع الروض الأنف: ١٤٧/١

فى هذا كله كانت «السيدة خديجة رضى الله عنها» تفكر، وهى تخرج من البيت إثر سماعها بشرى الوحى، ساعية إلى ابن عمها «ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى» تلتمس لديه الرأى، وترجو أن تجد من علمه بالكتب والأديان ما تطمئن به إلى حقيقة الفكرة الملهمة التى سيطرت على وعيها المرهف وبصيرتها الثاقبة: أن يكون زوجها المصطفى نبي هذه الأمة.

وقال ورقة بن نوفل، وهو لا يتهم سمعه:

«قدوس قدوس» والذى نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقتنى يا خديجة، لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأق موسى وعيسى، وإنه لنبي هذه الأمة، فقولى له فليثبت».

السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ

﴿..... وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ١١﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ١٢ ﴿
فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ١٣ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ١٤ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ١٥﴾

(صدق الله العظيم)

أصبحت مكة غداة ليلة القدر، وليس على وجه الأرض كلها من يدين برسالة النبي المصطفى ﷺ، سوى زوجه السيدة خديجة بنت خويلد الفرشية الأسدية، أم المؤمنين الأولى رضى الله عنها^(١).

ثم آمن ثلاثة:

اثنان منهم فتيان في مستهل الصبا، كان محمد عليه الصلاة والسلام ينزلها من بيته وقلبه منزلة الأبناء:

«علي بن أبي طالب» وكان محمد، بعد زواجه من خديجة واستقرار حياته المادية، قد ضمّه إليه ليخفف العبء عن كاهل أبيه العم أبي طالب، برّاً بعمّه ووفاءً ببعض حقه عليه، وهو الذى كفله بعد وفاة جده عبد المطلب، وأسبغ عليه من رعايته وحنانه ما لم يحظ بمثله بنوه...

و«زيد بن حارثة» ولده بالتبني. وكانت أم زيد قد خرجت به صبيّاً تزور أهلها، فضلّ منها في الطريق فالتقطه من باعه رقيقاً في إحدى أسواق العرب، واشتراه «حكيم بن حزام بن خويلد الأسدى» لعمته السيدة خديجة. فطابت لزيد الحياة في البيت الكريم. حتى جاء أبوه «حارثة بن سُراحيل الكلبي» ينشد ولده بعد أن طال بحثه عنه. فترك «محمد بن عبد الله» الأمر كله لزيد: إذا شاء بقى حيث هو في بيت محمد على الرحب والسعة، وإن أراد ذهب مع أبيه حارثة.

(١) ترجمتها، رضى الله عنها، في المبحث الأول من كتابي (نساء النبي، ﷺ، منفرداً؛ وفي مجموعة (تراجم سيدات بيت النبوة رضى الله عنهن: الجزء الثانى) طبع الأهرام بالقاهرة.

واختار زيد محمدًا، فما لبث أن انطلق به إلى الملا من قريش، وأشهدهم على أن زيدا ولده بالتبني^(١).

وأسلم كذلك «أبو بكر بن أبي قحافة: عبد الله بن عثمان التيمي» وكان له وضع آخر: إذ ليس هو من عشيرة المصطفى وذوى قرباه، ولا كان في فتوة الصِّيا كعلي وزيد، وإنما هو من رجال بني تيم بن مرة بن كعب، وقد بلغ سن الرجولة وأخذ مكاتنه في المجتمع المكي القرشي، سيدًا مهيبًا وقورًا، مشهودًا له بالفضل والمروءة ودمائة الطبع ورجحان العقل، وكان أنسب قريش لقريش وأعلمها بأخبارها^(٢)، فلما سبق إلى الإسلام بمجرد أن دعاه المصطفى إليه، أظهر إسلامه ودعا إليه، فتوقعت قريش أن يكون لهذا الأمر ما بعده...

وصح ما توقعت: استبطع أبو بكر بجاذبية شخصيته ووقار سنه وسداد رأيه، أن يكسب للدين الجديد خمسة من رجال قريش الأعلام:

عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس؛ والزبير بن العوام بن خويلد الأسدي؛ وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص الزهري، وطلحة بن عبيد الله التيمي...

فهؤلاء النفر الثمانية، هم طليعة السابقين الأولين الذين اختاروا لواء المصطفى وبدأ بهم الإسلام خطوته الأولى على الطريق الطويل.

ومنهم تأسست الكتبية الأولى لحزب الله في مستهل الدعوة، ليلقى العصبة الباغية من المشركين، وحزب الشيطان من المنافقين واليهود، في صراعٍ مرير بين حق وباطل. ولقد تهيب المصطفى عليه الصلاة والسلام في أول الأمر أن يلقي قريشًا بدعوته جهريًا، فأسرَّ بها إلى من آنس فيهم الاستعداد لقبولها والإيمان بها.

وما أسرع ما استجاب له الموالي الأرقاء الذين وجدوا في الإسلام ملاذًا لهم من الوضع المهين الذي مسخ آدميتهم وأهدر إنسانيتهم.

وكذلك أسلم عدد من أحرار المكيين، الرجال والنساء.

وكانوا إذا أرادوا الصلاة تحاشوا الكعبة، وتحاشوا كذلك أن يُصلوا في بيوتهم، وذهبوا في

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٢٦٢١. مع ترجمة زيد بن حارثة، رضى الله عنه، في الإصابة.
(٢) انظر مناقبه في (الصحيحين) وأوائله في (كتاب الأوائل من مصنف أبي بكر بن أبي شيبة) مع ترجمته في الإصابة.

السحاب فاستخفوا بصلاتهم عن قومهم، إذ كانوا قلة، وفي دورهم من لا يدينون بغير ما وجدوا عليه آباءهم.

لكن أمر الإسلام لم يكن بحيث يخفى طويلاً بعد أن فشا. وتلقى الرسول المصطفى أمر الله سبحانه^(١) فجهر بالدعوة وبأدى قومه بها. ولعلمهم استخفوا به أول الأمر، وكبر عليهم أن يظهرُوا غيظهم منه. حتى ذكر المصطفى ﷺ آهتهم وعابها، فناكروه وأجمعوا خلافه وعداوته، إلا القلة التي ترددت فيه...

ماذا تستطيع قريش، لن آمنوا بمحمد - عليه الصلاة والسلام - من صميم بيوتها وسادة عشائرها؟

لئن أعيها أن تثب عليهم أو تناههم بأكثر من السخرية والمقاطعة والوعيد، لقد بقى المستضعفون من الموالى والعبيد تنفس فيهم عن قهرها وغيظها، وتتسلط عليهم بأبشع ضروب التعذيب والفتنة.

ولم يفتها وهي ترى مواليتها يسارعون إلى الاستجابة للإسلام، أن تلمح ما وراء هذه البادرة من خطر يهدد الوضع الطبقي الذي قامت عليه حياة قريش جيلاً بعد جيل...

وقامت قائمة قريش، واثمروا فيما بينهم فوثب كلٌّ حثيٍّ من أحيائها على من فيه من الموالى والعبيد الذين أسلموا، فكانوا، إذا حميت الظهيرة يخرجونهم إلى بطحاء مكة فيطرحونهم على ظهورهم، ثم يأمرُون بالصخرة الضخمة فتُلقي على صدر الرجل منهم، ويقول له سيده:

- لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى.

فيرد العبد المؤمن وهو في هذا البلاء:

«أحدٌ أحدٌ».

في الخبر أن رسول الله ﷺ مرَّ بآل ياسر وقد أخرجهم سادتهم من بني مخزوم إلى بطحاء مكة وتفننوا في تعذيبهم، فلم يستطع عليه الصلاة والسلام أن يدفع البلاء عن هذه الأسرة المؤمنة، وقال مواسياً:

«صبراً آل ياسر».

(١) في سورة المدثر، رابعة السور في ترتيب النزول، على المشهور. وانظر السيرة: ٢٨٠/١ هشامية، مع تاريخ الطبري: ٢٣٠/٢.

وصبروا حتى استشهدت «سمية» وهى تأبى إلا الإسلام فكانت أول شهيدة فى الإسلام^(١).
وروا أن أبا بكر مرَّ بجارية لبني عدى بن كعب، وعمرُ بن الخطاب - قبل إسلامه -
يعذبها على جمر الصخور الملتهبة بالقيظ ليفتنها عن دينها، فما زال يضربها حتى ملَّ، فكفَّ عنها
وهو يقول لها:

- إني أعتذر إليك، فلم أتركك إلا عن ملالة!
والح أبو بكر على عمر، حتى باعه إياها. فأعتقها لوجه الله كما أعتق عدداً غيرها من
المستضعفين بعد أن اشتراهم.

قال له أبوه «أبو قحافة عثمان» يحاوره، ولم يكن قد أسلم:
- إني أراك يا بني تعتق رقاباً ضعافاً، فلو أنك فعلت ما فعلت، أعتقت رجالاً أشداءً يمنعونك
ويقومون دونك؟

ردَّ الصديق أبو بكر:
- يا أبت، إني إنما أريد ما أريد لوجه الله^(٢).
فيروى أن هذه الآيات من سورة الليل نزلت فيه^(٣):

﴿..... إِنَّ عَلَيْنَا
لَلْأُولَى ۖ وَإِن لَّنَا لَآخِرَةٌ ۖ وَالْأُولَى ۖ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ۝
لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۝ وَسَيُجَنَّبُهَا
الْأَتْقَى ۝ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدُ مِن تَعْمَلِ
تُجْرَى ۝ إِلَّا ابْتِغَاءً وَجْهَ رَبِّهِ الْأَعْلَى ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ۝﴾

(صدق الله العظيم)

(١) ترجمتها فى (الإصابة) مع كتاب الأوائل من (مصنف أبى بكر ابن أبى سبيبة)

(٢) السيرة لابن هشام: ٣٤١/١.

(٣) تفسير الطبرى: سورة الليل.

أسلم «خَبَابُ بن الأَرْتِ» وأَعْيَا قَرِيشًا أَنْ تَفْتَنَهُ عَنْ دِينِهِ^(١).
وكان من أَمهر الموالى الصُّنَّاعِ، يعمل السيوف بِمَكَّةَ للسَّادة القَرَشِيِّينَ، وقُلَّ أَنْ يَجِدُوا مَنْ
يَدَانِيَهُ حَذَقًا لِلصَّنْعَةِ وتَوَاضَعًا فِي الأَجْرِ.

واحتاج في مَحَنَةِ الْفِتْنَةِ والاضْطْهادِ، إِلَى مالٍ يَفْتَدِي بِهِ نَفْسَهُ، فَذَهَبَ إِلَى السَّيِّدِ «العاصِ بن
وائِلِ السَّهْمِيِّ» يَتَقاضَاهُ أَجْرَ سِوْفٍ كان قد عَمَلَهَا لَهُ. فَنَظَرَ إِلَيْهِ السَّيِّدُ السَّرِيفُ مَلِيًّا ثُمَّ قَالَ
يَسْأَلُهُ سَاخِرًا:

- أَلَيْسَ يَزْعَمُ مُحَمَّدٌ صَاحِبُكُمْ، هَذَا الَّذِي أَنْتَ عَلَى دِينِهِ، أَنَّ فِي الْجَنَّةِ مَا ابْتَغَى أَهْلُهَا مِنْ
ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ؟

رَدَّ «خَبَابُ» لَا يَدْرِي وَجْهَ السُّؤَالِ: بَلَى.

قال العاص بن وائل:

- فَأَمَهْلُنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ يَا خَبَابُ، حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى تِلْكَ الدَّارِ الْآخِرَةِ فَأَقْضِيكَ هُنَاكَ
حَقَّكَ، فَوَاللَّهِ لَا تَكُونُ أَنْتَ وَصَاحِبُكَ مُحَمَّدٌ يَا خَبَابُ، أَثَرٌ عِنْدَ اللَّهِ مِنِّي وَلَا أَعْظَمُ حُظًّا مِنْ ذَلِكَ.
وَانصَرَفَ خَبَابُ، وَعَوَّضَهُ عَلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ.

وراح العاص بن وائل يباهى في مجامع قريش بحيلته الذكية الماكرة التي أصاب فيها
عصفورين بحجر واحد: أكل مال خباب عقاباً له على إسلامه، واستهزأً بدينه وصاحبه!
ولم يمض وقت طويل حتى كان المصطفى يتلو في مكة من وحي ربّه:

﴿وَإِذَا تُنْزِلَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَتَّبِعْتَهُ الْقَائِلِينَ كَفَرُوا بِالَّذِينَ آمَنُوا
أَفَرَأَيْتَ لِفَرِيقَيْنِ خَيْرَ مَقَامٍ وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ۝ ٧٦ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ
مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِئًا ۝ ٧٧ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلِمَ دُعِيَ لَهٗ

(١) المشهور أن خباب بن الأرت تميمي النسب، خزاعي الولاء لحقه سبأ في الجاهلية، فاشترته امرأة من خزاعة
وأعتقته. فولّاه لها.

وانظر السيرة لابن هشام: ٣٨٣/١. والروض ٩٨/٢. وخاباب، رضى الله عنه، هو الذى كان يقرئ فاطمة بنت الخطاب
رضى الله عنها، القرآن الكريم

الرَّحْمَنُ مَتَا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِذَا الْعَذَابُ وَإِنَّمَا السَّاعَةُ
فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَرَكَّنَا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ٧٥ وَيَزِيدُ
اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَأَهْدَى وَأَهْدَى وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ
ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًا ٧٦ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا
وَلَدًا ٧٧ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمَّا اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ٧٨ كَلَّا سَتَكُنُ
مِنَ الْمَقْتُولِ وَمَتَى لَأُتِيَنَّ الْعَذَابُ مِنَّا ٧٩ وَنَرَاهُ مَبْقُولٍ وَيَأْتِنَا قُرْدًا ٨٠
وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ٨١ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ
بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ٨٢ ﴿

(صدق الله العظيم)

والليل إذا يغشى

﴿وَإِذَا جَاءَ نَهْرُ آيَةٍ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ
 اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَهُ وَسَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا
 صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾
 (صدق الله العظيم)

عَجَبٌ أَى عَجَب !

الجزيرة كلها كانت من سنين، تتحدث عن إرهاصات نبى حان زمانه.
 ومكة على وجه الخصوص، كانت تترقب أن يكون فيها مبعثه..
 والعيون كلها كانت ترمقه فى مهده وصباه وشبابه، رانية إلى ما تفرد به من مخايل وشمائل،
 متفائلة بيمينه وبركته...

ولكن الأمر حين جاء، كان أعظم من أن يُصدق وأخطر من أن يُتلقى بالتسليم والإقرار.
 ولقد قالها «ورقة بن نوفل» للمصطفى، غداة المبعث:
 - والذى نفسى بيده، إنك لنبى هذه الأمة، ولتُكذِّبن ولتُؤذِن ولتُخرجن...
 سأله عليه الصلاة والسلام:
 «أو مُخرجى هم؟».

فقال ورقة:

- نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى^(١)...
 وكان «ورقة» ينطق بما قرأ من تاريخ الأديان، وعرف من طبيعة الشعوب والجماعات: لم
 يأت رجل قط بمثل ما جاء به محمد رسول الله ﷺ، إلا عودى...

(١) السيرة ٢٥٤/١.

وليست العرب أقل عنادًا وتمسكًا بدين الآباء، من أمم قبلها كذبت بالحق لما جاءها.
وهذه قريش، لم تصدق سمعها حين جهر فيها المصطفى بدعوته. وكان في حسابها أن تلقاه
مجتمعة على الرفض والتكذيب.
أما وقد آمن به من آمن، فقد وجدت الكثرة الضالة ما تقوله تخديرًا لضميرها بمنطق عنادها
ومقاييس مجتمعتها :

ـ أيؤثر «محمد بن عبد الله» بالنبوة، وما عرفت له قريش مالا ممدودا ولا بنين شهودا، وإن
عرفت له شرف المنبت وكرم الخلق ونقاء السيرة ؟
ـ أينزل عليه هذا القرآن، ولا ينزل على رجل عظيم من أصحاب الثراء والعدد والجاه والنفوذ،
في مكة أو في الطائف ؟

لقد أمضى شبابه كله لم يجمع مالا، ولا تهالك على ما كان قومه يتهاكون عليه من وظائف
السيادة ومراكز الجاه في المجتمع القرشي بأمر القرى.

ثم هو أب لبنات أربع، لم يولد له من البنين غير عبد الله والقاسم، وقد ماتا صغيرين في سن
الرضاعة. وزوجه خديجة شارفت سن اليأس بعد أن بلغت الخامسة والخمسين من عمرها،
ولا يبدو عليه أنه يفكر في أن يستبدل زوجا أخرى مكانها أو يتزوج عليها، وهي أنس دنياه
وموضع حبه وإعزازه، وحياتها الزوجية مضرب الأمثال في حسن العشرة وصدق المودة وعمق
التفاهم والإخلاص...

ولا تذكر قريش أنه شارك فيها يشغلها من صراع على مراكز القوى والجاه، إلا يوم جددت
بناء الكعبة قبل المبعث بخمس سنوات، وارتضت حكمه فيها شجر بين قبائلها من خلاف على
الحجر الأسود، حسمه الأمين بحكمته. ثم لم يعد المجتمع المكي يرى محمدا في الزحام، حتى
مضت خمس سنين وخرج من غار حراء يتلو كلمات الوحي..

قال الوليد بن المغيرة المخزومي، أبو خالد:
ـ أينزل القرآن على محمد، وأترك وأنا كبير قريش، ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير
سيد ثقيف بالطائف، ونحن عظميا القريتين ؟

وذاعت كلمته في أهل القريتين : مكة والطائف، فتركتهم في حيرة قد تشابه عليهم الأمر في
مقاييس العظمة التي يفضل بها المصطفى، عظمي القريتين.

وتلقى عليه الصلاة والسلام من كلمات ربه :

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ٢٩ ﴾
 وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ٣٠ وَقَالُوا لَوْلَا
 نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ٣١ أَهُمْ يَقْسِمُونَ
 رَحْمَتَ رَبِّكَ إِنَّهُمْ قَسَمْنَا لِيَسْمَعُوا مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا
 بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمُ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتَ رَبِّكَ
 خَيْرُ مِمَّا يَجْمَعُونَ ٣٢ ﴾

(صدق الله العظيم)

وكذلك أنكر « أمية بن أبي الصلت » أن يُصطفى محمد بن عبد الله نبياً، وكان أمية يرى
 نفسه أهلاً لهذا الاصطفاء !
 في أخريات الجاهلية، كان ابن أبي الصلت من الفئة القليلة التي أنكرت عبادة الأوثان، وهم
 الحنفاء الذين آنست فيهم أم القرى بقية ميراث من ذكرى دين إبراهيم الحنيف.
 قالوا: ما حجرٌ تطوف به لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع؟ يا قوم، التمسوا لكم ديناً
 فإن قومكم على سفيه وضلال.
 ثم تفرقت بهم السبل:

بعضهم مال إلى النصرانية وأقام في الحبشة أو في بلاد الروم،
 وبعضهم قرأ الكتب فلم يدخل في نصرانية ولا يهودية، واكتفى باعتزال الأوثان والذباح
 التي تذبح قرباناً لها، ونهى عن قتل الموءودة وقال: أعبد ربَّ إبراهيم.
 من هؤلاء، كان أمية بن أبي الصلت: شاعر تقيف وحكيماً،
 وأمه من صميم البيت القرشي: رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف، وعبد مناف هو الجد
 الثالث للمصطفى: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف..
 لم يذهب أمية إلى روم أو حبشة، بل قرأ كتب الدين ورغب عن عبادة الأوثان، وأقام في

قومه يتنبأ لهم بدين جديد آن وقته، ويتحدث فيهم عن نبي مرسل حان مبعثه، ويشدو في ليل الجاهلية بدعاء الفجر المرتقب:

إن آيات ربنا ظاهرات ما يارى فيهن إلا الكفور
حبس الفيل بالمغمس حتى ظل يحبو كأنه معقور
كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفة زور
وبزغ النور الذي بشر به أمية.

وجاء دين التوحيد الذي أرهص به وشدا له.
وإذا به يرفض ويأبى ويستكبر، وبجاهر المصطفى بأشد العداوة والبغضاء.
وانكشف موقفه:

لقد كان يبشر بنبي جديد وهو يرجو أن يكونه.
فلما تخطاه الاصطفاء إلى محمد بن عبد الله الهاشمي ﷺ، نكص على عقبيه كافرًا بدين الحق.

وظاهر الوثنية القرشية في حربها للدين الحنيف، حتى مات على الكفر تدمغه كلمة المصطفى ﷺ، فيه: «آمن لسانه وكفر قلبه».

بعث المصطفى ﷺ، وثلاث من بناته الأربع حديثاً عهداً بالزواج في أعز بيوت قريش: كبراهن «زينب» تزوجها ابن خالتها هالة بنت خويلد: «أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى» حفيد قصي، الجد الرابع للمصطفى. وكان أبو العاص سرياً نبيلاً، مع عراقة نسبه وشرف موضعه.

و «رقية وأم كلثوم» عروسان لابني عم المصطفى: عتبة وعتيبة ابني عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم، من زوجه أم جميل بنت حرب بن أمية بن عبد شمس. وأما صفراهن «فاطمة» فلن تكن بلغت سن الزواج بعد، وقد ولدت قبل المبعث بخمس سنوات...

وأسلمت بنات المصطفى ﷺ، وأزواجهن الثلاثة على الشرك. وكره المصطفى ﷺ أن يخرج بناته المسلمات من بيوت أزواجهن الكفار، ولم يكن الإسلام قد شرع بعد، تحريم زواج مؤمنة بكافر، ولا نزلت آيات القرآن في التفريق بين المؤمنات والكفار...

ووجدتها قريش فرصة سانحة، لتؤذي المصطفى في بناته. قال بعضهم لبعض: - إنكم قد فرغتم محمداً من هممه، فردوا عليه بناته فاشغلوه بهن. ومشوا إلى أصهاره ﷺ، واحداً بعد الآخر، فقالوا لكل منهم: - فارق صاحبك ونحن نزوجك أي امرأة من قريش شئت. فأما أبو العاص بن الربيع، فأبى أن يفارق زوجه «زينب بنت محمد» ورد على من كلموه في فراقها بقوله:

«والله ما أحب أن لي بها امرأة أخرى من قريش». وأما ابنا عبد العزى بن عبد المطلب، فطلقا رقية وأم كلثوم، بالاحاح من أمها بنت حرب، أخت أبي سفيان.

وخاب ظن قريش وكيد بنت حرب. لم يشغل المصطفى ببناته عن دعوته، ولم يشق عليه رجوع بنتيه رقية وأم كلثوم إلى بيته، وقد

أراد الله بهما خيراً فنجاهما من معاشرة ابني أبي لهب، ومحنة العيش مع امرأته حمالة الحطب.
ثم أبدلها الله، بعد حين، خيراً منها:

تزوج رقية عثمان بن عفان أحد السابقين الأولين إلى الإسلام، وهاجرت معه إلى الحبشة ثم إلى المدينة، فلما توفيت يوم بدر خلفتها أختها أم كلثوم، زوجاً لعثمان ذي النورين.

* * *

بئست الكنية أبو هلب، لعبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم.
 قبل أربعين عاماً من المبعث، تلقى عبد العزى بشرى مولد محمد، ابن أخيه الراحل
 عبد الله بن عبد المطلب.
 حملتها إليه مولاة له تدعى «ثويبة» فأعتقها ببشرائها!
 ثم لما بلغ الوليد أشده واصطفاه الله تعالى رسولاً، لم يعد عبد العزى يعرف باسمه، وإنما
 غلبت عليه كنيته أبو هلب!
 كما لصق بامراته أم جميل بنت حرب، لقب حمالة الحطب منذ نزلت فيها آيات المسد:

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ②
 سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاكَ لَهَبٍ ③ وَأُمْرَأَتُهُ كَفَّالَةٌ ④ الْحَطَبُ ⑤ فِي
 جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ⑥ ﴾

لم يكتف أبو هلب بأن يرفض دعوة ابن أخيه ويرد إليه ابنتيه رقية وأم كلثوم طالقين.
 بل تصدى له بالتكذيب والاستهزاء، من الفترة الأولى التي كان المصطفى ﷺ يتهيب فيها
 الجهر بدعوته في الناس، ويكتفى بتبليغها الى من يأنس لديه قبولاً.
 وتلقى المصطفى ﷺ من كلمات الوحى:

﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ⑦ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِئَلَّا تَتَّبِعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ⑧ ﴾

وغدا ﷺ فأقى الصفا فصعد عليه ونادى ينذر عشيرته الأقربين من بنى هاشم وعبد المطلب
 وقريش:
 «واصباحاه»

فلما اجتمع له القوم ابتدرهم قائلاً:
 «أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل، أكنتم مُصدقين؟»
 أجابوا من غير تردد: «ما جربنا عليك كذباً قط».

قال ﷺ: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب أليم».
عندئذ انبرى له عمه عبد العزى قائلاً: «تباً لك! ألهذا جمعتنا؟». ومضى على غلوائه، فكان من أشد الكفار عداوة للإسلام وإيذاءً للنبي ابن أخيه، عليه الصلاة والسلام.

ومن ورائه امرأته أم جميل بنت حرب، أخت أبي سفيان. وقد غاظها أن تسمع ما نزل فيها وفي زوجها أبي هب من القرآن، فخرجت تطلب المصطفى وفي يدها فهر: حجارة تملأ الكف.
وسمعت أنه ﷺ في الكعبة، فاندفعت نحوه في شراسة وهي تهدير صاحبة بالوعيد، لكن بصرها تخطى المصطفى فلم تره، ورأت صاحبه أبا بكر هناك، فسألته:
- أين صاحبك؟ فقد بلغني أنه يهجوني. والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر. إنه إن يكن شاعراً فإني لشاعرة.

وانصرفت وهي ترتجز:
مذمماً عصينا
وأمره قلينا
ودينه أبينا

قال الصديق للمصطفى ﷺ:
- يا رسول الله، أما تراها رأتك؟
فقال عليه الصلاة والسلام:
- «ما رأتني، لقد أخذ الله ببصرها عني».

وحدث مرة أن أخذت أبا هب حمية الدم الهاشمية، فغضب لما رأى من جور قريش على بني هاشم الذين أبوا أن يخذلوا ابن عبد الله بن عبد المطلب، وإن لم يتابعوه على دينه، كراهة أن ييحدوا أوثاناً وجدوا آباءهم لها عابدين.
في خبر أن أبا سلمة المخزومي، ابن برة بنت عبد المطلب، استجار بخاله أبي طالب حين أراد قومه أن يفتنوه عن إسلامه. فمشى رجال من بني مخزوم إلى أبي طالب فقالوا له في غلظة:
- لقد منعت منا ابن أخيك محمداً، فما لك ولصاحبنا تمنعه منا؟

قال: إنه استجار بي، وهو ابن أُختي، فإن أنا لم أُمْنَع ابن أُختي لم أُمْنَع ابن أُختي.
وكان أبو هلب حاضراً فقال مغضباً، وقد أخزاه أن يضام أخوه على مرأى منه ومسمع، قال:
- يا معشر قريش، والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ. ما تزالون تتوثبون عليه في جواره من
قومه، والله لتنتهئن عنه أو لنقومن معه في كل ما قام فيه.

فآثروا الإبقاء على أبي هلب في حزبهم، وقالوا يسترضونه:
- بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة^(١).

لكن أبا عتبة الذي كره أن يضام أخوه أبو طالب، وليس على دين محمد، لم يكره أن يعق
محمدًا ابن أخيه عبد الله، ويخذله ويؤذيه، أعشى سحر أم جميل بصره وذهب ببروئه ونخوته،
فتسلط بالأذى على المصطفى، ابن أخيه، ومن اتبعه. فيقول الشاعر الأحوص في حمالة الخطب،
امراًة أبي هلب:

ما ذات حبل يراه الناس كلهم وسط الجحيم ولا يخفى على أحد
كل الحبال، حبال الناس، من شعير وحبلها وسط أهل النار من مسد

(١) السيرة النبوية: ١٠/٢.

ضاحت بهم ساحة البيت العتيق وقد تجمعوا هناك يهدرون بالوعيد، فيكاد من يراهم يحسبهم محتشدين تأهباً لقتال عدو...

وجاء العدو، فرداً أعزل إلا من إيمانه...

أقبل المصطفى ﷺ على الحرم يمشى خاشعاً حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفاً بالكعبة لا يلقى إليهم بالاً.

وقصرت عنه أيديهم ورماحهم، وطالت ألسنتهم يلمزونه ببعض القول. ومضى في طوافه، فكلما مر بهم تطاولت ألسنتهم بالغمز واللمز، حتى أتم الطواف فواجههم فرداً، ليس معه سلاح غير كلمات ربه.

وتلا كلمة، وقعت عليهم كالصاعقة فما منهم رجل إلا كأن على رأسه طائراً وقع. وانكمشوا متضائلين، حتى ليقول من كان أصخبهم هديرًا وأنكرهم صوتًا: «انصرف يا أبا القاسم، فوالله ما كنت جهولاً».

وانصرف أبو القاسم عليه الصلاة والسلام، فما كاد يغيب عن أبصارهم حتى عادوا أسوداً غضاباً، يقول بعضهم لبعض متلاومين:

- ذكرتم ما أصابكم من أمر محمد، حتى إذا باداكم بكلمة مما تكرهون تركتموه؟

وأجمعوا أمرهم من جديد للقاء العدو

فلما كان الغد وجاء المصطفى يصحبه أبو بكر، لم يمهله حتى يلتاقهم بكلمة تصدعهم، بل وبوا إليه وثبه رجل واحد، وأحاطوا به يقولون متوعدين:

- أنت الذى تقول كذا وكذا؟

وأعادوا عليه ما قال في إنكار أونانهم وتسفيه عقولهم وضلال آبائهم، والمصطفى يجيب: «نعم، أنا الذى أقول ذلك».

وهيأ به يتجاذبون رداءه، فقام أبو بكر دونه يدفعهم عنه ويقول: أقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟

فتحول أسود القطيع إلى أبي بكر يجذون لحيته، وتكاثروا عليه فما تركوه يومئذ إلا وقد صدعوا فرق رأسه^(١)....

* * *

(١) السيرة لابن هننام: ٣١٠/١.

مفاوضة

وبدا لقريش أن توفد رجالاً منها إلى أبي طالب، عم المصطفى وشيخ بني هاشم، لعلهم يستطيعون إقناعه بأن يحمل ابن أخيه على أن يكف عن دعوته التي فرقت كلمتهم ومزقت نملهم.

ومشى وفدهم إلى أبي طالب فقالوا في تودد:

- يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفّه أعلامنا وضللّ آباءنا. فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلّي بيننا وبينه، فإنك على منلٍ ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه... فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً وردّهم ردّاً جميلاً، فانصرفوا عنه وهم يرجون أن ينتهي هذا الأمر الذي أرقّ ليلهم وشغل نهارهم...

لكن المصطفى ﷺ مضى على ما هو عليه: يُظهر دين الله ويدعو إليه، حتى اشتد الموقف بين المسلمين والمشركين تباعداً وتضاغناً، ولم يعد لقريش حديث إلا عن محمد، يحض بعضهم عليه بعضاً.

وعاودوا الكلام مع عمه فقالوا:

- يا أبا طالب، إن لك سناً وشرفاً ومنزلةً فينا. وإنا قد استهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا. وإنا والله لا نصبر على هذا من ستم آباءنا وتسفيه أعلامنا وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين.

وعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم تطاوعه نفسه على خذلان ابن أخيه...

وجاء المصطفى ﷺ فسمع حديث عمه عن شكوى قومه، ثم قال ﷺ:

«يا عم، إني أريدكم على كلمة واحدة».

قالوا بصوت واحد:

- كلمة واحدة؟ نعم وأبيك، وعشر كلمات! فما هي؟

قال ﷺ: «لا إله إلا الله».

فانتفضوا مذعورين وخرجوا غضاباً ينفضون ثيابهم ويهزون رؤوسهم في رفض وإنكار:

﴿ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝ ﴾

قال له عمه بعد خروجهم:

- يا ابن أخى، أبقِ على وعلى نفسك، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق.

ردّ المصطفى ﷺ، وقد ظن أن عمه ضعف عن نصرته:

«يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته».

واستعبر لم يملك دمه، وهو يوشك أن يفارق عمه الذى كان له أباً وكافلاً وراعياً وصديقاً. ناداه عمه وقد رآه يمضى حزينا أسفاً:

- أقبل يا ابن أخى.

فأقبل عليه الصلاة والسلام لسمع كلمة عمه أبى طالب:

- اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً.

ومساومة

عرفت قريش أن أبا طالب لن يتخلى عن نصرة ابن أخيه ولن يخذله، فليس لها إليه من سبيلٍ إلا أن تخوض حرباً مع بنى هاشم وعبدالمطلب.
وفي سورة غيظها وقهرها، زين لها سفهها رأياً أحمق: ماذا لو ساومت أبا طالب على محمد، ابن أخيه، وتعطيه فتى من فتيانها بدلاً منه؟
وليكن هذا البديل «عمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي» زين شباب بنى مخزوم فتوة وجمالاً وعقلاً.

وقبل «عمارة»، رجاء أن تنحسم به الفتنة التي مزقت قومه قريشاً
وبقى أن يرضى أبو طالب!

ومشوا إليه بعمارة بن الوليد فقالوا:

- يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد، أنهد فتى في قريش وأجمله، فخذهُ فلَكَ عقله ونصره، واتخذهُ ولداً فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك، هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم، فنقتله فإنما هو رجل برجل.

ولم يصدق أبو طالب سمعه!

كيف بلغ بهم السفه أن يساوموه على ابن أخيه بمثل هذه الصفقة الحمقاء؟ لقد أضاعت قريش رشدها ورب الكعبة!

قال في تودة:

- والله لبئس ما تساومونني، أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكُم ابني تقتلونهُ؟ هذا والله ما لا يكون أبداً.

قال له «المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف»:

- والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكرهه، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً.

وردَّ أبو طالب على المطعم، حفيد عبد مناف بن قصي:
- والله ما أنصفوني، ولكنك قد أجمعتَ خذلاني ومظاهرة القوم عليّ، فاصنع ما بدا لك.
وانصرف القوم على يأس...
وكذلك نفّض إِبُو طالب يده من بَنِي عمومته، آل عبد شمس ونوفل، ومن أَصهاره وذوى
قرباه فى تيم ومخزوم وزهرة، وأدرك أنَّ القوم قد تظاهروا على مَنْ ينعون محمداً، من بَنِي
عبد المطلب وبَنِي هاشم...
ووثبت القبائل من قريش على مَنْ فيها من أصحاب المصطفى الذين أسلموا معه، يعذبونهم
ويفتنونهم عن دينهم...
وبقى بنو هاشم على نصرة محمد بن عبد الله، إلا قليلاً منهم مع أبي لهب تبت يداه...

فارس

أقبل الفارس عائداً من رحلة صيد...

قد توشح قوسه وأطلق عنان فرسه، حتى إذا دنا من البيت الحرام ترجل إجلالاً للكعبة، ثم انطلق متمهلاً في سموخ وزهو...

وفي طريقه إلى بيته، مرّ بأندية قريش يتلقى حيثما سار تحية الإعجاب بفتوته وفروسيته. وازدهاه أن ترى قريس فيه: حمزة بن عبد المطلب الهاشمي، أعزّ فتى فيها وأسدها شكيمة..

قرب الصف، استوقفته مولاة لعبد الله بن جدعان التيمي، فتمهل ملقياً إليها بعض سمعه، وفي ظنه أن الفتاة مأخوذة ببهاء فتوته.

قالت وهي تسدد إليه نظرة ناقبة:

- يا أبا عمارة، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد أنفا من أبي الحكم بن هشام؟ وجده هاهنا جالساً فاذاه وسبه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف لم يكلمه محمد ﷺ.

ولم يرد عليها الفارس بكلمة.

لوى عنان فرسه وقد احتمله الغضب، فلم يتوقف حتى بلغ البيت العتيق، ولمح أبا جهل بن هشام - هو أبو الحكم - جالساً هنالك بين القوم يتشدد بما أذى به محمد بن عبد الله. فشق حمزة طريقه إليه صامتاً لا يتكلم، إلى أن قام على رأسه فرفع قوسه وشجّه بها شجة منكراً وهو يقول متحدياً:

- أتشتم محمدًا وأنا على دينه أقول ما يقول؟ فرد ذلك على إن استطعت!

وغشى القوم دوار ما كادوا يفيقون منه حتى أدركوا أن السهم قد نفذ!

أسلم حمزة، وكان حتى تلك اللحظة على دين آبائه، وعرفت قريش أن محمدًا ازداد به عزاً ومنعة، فلن يلبث حمزة أن يدخل المعترك بينه وبين المشركين، فارساً لا يلحق به غبار، وأسداً لا يغلب.

وأوى حمزة إلى بيته فبات ليلته مؤرقاً، يدعو الله أن يشرح صدره للدين الجديد الذي أعلن دخوله فيه، مدفوعاً بمروءته وشهامته ونجدته.

حتى تنفس الصبح. فعدا حمزة إلى الكعبة فما استقبلها إلا وقد اطمأن قلبه وتفتح لنور الحق. وسعى من فوره إلى بيت ابن أخيه المصطفى ﷺ فبايعه.

ثم خاض معه معركته الباسلة، أسد الله وأسد رسوله ﷺ. وبسيفه الصارم المنصور جندل رؤوساً من طواغيت قريش يوم بدر، ومن بعده قاتل يوم أُحُد حتى اغتالته حربة غادرة سددها إليه «وحشى» بتحريض من «هند بنت عتبة، زوج أبي سفيان بن حرب».

ورقصت هند على مصرع الفارس البطل، وانتزعت كبده فلاكتها، وذهبت في تاريخ الإسلام بلقب آكلة الأكباد

وذهب الفارس البطل، بلقب سيد الشهداء...

أم يقولون افتراه ؟

﴿..... فَلَا أَقْسِمُ
بِمَا بَصُرْتُمْ ۖ وَمَا لَنَا نَبْصُرُوتُ ۖ﴾ ٢٨ ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۖ وَمَا هُوَ
بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ ۖ وَلَا يَقُولُ كَا فَنُ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ۖ﴾ ٢٩
نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾

(صدق الله العظيم)

الدنيا ليل...

ومكة مؤرقة بسهدا، تشهد ائتمار قريش بالمصطفى ومن معه.
لا عن ارتياب في صدقه وأمانته، ولكن خافت أن تفقد الوثنية سلطانها على العرب، وعليها
كانت قريش تعتمد في ترسيخ نفوذها وجاهاها، وتضخم ثرائها، منذ جعلت المواسم الدينية في
أم القرى، مواسم للتجارة.

وهذا الموسم على وشك اقتراب، ومحمد ﷺ يجهر بدعوته لا يبالي أحداً، وقد سمعت قريش
ما تلاه من كلمات ربه، فأدركت من فورها أنها المعجزة التي لا يملك أي عربي يصغى إليها، أن
يصرف عنها سمعه وقلبه وضميره.

فإن خلَّت قريش بين محمد والقبائل الوافدة على الموسم، يتلو فيها هذا القرآن، فإن العرب
لن يترددوا في الإيمان بالمعجزة...

وفي دار الندوة بمكة، حيث اعتادت قريش من عهد جدّها «قصي بن كلاب» أن تعقد فيها
مجالسها كلما أهمها أمر واحتاجت فيه إلى المداورة وتبادل الرأي، اجتمع نفر من طواغيت
قريش وقام فيهم «الوليد بن المغيرة المخزومي» فقال:

- يا معشر قريش، إن وفود العرب ستقدم عليكم، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا
فيه رأياً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً.

قالوا: فَأَنْتِ يَا أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ فَقُلْ وَأَقِمْ لَنَا رَأْيًا نَقُولَ بِهِ.

قال: بَلْ أَنْتُمْ فَقُولُوا أَسْمَعُ.

قالوا: نَقُولُ، كَاهِنٌ.

وَرَدَّ عَلَيْهِمُ الْوَلِيدُ بْنُ الْمَغِيرَةِ:

- لَا وَاللَّهِ مَا هُوَ بِكَاهِنٍ، لَقَدْ رَأَيْنَا الْكَهَانَ فَمَا هُوَ بِزِمْمَةِ الْكَاهِنِ وَلَا سَجْعَةٍ.

قالوا: فَنَقُولُ، بِمَجْنُونٍ.

وَرَدَّ عَلَيْهِمُ: مَا هُوَ بِمَجْنُونٍ، لَقَدْ رَأَيْنَا الْجُنُونَ وَعَرَفْنَاهُ، فَمَا هُوَ بِخَنْقَةٍ وَلَا تَخَالُجَةٍ

وَلَا وَسْوَستَةٍ.

قالوا: فَنَقُولُ، شَاعِرٌ...

وَرَدَّ عَلَيْهِمُ: مَا هُوَ بِشَاعِرٍ، لَقَدْ عَرَفْنَا الشَّعْرَ كُلَّهُ رَجَزَهُ وَقَصِيدَهُ، وَهَزَجَهُ وَقَرِيضَهُ، وَمَقْبُوضَهُ

وَمَبْسُوطَهُ، فَمَا هُوَ بِالشَّعْرِ.

قالوا: فَنَقُولُ، سَاحِرٌ.

وَرَدَّ عَلَيْهِمُ: مَا هُوَ بِسَاحِرٍ، لَقَدْ رَأَيْنَا السَّحَارَ وَسَحَرَهُمْ، فَمَا هُوَ بِنَفْثِهِمْ وَلَا عُقْدِهِمْ.

وَعُغْلِبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَا يَدْرُونَ مَا يَقُولُونَ فِي الْمَصْطَفَى وَمَعْجَزَتِهِ، فَسَأَلُوا الْوَلِيدَ:

- فَمَا تَقُولُ أَنْتِ يَا أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ؟

· أَجَابَ: وَاللَّهِ إِنْ لَقَوْلُهُ لِحَلَاوَةٍ وَإِنْ أَصْلُهُ لِعِذْقٍ وَإِنْ فِرْعَانُ لَجَنَانَةٍ، وَمَا أَنْتُمْ بِقَائِلِينَ مِنْ هَذَا شَيْئًا

إِلَّا عُرِفَ أَنَّهُ بَاطِلٌ، وَإِنْ أَقْرَبَ الْقَوْلِ فِيهِ أَنْ تَقُولُوا: سَاحِرٌ جَاءَ بِقَوْلٍ هُوَ السَّحَرُ، يَفْرُقُ بَيْنَ

الْمَرْءِ وَأَبِيهِ، وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجَتِهِ، وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَعَشِيرَتِهِ^(١).

وَانْفَضَّ الْمَجْلِسُ بَعْدَ أَنْ أَجْمَعُوا عَلَى أَنْ يَتَرَصَّدُوا لِلْوَفُودِ عَلَى مَدَاخِلِ مَكَّةَ فَيَأْخُذُوا سَبِيلَ

النَّاسِ لَا يَمُرُّ بِهِمْ أَحَدٌ إِلَّا حَذَرُوهُ أَنْ يَسْمَعَ مَا يَتْلُو مُحَمَّدٌ مِنْ كَلِمَاتِ هِيَ السَّحَرُ...

وَالْمَصْطَفَى يَتْلُو مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ:

﴿نَبِّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ مَا أَنْتَ بِنَبِيٍّ رَبِّكَ يُجَنُّونَ ۝﴾

وَأَنْ لَكَ لَا جَرَأَ غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝ وَلَئِنْ لَعَلَّ خُلُقِي عَظِيمٌ ۝ فَسَبِّحْ

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٢٨٨/١.

وَيُصِيرُونَ ⑤ بِأَيِّكُمْ الْفُتُونُ ① إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنَافِينَ ⑦ ﴿

وأوجس أبو طالب في نفسه خيفةً، أن يظهر عامة العرب فومه على ابن أخيه فيجتمعوا ألباً
عليه وعلى من ينصره من بنى عبد المطلب وهاشم، فأنشد في الموسم قصيدة مطولة، يتعوذ فيها
بحرم مكة ومكان المصطفى منها، ويعتب على أشراف قومه ناسداً مروءتهم، ومعلنأ في الوقت
نفسه، أنه لن يخذل ابن أخيه ولن يتركه لشيء أبداً أو يهلك دونه. قال:

إذا اجتمعت يوماً قريشٌ لفخر	فعبد منافٍ سرُّها وصمُّها
وإن حُصِّلَتْ أشرافُ عبدٍ منافٍها	ففى هاشمٍ أشرافُها وقديُّها
وإن فخرت يوماً فإن محمداً	هو المصطفى من سرُّها وكريمها
تداعت قريشٌ غُثَّها وسمينها	علينا فلم تظفر وطاشت حلومها
وكنا قديماً لا نُقر ظُلامة	إذا ما تَنَوَّأ صُغَرَ الحدود نُقيمها
ونحمى حماها كلَّ يوم كريمة	ونضرب عن أجارها من يرومها

وَصَدَرَتِ الْقِبَائِلُ مِنْ ذَلِكَ الْمَوْسَمِ بِأَمْرِ الْمُصْطَفَى ﷺ، فانتشر ذكره في بلاد العرب..

الأيام تمضى...

وحزبُ الله يزداد على الأذى والاضطهاد قوةً ونباتاً.

وقريش تكاد تموت بغيتها، وما تلمح على المصطفى وأصحابه بادرة ضعف أو تردد.

وفي نادى قريش، كان الزعماء يتدارسون الموقف الصعب، حين رأوا المصطفى يأخذ طريقه إلى المسجد الحرام، وحيداً ليس معه صاحب.

قال لهم «عتبة بن ربيعة بن عبد شمس»:

- ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء، وكيف عنا؟

قالوا وقد داخلهم الخوف من إسلام حمزة بن عبد المطلب:

- بلى يا أبا الوليد، فقم إليه فكلّمه...

وقام عتبة حتى جلس إلى المصطفى ﷺ فقال له متلطفاً متودداً:

- يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من الشرف في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفّحت به أحلامهم وعيّت به آلهتهم ودينهم، وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.

قال عليه الصلاة والسلام:

«قل يا أبا الوليد، أسمع».

وقال أبو الوليد:

- يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رتيباً تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُدأوى منه.

سأله المصطفى: «أقد فرغت يا أبا الوليد؟»

قال: نعم.

قال المصطفى ﷺ: «فاسمع مني».

وتلا عليه الصلاة والسلام من سورة فصلت:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 حَمْدٌ ① تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ② كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ
 قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ③ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ
 فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ④ وَقَالُوا أَأُفْلِحُونَ ⑤ إِنَّا نَحْنُ الْغَالِبُونَ ⑥
 وَفَوَيْهَ أَفَاتِنَا وَقُرْآنُ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا عَمَلُوكَ ⑦
 قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ
 فَاسْتَعِذُوا بِاللَّهِ وَاسْتَغْفِرُوا لَهُ وَوَيْلٌ لِلشَّارِكِينَ ⑧

وكان عتبة يُنصت لها وقد ألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليها يسمع من المصطفى.
 فلما انتهى ﷺ إلى قوله تعالى:

﴿..... وَمِنْ آيَاتِهِ
 الْيَلُّ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ
 وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ③﴾

سجد محمد عليه الصلاة والسلام، ثم قال لعتبة: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فانت
 وذاك».

ومضى عتبة مأخوذًا بما سمع، حتى إذا دنا من مجلس أصحابه عرفوا أنه جاء بغير الوجه
 الذي ذهب به. فلما جلس إليهم سأله:
 - ما وراءك يا أبا الوليد؟

قال: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوليه الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تُصِبه العرب فقد كُفِيتُموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملككم ملككم وعِزُّه عزكم وكنتم أسعد الناس به.

قالوا جميعاً: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه.
ورّد عليهم: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم...
وبقى عتبة، مع ذلك، على دينهم ودين آبائهم....

أسلم النهار أنفاسه مرهقاً مكدوداً كأنه يتعجل الليل ليسدل ستاراً من ظلامه على المشهد الفاجع للمؤمنين المستضعفين من موالى قريش، وقد شدَّتْهم بوتاق إلى جمر الصخور الملتهبة في لظى الرمضاء، لعلمهم يرتدون عن دين محمد، عليه الصلاة والسلام.

وبدا لقريش، وقد غربت الشمس، أن تدعو محمداً إلى مجلس زعمائها مجتمعين، لعله يلين.. لقد فشلت المفاوضات مع عمه أبي طالب فلم يكفّه عنهم ولم يُسلمه إليهم، وفشلت كذلك المساومة التي عرضها عليه أبو الوليد عتبة بن ربيعة.

وبقى أن يجربوا مواجهته لرؤسائهم مجتمعين، فيخاصموه حتى يُعذروا فيه.. وحشدوا له فئة منهم، أعلامهم في قومهم كلمةً وألدهم في الجدل والخصومة. فيهم: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبوسفيان بن حرب، والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث بن كلفة، وأبوالبختري بن هشام، وأبوالحكم، أبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل، وأمّية بن خلف... وأجاب المصطفى ﷺ دعوتهم، فجاء إلى حيث أخذوا مجالسهم بظهر الكعبة، وهو يرجو أن يكونوا قد تابوا إلى رشدهم، وكان حريصاً على هداهم يعز عليه عنثهم وضلالهم.

قالوا: يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك: لقد شتمت الآباء وعيّبت الدين وشتمت الآلهة وسفّحت الأحلام وفُرقت الجماعة، فما بقي أمر قبيح إلا جئته فيما بيننا وبينك..

ومضوا في الحديث فعرضوا عليه ما سبق أن عرضه وأفدّهم إليه «عتبة بن ربيعة» من مال وسيادة ومُلك وطبّ..

ورد المصطفى ﷺ:

«ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتمكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا وأنزل علي كتابا وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتمكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم».

قالوا مقترحين، يريدون إعناته:

- يا محمد، فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك، فإنك قد علمت أن ليس من الناس أحد أضيّق بلدًا ولا أقل ماء ولا أشد عيشًا منا، فسَلْ لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليُسِّرْ لنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهارًا كأنهار السام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم فضي بن كلاب فإنه كان شبيخ صدق، فنسألهم عما تقول، أحق هو أم باطل؟ فإن صدقوك وصنعت لنا ما سألناك، صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله، وأنه بعثك رسولا كما تقول.

قال عليه الصلاة والسلام، يرد على مقترحاتهم:

«ما بهذا نُعِثت إليكم، إنما جئتمكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتمكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم».

قالوا:

- فإذ لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك: سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وسله فليجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق كما تقوم، وتلتبس المعاش كما تلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم.

وقال المصطفى ﷺ كلمته:

«ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت بهذا ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا فإن تقبلوا ما جئتمكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم».

ولجوا في العناد فقالوا:

- فأسقط السماء علينا كسفا كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإننا لا نؤمن لك إلا أن تفعل.

وردَّ المصطفى عليه الصلاة والسلام:

«ذلك إلى الله، إن شاء أن يفعله بكم فعله».

قالوا: يا محمد، أفما عَلم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألتك عنه ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذ لم نقبل ما جئتنا به؟ إنه قد بلغنا أنك إنما يُعلمك هذا رجلٌ باليمامة يقال له الرحمن؛ وإذا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرنا إليك يا محمد، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا، فلن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً...

وأيقن المصطفى ﷺ ألا معنى للمضى في ذلك الجدل العقيم. فقام عنهم وقام معه ابن عمته : عاتكة: عبد الله بن أبي أمية بن الميرة المخزومي، فقال له مخاصماً:

- يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل، ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل، فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السوء سبيلاً ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتينا، ثم تأتى معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. وإيم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك^(١):

وانصرف المصطفى ﷺ إلى أهله حزيناً أسفاً لما فاتته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه.. حتى آنسه الوحي بكلمات ربه:

﴿..... قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ
الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ
كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً ﴿٥١﴾ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ

(١) السيرة النبوية، عن ابن اسحاق: ٣١٥/١.

حَتَّى تَنْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ④ أَوْ تَكُونَ لَكَ بَحْثٌ مِنْ نَجِيلٍ
 وَعَيْنٍ فَتُخْرِجَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَجْزِئًا ⑤ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا
 رَعِمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَكِ كَذِبِيًّا ⑥ أَوْ يَكُونُ لَكَ
 بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُفْقِكَ حَتَّى تُنْزِلَ
 عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ⑦
 وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا
 رَسُولًا ⑧ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يُمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ
 مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ⑨ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّكُمْ
 كَانُمْ يَعْبَادُهُ تَجْزِئًا بَصِيرًا ⑩ ﴿

(صدق الله العظيم)

هل كان الكفار من قريش في تكذيبهم بالمصطفى وجحدهم المعجزة، بحيث يغيّب عنهم أن هذا القرآن ليس من قول البشر؟

فيم إذن كان عناؤهم بالإسلام وإعنائهم الرسول، وحرصهم على أن يأخذوا سبل الناس إلى مكة في الموسم، ليصدّوا العرب عن سماع هذا القرآن؟

وفيم كانت حيرتهم فيه لا يدرون بم يصفونه، وإنهم لعلّى يقين من أنه ليس بشعر ولا سحر ولا كهانة؟

وزعموا أن محمداً افتراه؟

لقد عاجزهم القرآن، بأية الإسراء، ومعهم من يُظاهروهم من جنّ قيل إنها تلهم فحول شعرائهم روائع القصيد:

﴿..... قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتْ
الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (٣٨) ﴿

ثم تحداهم بعدها، في سورة يونس، أن يأتوا بسورةٍ مثله، واحدة فحسب، وليدعوا معهم من استطاعوا إن كانوا صادقين في زعم الافتراء:

﴿..... وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ
يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَئِنْ تَصَدَّقُوا الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ
وَتَفْضِلُوا الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٧٥) ﴿أَمْ يَقُولُونَ
أَفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ
دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٧٦) ﴿

بل لماذا، وقد زعموا أن محمداً افتراه، لا يأتون بعشر سورٍ مثله مفتريات، وإنه لبشر مثلهم؟ بهذا تحدّتهم آية هود:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ
قُلْ فَأْتُوا بِشُرُورٍ مِثْلِهِ مَفْرَأَتٍ وَأَدْعُوا مَنَاسِكَتَهُمْ مِّن دُونِ
اللَّهِ إِنَّ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥﴾ فَإِلَهُ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلُوا أَلْمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ
اللَّهِ وَأَن لَّيْلًا لَّهُ وَلَا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

بل لماذا وقد زعموا أنه تقوله، لا يتقولون مثل هذا الكتاب العربي المبين، والعربية لغتهم
والبيان طوعُ أَلستهم؟ وإنه ليتحداهم، بآية الطور، أن يفعلوا:

﴿ فَذَكِّرْنَا أَنْتَ يَنْعَسَتْ رَيْكَ يَكَاهِنُ وَلَا يَجْتُنُونَ ﴿١٧﴾ أَمْ
يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَتَرَبَّصُّ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ ﴿١٨﴾ قُلْ رَبِّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ
الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿١٩﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٢٠﴾
أَمْ يَقُولُونَ تَقُولُهُ بَلْ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٢١﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا
صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

ولقد كان فيهم كُهان يتسلطون عليهم بسحر السجع، وخطباء بلغاء وشعراء فحول، زعموا
أن لهم توابع من الجن. وأعيانهم مع ذلك أن يأتوا بسورة من مثل هذا القرآن، كانت تُعفيهم،
لو استطاعوا مجتمعين أن يأتوا بها، من مثل ذلك الجدل العقيم، والمفاوضات والمساومات
والمحاولات المضنية لصرف العرب عن سماع هذا القرآن، والتسلط على المسلمين بالأذى
والاضطهاد...

وتعفيهم مما كانوا يكرهون من تسفيه آبائهم وسب أهلتهم، ومما كانوا يُوجسون في أنفسهم
خيفة من صدام مسلح يُتوقع بين لحظة وأخرى، وحرب تحصد الرؤوس وتأكل الأهل والعشيرة،
وتتطاول إلى حرمة البيت العتيق والبلد الحرام...

وهؤلاء هم، بكل جبروتهم وعنفوان عنادهم، يحتشدون لمقاومة بشر رسول، معجزته كلمات
من وحى ربه، يعلمون علم اليقين أنها ليست من قول البشر، ويدركون حق الإدراك أنهم
لو خلوا بين المصطفى والعرب يتلو فيهم هذا الكتاب العربي المبين، لما ترددوا في الإيمان
بالمعجزة.

وماذا عساهم، لو آمن العرب بدين التوحيد، صانعين بأونانهم التي جعلت من أم القرى
المركز الأكبر للعبادة والتجارة؟
وبالأوضاع السائدة والتقاليد والأعراف الراسخة، التي ضمنت لقريش نفوذها وتراءها؟
بينهم وبين هذا القرآن حجاب:

﴿..... وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ
الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤٦) وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ
تَهْدِي الْغَيَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ﴾ (٤٧) ﴿
(صدق الله العظيم)

سجا الليل وهجعت أم القرى، والمصطفى في بيته قائم لربه يتعهد بالقرآن حتى انبلج
الفجر فصلّى، والنور البازغ يهل من شرق الأفق...

وغير بعيد من بيته ﷺ، التقى ثلاثة من مسركى قريش على غير موعد:
أبوسفيان بن حرب الأموى، وأبو جهل بن هشام المخزومى، والأخنس بن شريق
النقفى...

وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون: فيم الخروج في هذا الوقت؟ وإذا كل واحد منهم قد
تسلل في الليل مستتراً بالظلام، فبات ليلته قريباً من بيت محمد، ليستمع إليه وهو يصلى ويتلو
القرآن!

فتلاؤموا، وتعاهدوا على ألا يعودوا إلى مثلها، لئلا يراهم بعض السفهاء فيوقعوا في نفسه
نسيئاً، أو يقتفى خطاهم فتنفذ كلمات القرآن إلى سمعه وقلبه وتملك عليه أمره.

في الليلة التالية، عاد كل رجل منهم خفية إلى موضعه قرب بيت المصطفى ﷺ، وفي حسابه
أن صاحبيه على عهدهما ألا يخرجوا إلى هذا الموقف.

حتى طلع الفجر وتفرقوا فجمعهم الطريق، فتلاؤموا وانصرفوا على مثل عهدهم أول ليلة.
لكنهم عادوا خفية في الليلة الثالثة، فأخذ كل منهم مجلسه هناك، فباتوا يستمعون إلى القرآن
حتى مطلع الفجر، لا يدرى أحد منهم بمكان صاحبيه...

فلما جمعهم الطريق تناكروا واشتدوا على أنفسهم في التلاؤم، وصمموا على ألا يبرحوا
مكانهم إلا على عهد وتيق ألا يعودوا لمثلها أبداً..

وأصبح الصبح فخرج «الأخنس بن شريق» من بيته مبكراً، يريد أن يحسم الأمر: أتى
أبا سفيان في داره فابتنده قائلاً:

- أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد.

قال أبو سفيان، في حيرة وتعثر، وقد بوغت بالسؤال:

- يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت
معناها ولا ما يراد بها. ثم أمسك لم يزد.

فتركه الأخنس لم يدر ما رأيه، ومضى إلى أبي الحكم بن هشام يسأله الرأي فيما سمع من محمد.

قال أبو جهل، في أخذة المباغته:

- ما سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا. حتى إذا كنا كفرسى رهان قالوا: «منا نبي يأتيه الوحي من السماء» فمقى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه^(١).

وانصرف الأخنس، وقد انكشف له المستور من أمر أبي جهل..

* * *

(١) السيرة النبوية : ٣٣٧/١.

تسامعت قريش بخروج سيد بنى دوس: «الطفيل بن عمرو الدوسي» حاجاً إلى مكة في الموسم، فأسرع رجال منهم يستقبلونه على مشارفها قبل أن يدخلها، وهم يحسبون له ألف حساب.

كان ساعراً شريفاً لبيباً مطاعاً في قومه، فلو أن مسركى قريش تركوه يستمع إلى القرآن، لأسلم وأسلمت من ورائه قبيلة دوس كلها...

قالوا: يا طفيل، إنك قديمٌ بلادنا، وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرق جماعتنا وستت أمرنا، وإنما قوله كالسحر يُفرق بين الرجل وبين أبيه وأخيه وزوجه وبنيه، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمنه ولا تسمعن له شيئاً.

ثم ما زالوا به، ينصحون ويحذرون، حتى أفنعه. فاطمأنوا إلى وعده وقد أجمع ألا يكلم محمداً ولا يسمع منه.

واتجه طفيل إلى الكعبة وقد حشا أذنيه قطناً، يتقى به أن يبلغ سمعه صوت الداعى إلى الإسلام.

غير أنه ما كاد يلمح المصطفى قائماً يصلى عند الكعبة حتى اقترب منه على غير قصد، فنفذت إلى سمعه كلمات من القرآن لم يصدها ما حشا به أذنيه.

قال يحدث نفسه مسترجعاً: وانكل أمى! والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى القول على، فما ينعنى من أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان حسناً قبلته وإن كان قبيحاً تركته؟

وانتظر حتى انصرف المصطفى ﷺ إلى بيته. فتبعه ودخل عليه فقال:

— يا محمد، إن قومك قد قالوا لى كذا وكذا.. فوالله ما برحوا يخوفونى أمرَك حتى سددت أذننى لئلا أسمع قولك. ثم أبى الله إلا أن يُسمعى قولك فسمعتَه قولاً حسناً، فاعرضْ علىَّ أمرَك.

وعرض المصطفى عليه السلام، وتلا عليه القرآن. فيقول الطفيل:

«فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ولا أمراً أعدل منه. فأسلمت وشهدت شهادة الحق. وقلت: يا نبي الله، إني امرؤ مطاع في قومي وأنا راجع إليهم وداعبهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لى آية تكون عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه».

ودعا له المصطفى ﷺ.

ورجع «الطفيل» إلى قومه ووجهه يتألق بنور الإيمان، فأقام فيهم يدعوهم إلى الإسلام. حتى كانت غزوة خيبر - في مستهل السنة السابعة للهجرة - فوفد «الطفيل بن عمرو الدوسي» على النبي ﷺ في دار هجرته ، ومعه سبعون أو ثمانون بيتاً أسلموا من بني دوس. وبقى الطفيل في صحبة المصطفى حتى لحق ﷺ بالرفيق الأعلى، فقاتل صاحبه الطفيل مجاهداً في حرب الردة، حتى قُتل شهيداً في «اليمامة» رضى الله عنه.

* * *

هجرة إلى الحبشة

﴿..... وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبِيِّنَهُمْ
فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَاجَرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾
الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ
إِلَّا رِجَالًا أَنْبَايَ إِلَيْنَاهُمْ فَكَفَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

(صدق الله العظيم)

ضَرَبَ اضْطَهَادُ الْمَشْرِكِينَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي مَكَّةَ، وَتَقَى عَلَى الْمُصْطَفَى ﷺ مَا يَصِيبُ أَصْحَابَهُ مِنَ
الْبَلَاءِ، وَأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَمْنَعَهُمْ مِنْهُ، وَلَمْ يُؤْمَرْ بِقِتَالِ. فَصَحَّ لَهُمْ قَائِلًا:
«لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ فَإِنْ بِهَا مَلِكًا لَا يُظْلَمُ عَنْدهُ أَحَدٌ، وَهِيَ أَرْضُ صَدَقَ، حَقٌّ
يَجْعَلُ اللَّهُ لَكُمْ فَرْجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ».

فَخَرَجَ الْفُوجُ الْأَوَّلُ مِنْ مَهَاجِرَةِ الْحَبَشَةِ، وَفِيهِمْ «رُقِيَّةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ» ﷺ، مَعَ زَوْجِهَا
«عَنْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ» وَابْنُ خَالِهَا «الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ بْنِ خُوَيْلِدِ الْأَسَدِ».

وَمَعَهُمْ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ: مُصْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ بْنُ هَاشِمٍ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ بْنُ عَبْدِ الدَّارِ بْنِ قُصَيٍّ.
وَمِنْ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ: أَبُو حَذِيفَةَ بْنُ عَتَبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ - أَخُو هِنْدَ وَصَهْرُ أَبِي سَفْيَانَ بْنِ
حَرْبٍ - تَصَحَّبَهُ زَوْجُهُ: سَهِيلَةُ بِنْتُ سَهِيلٍ بْنِ عَمْرِو الْعَامِرِيِّ.

وَمِنْ بَنِي زُهْرَةَ، أَخْوَالِ الْمُصْطَفَى: عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ الزُّهْرِيُّ.
وَمِنْ بَنِي مَخْزُومٍ، أَصْحَارِ الْمُصْطَفَى: أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الْأَسَدِ بْنِ هَلَالٍ، ابْنُ عَمَةِ الْمُصْطَفَى:
بِرَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمَطْلُبِ. مَعَهُ زَوْجُهُ «أُمُّ سَلَمَةَ»، هِنْدُ بِنْتُ زَادِ الرِّكَبِ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيَّ
الَّتِي تَزَوَّجَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ، بَعْدَ وَفَاةِ أَبِي سَلَمَةَ مِنْ أَثَرِ جُرْحٍ أَصَابَهُ فِي أَحَدِ.

وفصل الركْبُ من أم القرى مودَّعا مغاني الصبا وديار الأهل والعشيرة. وأخذوا طريق
الجنوب وقد هَوَّنَ عليهم متنتقة الاغتراب وشجَّنَ الفراق، أن هاجروا في سبيل عقيدة آمنوا بها،
والتمسوا العوض عمن فارقوا من أهل وأحباب، في هؤلاء الصحب الكرام، رفاق السفر
والإخوة في الدين والهجرة.

رحبت الحبشة بالمهاجرين الأولين، ثم ما لبثت أن استقبلت أفواجا جديدة من الصحابة المؤمنين، فيهم: جعفر بن أبي طالب - ابن عم المصطفى ﷺ - وزوجه أسماء بنت عميس، وعمرو بن سعيد بن العاص الأموي، وأخوه خالد. وعبيد الله بن جحش - ابن عمه المصطفى أميمة بنت عبد المطلب - معه امرأته «رملة بنت أبي سفيان» أم، حبيبة ابنته، التي ولدتها له في الحبشة. وعامر بن أبي وقاص الزهري. والسكران بن عمرو العامري، معه امرأته «سودة بنت زمعة بن قيس» التي تزلت وتزوجها المصطفى ﷺ بعد عام الحزن..

وبلغت عدة المهاجرين ثلاثة وثمانين رجلاً، خرجوا من ديارهم وأموالهم مهاجرين بدينهم. وجاءت الأنباء من الحبشة، أنهم وجدوا فيها داراً وأماناً، وتناشد المسلمون في مكة، فصيده المهاجر «عبد الله بن الحارث بن قيس» رضى الله عنه، وفيها يقول:

ياراكبا بَلَّغْنِ عَنِ مَغْلَغَلَةٍ	من كان يرجو بلاغ الله والدين
كلُّ امرئ من عباد الله مضطَّهِدٍ	بِطْنِ مَكَّةَ مَقْهُورٍ وَمُفْتُونٍ
إنَّا وجدنا بلاد الله واسعة	تُنْجِي مِنَ الذِّلِّ وَالْمُخْزَاةِ وَالْهُونِ
فلا تقيموا على ذل الحياة وخز	ى في الممات وعيب غير مأمون

جُنَّ غِظَ قَرِيْشٍ، فَندبت اثنين من دُهاتها: عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص، ليرحلا إل الحبشة فيفسدا ما بين النجاشي والمهاجرين المغتربين، ويسعيا لديه حتى يخذلهم ويسلمهم إلى قومهم.

وبعثت معها الهدايا مما يُستطرف من أسواق مكة، رشوة إلى النجاشي وبطارقته، فانطلقا بها على مرأى ومسمع من المصطفى عليه الصلاة والسلام والذين معه في أم القرى.

وأشفق أبو طالب من مكيدة الرجلين، على مَنْ بأرض الحبشة من المهاجرين، وفيهم ابنه جعفر، وولدا بنتيه برة وأميمة، وحفيدة أخيه عبد الله رقية بنت محمد...

فأنشد شعراً رجا أن يبلغ سمع النجاشي:

ألا ليت شعري كيف في النأى جعفر وعمرو، وأعداء العدو الأقاربُ

وهل نالت آفعال النجاشى جعفرًا وأصحابه، أو عاق ذلك شاغب
تعلّم أبیت اللعن أنك ماجد كريم فلا يشقى لديك المجانب
وأنتك فيض ذو سجال غزيرة ينال الأعادى نفعها والأقارب
فهزت قريش رموسها لما سمعت نداءه، وقال قائلها مستهزئًا: ما يبلغ صوت الشيخ
أبى طالب من مكيدة عمرو وصاحبه؟ وما يُجدى الشعر مع الهدايا التى حملاها من مكة رشوة إلى
النجاشى وبطارقته؟

بدأ وافدا قريش بالبطارقة، فقليل كل بطريق هديته ووعد خيرًا.
ثم تقدما إلى النجاشى فوضعا الهدايا بين يديه وقالا له: «أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك
غلمان منا سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن
ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعسائرتهم لتردهم إليهم،
فهم أبصر بهم وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه».
وأيد البطارقة المرتشون التماس الرجلين وقالوا للنجاشى: «صدقا أيها الملك. قومهم أعلم
بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما فيرداهم إلى بلادهم وقومهم».
لكن النجاشى أبى أن يسلمهم قبل أن ينظر فى أمرهم ويسمع ما يقولون. وأمر باستدعاء
رجال منهم فجاءوا وقد دعا النجاشى أساقفته ومعهم كتبهم الدينية.
سأل المهاجرين:

- ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى ديني ولا فى دين أحد من هذه الملل؟
فأجاب عنهم جعفر بن أبى طالب:

«أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام
ونسئ الجوار ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف
نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من
دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار
والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف
المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.
فصدقناه وأماناً به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا

ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا. فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث. فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك».

سأله النجاشي:

- هل معك مما جاء به عن الله من شيء فتقرأه عليّ؟

فقرأ جعفر بن أبي طالب آيات من سورة مريم، لم تكذب ترجم وتنفذ إلى سمع النجاشي حتى اغرورقت عيناه بالدمع خشوعاً وتأثراً. وكذلك بكى أسأفته حتى أخضلوا مصاحفهم.

وقال النجاشي، موجهاً خطابه إلى وافدي قريش:

«إن هذا، الذي سمعته، والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة. انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون».

وانصرفا، أما عبدالله بن أبي ربيعة - وكان أتقى الرجلين - فساوره ما يشبه القلق، لما رأى من خشوع النجاشي وأسأفته عندما سمعوا القرآن، وأخجله أن يكون هذا الملك الغريب أبر بالمهاجرين من قومهم وذوى أرحامهم.

وأما عمرو بن العاص فلم يجد في موقف النجاشي ما يدعو إلى يأس، وله من ذكاء الحيلة وبراعة الدهاء ما يغريه بمعاودة الكرة.

قال لصاحبه: «والله لآتين النجاشي غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم».

وردَّ عبد الله: «لا تفعل، فإن لهم أرحاماً وإن كانوا خالفونا».

فلم يبال عمرو تراجع صاحبه، بل قال كمن لم يسمع رده: «والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد».

وسعى في الغد إلى قصر النجاشي فاستأذن في الدخول وقال بعد أن حياه:

- أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فسألهم عما يقولون فيه.

وأمر النجاشي فجاءه بجعفر بن أبي طالب وصحبه من وفد المهاجرين، وقد سمعوا بمكيدة عمرو، وأجمعوا أمرهم على أنهم إذا سئلوا عما يقولون في عيسى بن مريم عليه السلام، لم يجيبوا بغير ما جاءهم به المصطفى ﷺ من وحى ربه.

فلما اجتمع المجلس ابتدروهم النجاشي يسأل:

- ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟

أجاب جعفر:

- نقول والله ما قال الله وما جاءنا به نبينا ﷺ: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها

إلى مريم العذراء البتول.

فمدَّ النجاشي يده فالتقط عودًا من الأرض ثم قال لجعفر وصحبه: والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود، اذهبوا فأنتم آمنون بأرضي، من سبكم غريم، وما أحب أن لي جبلاً من ذهب وأني آذيت رجلاً منكم.

ثم التفت إلى بطارقه وقال وهو يشير إلى وافدي قريش: «ردُّوا عليها هداياها فلا حاجة لي بها. فوالله ما أخذ الله مني الرشوة، حين رد عليَّ ملكي فأخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فاطمهم فيه»^(١).

مع المهاجرين إلى الحبشة، كانت «رملة بنت أبي سفيان بن حرب» في صحبة زوجها «عبيد الله بن جحش الأسدي» ابن عمه المصطفى. أميمة بنت عبدالمطلب.

خشيت أذى أبيها قائد المشركين في حربهم للإسلام، فرحلت مهاجرة، وتركته بمكة قد جنَّ غيظه وقهره، أن أسلمت ابنته وليس له إليها سبيل.

وفي الحبشة، وضعت رملة بنتها «حبيبة بنت عبيد الله» فما كادت تانس بها عن فارقت في مكة من أهل ووطن، حتى رُوِّعت بما لم تُرِيع به مسلمة قبلها:

ارتد عبيد الله عن دينه الذي هاجر به إلى الحبشة، واعتنق النصرانية وانقطع ما بينه وبين رملة.

وكادت «أم حبيبة» تهلك غماً وقهراً وحسرة:

فيم كانت هجرة عبيد الله، من محنة البلاء بأذى قومه؟

لقد كان أكرم له أن يبقى على دين آبائه وأن يناضل عنه مع أهله وعشيرته، دفاعاً عن مقدسات موروثه.

(١) من حديث الهجرة. رواه ابن اسحاق - (السيرة النبوية: ٣٥٧/١) - بإسناد عن «أم سلمة» وكانت رضي الله عنها إحدى المهاجرات.

أما أن يكفر بدين قومه ويرضى الإسلام ديناً، ليصبأ في الحبسة ويستبدل بالإسلام ديناً لقوم غرباء، كمن يبدل ثوباً بثوب، فأية مهانة وأى عار؟

وهذه الوليدة الحبيبة، ما ذنبها لتبتلى بأبٍ صابئ مرتد؟ وما جريرتها لتبدأ الحياة في أرض غريبة وقد انبت ما بين أبويها وتمزق شمل أهلها وتوزعتهم ملل شتى: فأبوها نصراني، وأمها مسلمة، وجدها مشرك عدو للإسلام؟

واعزلت «أم حبيبة» الناس بابتها، مضاعفة الغربة، قد تقوض بيتها في منازل المهاجرين، ولا سبيل لها إلى أرض الوطن، وأبوها هناك يضطهد الدين الذي آمنت به، ويؤذي النبي الذي صدقته واتبعته...

وأين تراها تقيم في أم القرى لو عادت؟
أفي بيت أبويها وقد حيل بينها وبينه منذ أسلمت؟
أم في دار آل جحش رهط زوجها، وقد أوصدت أبوابها وصارت منهم مقفرة خلاء؟
لقد بلغها من أنباء مكة أن «عتبة بن أبي ربيعة، والعباس بن عبد المطلب، وأبا جهل بن هشام بن المغيرة» مروا بديار بني جحش وهم مصعدون إلى أعلى مكة، فنظر إليها «عتبة» تخفق أبوابها يباباً ليس فيها ساكن، ثم تنفس الصعداء وقال معتبراً:

وكل دار وإن طالت سلامتها يوماً ستدرکہا النوباء والحوب
أصبحت دار بني جحش خلاءً من أهلها.

فقال أبو جهل:

«وما تبكي عليه؟» نم استطرد:

«هذا عمل ابن أخي، فرق جماعتنا وشئت أمرنا وقطع بيننا»^(١).

كلا، لا سبيل لرملة إلى مكة والمركة محتدمة بين أبيها والنبي الذي تصدقه، ودار بني جحش تخفق أبوابها يباباً!

في عزلتها الحزينة، جاءتها رسالة النجاشي مع مولاة له:
«إن الملك يقول لك: وكل من يزوجك من نبي العرب، فقد أرسل إليه ليخطبك له!».

(١) السيرة لابن هشام: ١١٥/٢.

لم تصدق أم حبيبة سمعها، فلما أعادت عليها مولاة النجاشي الرسالة التي جاءتها بها، استيقنت من البشرى فنزعت سوارين لها من فضة، قدمتها إلى مولاة النجاشي حلوة البشرى. ثم أرسلت إلى «خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس» - كبير المهاجرين من قومها بنى أمية، - فوكلته في زواجها.

وتم عقد الزواج، وأولم النجاشي وليمته لشهود العقد من المسلمين المهاجرين. وباتت أم حبيبة ليلتها وهي أم المؤمنين رضى الله عنها. وفي الصباح حملت إليها مولاة النجاشي هدايا نسائه من عودٍ وعنبرٍ وطيب، فقالت أم المؤمنين وهي تقدم إليها خمسين ديناراً، من صداقها: «كنت أعطيتك السوارين أمس وليس بيدي شيء من المال، وقد جاءني الله عز وجل بهذا». فأبت الفتاة أن تمس الدنانير، وردت السوارين قائلة إن الملك أجزل لها العطاء وأمرها ألا تأخذ من السيدة زوج النبي العربي شيئاً، كما أمر نساءه أن يبعثن إليها مما عندهن من طيب... وتقبلت أم المؤمنين الهدية شاكرة، فاحتفظت بها حتى حملتها معها إلى بيت النبي حين تركت الحبشة إلى المدينة في السنة السادسة للهجرة، فكان ﷺ يرى عندها طيب الحبشة وعودها فلا ينكره^(١)...

* * *

(١) الإصابة: الجزء الثامن. وتاريخ الطبري ٨٩/٣. والسمط الثمين للمحب الطبري: ٩٧، ٩٨.

في انتظار عودة عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة من الحبشة، التمس قريش غفوة تنسى فيها قهرها وهمها، وتستمرى مذاق أحلامها برجوع وافديها إلى النجاشي، ومعها المهاجرون مطرودين من جواره وأرضه، لتسومهم سوء العذاب فيكونوا عبرة لغيرهم من المسلمين، لا رجاء لأحد منهم بعدها في مهرب، وقريش من ورائهم تطاردهم فتدركهم حيثما ذهبوا، فكانهم وإياها نايغة بنى ذبيان إذ يقول للنعمان ابن المنذر:

فإنك كالليل الذي هو مُدركي وإن خلتُ أن المنتأى عنك واسع
لكنها غفوة لم تطل:

خبرُ تردد في أحياء مكة، هز مضاجع الغافين وأطار النوم من عيونهم ومزق أحلامهم بددا... واسترابوا في يقظتهم تحت صدمة المباغته، فخيّل إليهم أن ما يسمعون عن «عمر بن الخطاب» لا يعدو أن يكون من أضغاث الأحلام وهذيان هواجس الوهم.
أيمن أن يُسلم عمر؟

لا بد أن من نقل الخبر وهم فيه كما وهبت «أم عبد الله بن عامر» حين مر بها عمر بن الخطاب وهي وأهلها يترحلون إلى أرض الحبشة، وقد خرج زوجها عامر بن ربيعة في بعض حاجاتهم.

قال لها عمر: إنه للانطلاق يا أم عبد الله؟

فردت عليه وقد ذكرت ما كانوا يلقون من البلاء والأذى:

- نعم والله، لنخرجن في أرض الله. آذینمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله مخرجنا.

فما زاد عمر على أن قال:

- صَحِبْكُمْ اللَّهُ!

فأحست منه رقة لم تكن تراها من قبل، وتحدثت بذلك إلى زوجها عامر حين عاد، وقالت:

فيما قالت:

- يا أبا عبد الله، لو رأيت عمرَ أنفا، ورقته وحزنه علينا؟

سأها زوجها مستخفاً بسذاجتها وطيب قلبها:

- أطمعت في إسلامه؟

أجابت: نعم.

قال عامر: فلا يُسلم الذى رأيت حتى يُسلم حمارُ ابن الخطاب!
وتناقل المشركون كلمته، وما منهم إلا وهو على رأى عامر بن ربيعة، يأساً من إسلام
عمر بن الخطاب، لما كان يرى من غلظته وشدة قسوته على الإسلام.
وما كان الذى ظنته «أم عبد الله بن عامر» من رقتة إلا وهما.
أو هذا هو ما تعلل به المشركون وهم يسمعون ما أنكرت آذانهم من القصة الغريبة عن
إسلام عمر بن الخطاب.

خرج متوشحاً سيفه، وأخذ مسراه إلى «الصفاء» وفي عينيه بريق يتوهج.
فهنالك عند الصفا بيت يعرفه، سمع أن محمداً يجتمع فيه مع رهط من صحابته، نحو أربعين،
ليعبدوا رب محمد.

وفي طريقه إلى هذا البيت عند الصفا، لقيه «نعيم بن عبد الله» فسأله: أين تريد يا عمر؟
أجاب: أريد محمداً هذا الصائغ الذى فرّق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب
آلهتها، فأقتله.

قال له نعيم:

- غرّتك نفسك يا عمر! أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً؟
أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟

سأله عمر مسترياً:

- وأى أهل بيتي؟

قال نعيم:

- صهرُك وابنُ عمك، سعيد بن زيد بن عمر وبن نفيل، وزوجه فاطمة بنت الخطاب،
أختك، فقد والله أسلموا وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما.
وصكّ الخبر مسمع عمر، فعَدَلَ عن طريق الصّفا وانطلق إلى بيت صهره وابن عمه، يهدر
بالغضب والوعيد...

فلما دنا من البيت، توقف يصغى إلى تلاوة خافته، ثم اقتحم الباب فلمح أخته فاطمة تخفى صحيفة معها.

سأل وهو ينقل بصره بينها وبين زوجها سعيد:
- ما هذه الهينة التي سمعتُ؟ لقد أُخبرتُ أنكما تابعتما محمداً على دينه.
وبطش بابن عمه سعيد بن زيد، فقامت فاطمة لتكفّه عن زوجها فضرّبا فشجّها، وعندئذ قالاً معاً، في تحدٍّ وإصرار:

- نعم، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك.
وفجأة، تراخت قبضة عمر عن سعيد، وكأنا أخذ بإيمانها أو كأنه ندم حين رأى دم أخته يسيل من أثر شجّته. قال لها مسترجعاً:
- أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون منها أنفاً، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد.
وأقسم لها بألته، ليردّن الصحيفة إليها بعد أن ينظر ما فيها. لكنها أبت عليه أن يمسه حتى تطهر، فأعطته إياها وفيها (سورة طه) وقراها عمر فبدا عليه الخشوع وقال:
- ما أحسن هذا الكلام وأكرمه!

وعاد السارى فأخذ طريقه إلى الصفا.
طرق باب البيت على المصطفى ﷺ وصحابته، فقام رجل منهم فنظر من خلل الباب، ثم أقبل على المصطفى ﷺ فقال وما يخفى فزعه:
- يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً بالسيف.
قال عليه الصلاة والسلام: «اأذن له».
ونفض إليه فلقية في الحجرة وسأله:
- ما جاء بك يا ابن الخطاب؟

أجاب عمر: جئتُك لأومن بالله، وبرسوله، وبما جاء من عند الله.
عندئذ كبر المصطفى عليه الصلاة والسلام تكبيراً عرف منها أهل البيت من الصحابة «أن عمر قد أسلم».

وسرى صداها في أرجاء مكة بخبر إسلام عمر، فبات المشركون بين مصدق ومكذب.

حتى غدا «عمر» عليهم وهم في أنديتهم حول الكعبة، وقد تقدمه ابن معمر الجمحي، فصاح بأعلى صوته:

- يا معشر قريش، ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ.

قال «عمر» من خلفه:

- كذب، ولكني أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله.

وثاروا إليه، فواجههم فرداً لا يبالينهم، ثم أخذ مجلسه قرب الكعبة وهو يقول:

- افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا.

* * *

الحصار . . . وعام الحزن

﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ٩٦ ﴿

(صدق الله العظيم)

لم يكن المشركون من قريش قد أفاقوا من صدمة إسلام عمر بن الخطاب، حين عاد وافداهم إلى النجاشي، يحملان إلى مكة صدمة الخيبة وفشل المسعى. فهل لم يبق إلا الحرب؟

لقد رفض المصطفى كل ما عرضوه عليه من مقترحات ليكف عن دعوته، وأبى أن يساوموه على دينه.

وكذلك فشلت كل المفاوضات مع أبي طالب، ليكف عنهم ابن أخيه أو يخلى بينهم وبينه. والإسلام يفشو في القبائل،

وزعامة قريش تهتز وترنح، وتوشك أن تفقد سيطرتها على الموقف، وقد اعتز الإسلام بحمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب، ومثلها في الرجال قليل.

وهذا النجاشي يفتح بلاده لمن يهاجر من المسلمين، ويؤمن كل من يلجأ إليه منهم، ويأبى أن يسهم أذى في جواره.

وبدأت قريش تتأهب لجولة حاسمة، ولمح أبو طالب نذر الشر فدعا عنسيرته الأقربين إلى منع محمد - ﷺ - والقيام دونه، فأجابوه، إلا أبا لهب، عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم. لكن قريشاً، وقد عيل صبرها من صبر المسلمين، كرهت أن تخوض حرباً مسلحة مع آل عبد المطلب وبني هاشم، وهم من صميمها.

واستقر الرأي بعد طول مداولات، على أن تفرض عليهم حصاراً اقتصادياً واجتماعياً لا يرحم.

واجتمع زعماء قريش فائتمروا فيما بينهم على مقاطعة بنى هاشم: (لا يصهرون إليهم ولا يبيعونهم شيئاً ولا يبتاعون منهم)، وسجلوا حلف التعاقد في صحيفة علقوها في جوف الكعبة، توثيقاً لحرمتها وتوكيداً على أنفسهم في التزامها^(١).

وأقاموا على ذلك الحلف المشنوم زمناً، سنتين أو ثلاثاً، لقي فيها المسلمون والهاشميون من جهد الحصار ما لا يحتمل، وحيل بينهم، - وقد انحازوا إلى شعب أبي طالب - وبين الطعام والشراب يشترونه من التجار الوافدين على أسواق مكة، وقد يأتي أحد المنحازين إلى الشعب سوق مكة يلتمس قوتاً يشتريه لعياله، فيقوم أبو لهب ويصيح بالتجار:

«غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئاً، وقد علمتم ما لي ووفاء ذمتي».

فيزيد التجار ثمن السلعة أضعافاً مضاعفة، ويرجع أصحاب محمد ﷺ إلى صبيبتهم بالشعب وليس في أيديهم طعام، ويرجع التجار إلى أبي لهب فيفيهم ثمن ما غالوا فيه على المحاصرين فلم يدركوه.

وبلغ منهم الجوع وجهد الحصار مبلغاً يصوره قول «سعد بن أبي وقاص الزهري» رضى الله عنه بعد محنة الحصار بسنين:

«لقد جُعت حتى إني وطئت ذات ليلة على شيء رطب فوضعت في فمي وبلعته، وما أدرى ما هو حتى الآن». وكانت التمرة الواحدة ربما وقعت لاثنتين منهم يقتسمانها فيكون أحسنها حظاً من وقعت نواة التمرة في قسمه، يلوكها بقية يومه!

وإنما كان طعامهم الخبط وورق السمر، وما قد يأتيهم به سرّاً بعض ذوى رحمهم، بدافع من المروءة والنجدة، مستخفياً به من طواغيت قريش الساهرين على إحكام الحصار وإنفاذ وثيقة المقاطعة.

روى ابن إسحاق في (السيرة النبوية) والطبري في (تاريخه) أن أبا جهل بن هشام لقي «حكيم بن حزام بن خويلد الأسدي» معه غلام يحمل قمحا، يريد به عمته «خديجة بنت خويلد» مع زوجها المصطفى ﷺ في شعب أبي طالب. فتعلق أبو جهل بحكيم وقال له:

- أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة.

ولمحمها «أبوالبختري بن هاشم الأسدي» فجاء يسأل أبا جهل: مالك وله؟

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ٣٧٩/١ وتاريخ الطبري: ٢٢٥/٢.

قال: يحمل الطعام إلى بنى هاشم.
فما راعه إلا أن قال أبو البختری:
«وما في هذا؟ طعام كان لعمته عنده، بعثت إليه فيه، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها؟ خلّ سبيل الرجل».

فرفض أبوجهل أن يستجيب له، وتشاداً فأخذ أبو البختری يلحى بعير فضربه به فشجّه، ووطئه وطيناً شديداً. وحمة بن عبد المطلب يرى ذلك من قرب، ويتأهب للبطش بأبي جهل. وهم يكرهون مع هذا أن يبلغ خبر ذلك ومثله، رسول الله ﷺ وأصحابه بالشعب.

ثم كان لليل الحصار آخر:
اهتزت ضمائرف من قريش فأنكروا الحلف المستنوم الذى تورطوا فى التعاقد عليه منفعلين بعاطفة الجماعة وغريزة القطيع، وقد صبروا عليه طويلاً مكرهين، حتى بلغ ذروته القاسية فى مثل ما كان من أبى جهل بن هشام مع حكيم بن حزام.

وكان أول من تكلم فى الحلف وسعى فى نقضه «هشام بن عمرو بن ربيعة العامرى» وكانت تربطه بالهاشميين صلة رحم، فهو ابن أختى نضلة بن هاشم، لأُمّه. وقد دأب طول مدة الحصار، على أن يصلهم، فكان يأتى ليلاً بالبعير قد أوقره طعاماً أو ثياباً، حتى إذا بلغ به مدخل الشعب خلع خطامه من رأسه وضربه على جنبه، فيدخل البعير الشعب على من فيه، بما يحمل.

فلما طال عليهم جهد الحصار، مشى هشام بن عمرو بن ربيعة العامرى، إلى «زهير بن أبى أمية بن المغيرة المخزومى زاد الركب» وأُمّه عاتكة بنت عبدالمطلب، عمة المصطفى ﷺ.

قال له هشام:

«يا زهير، أقدرضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء، وأخوالك حيث علمت، لا يباعون ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم؟ أما إني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبى الحكم بن هشام ثم دعوته إلى منل ما دعاك إليه منهم، ما أجابك إليه أبداً».

ففكر زهير ملياً ثم سأل:

«ويحك يا هشام، فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد. والله لو كان معى رجل آخر لقمْتُ فى نقض الصحيفة حتى أنقضها».

قال هشام: قد وجدت رجلاً.

فسأله: من هو؟

أجاب: أنا!

قال زهير: ابغنا رجلاً ثالثاً.

فذهب هشام إلى «المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف» فقال له:
«يا مطعم، أقدر رضىت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف، وأنت شاهد على ذلك موافق
لقريش فيه؟ أما والله لئن أمكنتهم من هذه، لتجدهن إلیها منكم سراعاً».
فكان جواب مطعم كجواب زهير.

وخرج هشام يبغي رجلاً رابعاً، فاختر «أبا البختری بن هشام الأسدى» لما عُرف من
مروءته ونخوته، وما ذاع من خبره مع أبى جهل حين أراد أن يحول بين حكيم بن حزام
والأسدى، والذهاب بالطعام إلى عمته.

حدثه هشام العامرى بمثل ما حدث به صاحبيه زهيراً ومطعماً، وسأله أبو البختری: هل أجد
من يُعين على هذا؟

أجاب هشام: نعم، زهير بن أبى أمية المخزومى زادِ الركب، ومطعم بن عدى بن نوفل، وأنا،
معك».

فنظر أبو البختری بعيداً إلى ما يتوقع من حق قريش فى غضبها للحلف المعقود الموثق،
وطلب إلى هشام أن يبغي مؤيداً خامساً، فذهب إلى «زعة بن الأسود بن عبد المطلب
الأسدى» فكلّمه فى بنى هاشم، وذكر له قرابتهم منه وحقهم عليه، فأجاب زعة.

وتواعد الرجال الخمسة على اللقاء ليلاً بخطم الحجون، أعلى مكة، وهنالك أجمعوا أمرهم
وتعاهدوا على القيام فى أمر الصحيفة الظالمة حتى ينقضوها، واختاروا من بينهم «زهير بن أبى
أمية المخزومى. ليكون أول من يجاهر برفض الصحيفة ونقض الحلف، فى مجتمع قريش بالحرم
المكى.

فلما أصبحوا وغدت قريش إلى أنديتها، غدا «زهير» عليه حُلّة، فطاف بالبيت العتيق سبعا
تم أقبل على الناس فقال.

«يا أهل مكة، أناكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يُباع لهم ولا يُبتاع منهم؟
والله لا أقعد حتى تُسحق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة».

صاح أبو جهل بن هشام، وكان في ناحية من البيت الحرام:
«كذبت، والله لا تُشَقَّ».

فردَّ عليه زمعة بن الأسود:

«أنت والله أكذب، ما رضينا كتابها حيث كُتِبَ».

وثنى أبو البختری:

«صدق زمعة، لا نرضى ما كُتِبَ فيها ولا نُقره».

وأيدَّها مطعم بن عدی:

«صدقتهما، وكذب من قال غير ذلك. نبرأ إلى الله منها ومما كُتِبَ فيها».

وتكلم هشام بن عمرو، فقال نحو ما قالوا...

وهت أبو جهل، والأصوات تأتيه من كل ناحية بالتكذيب والرفض، فنقل بصره حائرًا بين هؤلاء الرجال الخمسة، ثم لم يجد في أخذه المباغطة بموقفهم سوى أن يقول:
«هذا أمرٌ قُضِيَ فيه بلبيل، تُشوور فيه بغير هذا المكان».

لم يلقوا إليه بالاً، وقام المطعم على مرأى من الجمع - وأبو طالب هناك قد انتحى ناحية من المسجد - فانتزع الصحيفة من مكانها في جوف الكعبة ليشقها، فإذا بالأرضة قد أكلتها وأتلفتها، لم تدع منها إلا كلمة: «باسمك اللهم»!

وجت قريش،

ونفض أبو طالب يسعى إلى مَنْ في شعبه بالبشرى، وقد ذكر وهو في طريقه من البيت العتيق، بنيه الذين هاجروا إلى الحبشة، فهتف منشداً، يرجو أن يبلغهم هنالك صدى صوته:

ألا هل أقي بحرينا صنع ربنا	على نأيهم، والله بالناس أروء
فيخبرهم أن الصحيفة مُزقت	وأن كل ما لم يرضه الله مُفسد
تراوحها إفك وسحر مجمع	ولم يلف سحر آخر الدهر يصعد
جزى الله رهطاً بالحجون تتابعوا	على ملأ يهدى لحزم ويُرشد
قعوداً لدى خطم الحجون كأثمهم	مقاوله، بل هم أعز وأجحد
قضوا ما قضوا في ليلهم ثم أصبحوا	على مهل إذ سائر الناس رُقِد
وكنا قديماً لا نُقر ظلامه	وندرك ما شئنا ولا نتشدد

فيا لَقْصِيَّ هل لكم في نفوسكم وهل لكم فيما يجيء به غَدُ
فإني وإياكم كما قال قائل: «لديك البيان لو تكلمت أسود»^(١)

وَأَيْقُظ صَوْتُهُ كُلَّ مَنْ فِي الشَّعْبِ، فَهَلَّلُوا لِلْبَشْرِى. وَهَتَفَ الْمُسْلِمُونَ مِنْهُمْ: «اللَّهُ أَكْبَرُ». وَسَعَوْا إِلَى الْكَعْبَةِ فَطَافُوا بِهَا، ثُمَّ أَبَوْا إِلَى بَيْوتِهِمْ فِي أُمِّ الْقُرَى، يَنْتَظِرُونَ مَاذَا يَكُونُ مِنْ أَمْرِ قَرِيْشٍ بَعْدَ أَنْ تَهَاوَى الْحَصَارَ...

لَكِنْ مِحْنَةُ الْحَصَارِ لَمْ تَنْجَلْ إِلَّا لِتَسْلَمَ إِلَى لَيْلٍ طَوِيلٍ لَا يَبْدُو لَهُ آخِرٌ... مَاتَتْ «السَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ» أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ الْأُولَى، وَزَوْجُ نَبِيِّهِمُ الْمُصْطَفَى ﷺ وَسَكَنَتْهُ وَوَزِيرُهُ، فِي الْعَاشِرِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةِ عَشْرِ مِنْ الْمَبْعَثِ... وَمَاتَ فِي الْعَامِ نَفْسَهُ «أَبُو طَالِبٌ» عَمُّ الْمُصْطَفَى وَكَافَلَهُ وَمَانَعَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ عَضْدًا وَحَرًّا وَنَاصِرًا عَلَى قَوْمِهِ... فَأَحْيَا مَوْتَهَا مَا مَاتَ مِنْ أَمَلِ الْمُشْرِكِينَ فِي النَّصْرِ بَعْدَ تَهَاوَى الْحَصَارِ، فَعَادَتْ وَطْأَةُ الْأَضْطِهَادِ إِلَى أَسَدٍ مِمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ قَبْلَ «عَامِ الْحُزْنِ». وَأَحْسَ الْمُصْطَفَى وَحْشَةَ الْغُرْبَةِ فِي بَيْتِهِ وَأَرْضِ مَبْعَثِهِ، وَاسْتَدَّتْ عَلَيْهِ وَطْأَةُ الْحُزْنِ لِفَقْدِهِمَا، حَتَّى خَيَّلَ لِأَعْدَائِهِ أَنَّ النَّصْرَ عَلَيْهِ جِدُّ قَرِيبٍ، مَا دَرَوْا أَنَّ الظُّلْمَةَ تَسْتَدُّ قَبِيلَ الْفَجْرِ! أَدْرَكَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ الْمَوْقِفَ لَا بَدَأَ أَنْ يَتَّخِذَ مُتَّجِهًا آخَرَ. وَرَاحَ يَمِدُّ بَصَرَهُ إِلَى مَا وَرَاءَ مَكَّةَ، يَسْتَوْعِبُ أَبْعَادَ الرُّؤْيَا لِمَا يَحْتَمِلُ مِنْ مُتَّجِهٍ الْأَحْدَاثِ.

(١) حديث الحصار هنا، منقول من (السيرة النبوية) ٣٧٩/١ و(تاريخ الطبري) ٢٢٥/٢ من طريق ابن اسحاق.

الإسراء

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا
الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُمْ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

(صدق الله العظيم)

قبل الهجرة كانت رحلة الإسراء، وقد اقترب أوان التحرك إلى موقع جديد، بعد أن بلغت الجولة المكية ذروة تعقدها.

واحتاج مثل ذلك التحول الخطير إلى عملية امتحان قبله، تستخلص الصفوة المؤمنة التي تصلح لاجتياز معبر التحول، وتقدر على حمل تكاليف الجهاد في الجولة الصعبة التي كانت تنتظر الإسلام في دار هجرته.

وفي الواقع التاريخي، أن السنوات العشر الأولى من المبعث، مضت تمتحن المسلمين الأولين بالفتنة والأذى والاضطهاد.

وقد تأخر الإذن لهم في القتال، ريثما تتم عملية الامتحان والتمحيص، فكان الثبات لوطاة الفتنة وجهد الحصار، يستصفي للإسلام جنده المخلصين. ثم جاءت آية الإسراء، تنمة حاسمة لهذا الاستصفاء.

لم تكن الليلة في أولها، تختلف عن ليالٍ سابغات تتابعت على مدى سنين، من ليلة المبعث: طواغيت المشركين من قريش مجتمعون في دار الندوة، يحورون ويدورون في حلقة مفرغة، التماساً لوسيلة أو نفرة ينفذون منها عبر الطريق المسدود.

والمصطفى ﷺ، قد أقام صلاة العشاء فيمن كان معه من آله وصحبه رضى الله عنهم، وأوى إلى خلوته يتعبد ويتهجد كعادته في كل ليلة، وما من أحد يتوقع أن يأتي الفجر القريب بجديد غير المعهود المؤلف في أم القرى.

وبزغ نور الفجر، والمصطفى حيث تركه آله وأصحابه بعد صلاة العشاء، وقام عليه الصلاة والسلام فصلّى بمن معه، ثم جلس فيهم بعد الصلاة يحدثهم أنه قد أُسرى به في ليلته تلك، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى...

واسرّبت إليه قلوبهم، وشُدّت أسماعهم إلى حديث الإسراء، ولو استطاعوا لأمسكوا أنفاسهم المبهورة، لكي يخلص إليهم صوت نبيهم في أنقى صفائه وتفرّده.

وانتهى الحديث،

وران عليهم صمت خاشع، أخذهم فيه العجب كل مأخذ وهم يستعيدون فيما بينهم وبين أنفسهم حديث الإسراء، ويحاولون أن يستوعبوا أبعاد رؤياه الباهرة، ويتمثلوا مشاهدته المتيرة. ولعلمهم ما كانوا ليجرحوا هذا الصمت، لولا أن رأوا النبي عليه الصلاة والسلام يقوم من مُصلاه، أخذًا طريقه إلى حيث كان أهل مكة قد بدأوا حركتهم اليومية مع مشرق الصبح.

عندئذ قامت «أم هانئ بنت أبي طالب» فتشبّثت بآمن عمها المصطفى ﷺ، تضرع إليه ألا يُحدث الناس بما رأى، لئلا يُكذّبوه.

وتلبّث عليه الصلاة والسلام يسمع ما تقول بنت عمه، وقد أدرك ما يساورها من قلق وخوف. ثم استأنف سيره ليلقى القوم، مسلمين ومشرّكين، بحديث الإسراء.

ماذا قال عليه الصلاة والسلام عن مسراه في تلك الليلة؟
وما الذي نزل في الإسراء من آيات القرآن؟

في صحيح الحديث المتفق عليه^(١) تفصيل لرحلة الإسراء من بدئها في المسجد الحرام: جاء جبريل أمين الوحي، والمصطفى نائم. فأيقظه من نومه وحمله على البراق - دابة بين البغل والحمار - وانطلق يسرى به حتى وصل إلى بيت المقدس، حيث وجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى، في نفر من الأنبياء عليهم السلام، فأَمَّهم المصطفى للصلاة. ومن الصحابة من يقتصر - فيما نقل ابن هشام عن ابن اسحاق في: السيرة النبوية - على هذه الرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ذهابًا وأوبة.

(١) أخرجه الشيخان: البخاري في (كتاب الأنبياء) ومسلم في (كتاب الإيمان) من الصحيحين.

ومنهم كثير، يروون معها قصة المعراج من بيت المقدس صعوداً في السماء إلى سدرة المنتهى، ثم عودة إليه حيث ينطلق البراق سارياً بالمصطفى ﷺ إلى موضعه الأول، بالمسجد الحرام^(١). وهذا الحديث مروى بإسناد عن عدد من الصحابة رضى الله عنهم، وقد يختلفون في بعض التفاصيل، لكن الحديث في مجمله ليس موضع خلاف:

ففى المكان الذى بدأ منه الإسراء، هناك رواية تقول إن المصطفى كان نائماً بالحجر حين أتاه جبريل فأيقظه، وتؤيدها آية الإسراء بصريح قوله تعالى: ﴿من المسجد الحرام﴾.

وهناك رواية أخرى عن «أم هانئ بنت أبي طالب» رضى الله عنها قالت: «ما أسرى برسول الله ﷺ إلا وهو فى بيتي: نام عندي تلك الليلة فصلى العشاء الآخرة، ثم نام ونامنا، فلما كان قبيل الفجر أمنا ﷺ، فلما صلى الصبح وصلينا معه قال: يا أم هانئ، لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيته بهذا الوادى، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه. ثم قد صليت صلاة الغداة معكم كما ترون».

ومع نص آية الإسراء: ﴿من المسجد الحرام﴾ حمل المفسرون رواية أم هانئ، على أن المسجد الحرام يمكن أن يتأول فى معنى الحرم، والحرم كله مسجد.

ولم يذكر القرآن الكريم تفصيلاً لمشاهد الإسراء، فليس فى سورته إلا آيتها الأولى التى تحدد مجال الإسراء وغايته:

﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾ ومعها، آية الرؤيا من سورة الإسراء:

﴿وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس﴾.

فهل كان الإسراء من تجلّ الرؤيا، أو كان حقيقةً بالجسد؟ ذلك ما اختلف فيه الصحابة أنفسهم:

فى رواية عن «ابن عباس» رضى الله عنها:

«إنها رؤيا عيّنها ربها رسول الله ﷺ، وليست رؤيا منام».

ورواية أخرى عن السيدة «عائشة أم المؤمنين» رضى الله عنها تقول:

(١) أنظر تفصيل الإسراء والمعراج، فى (الصحيحين) وفى «السيرة النبوية الهاشمية»: ٣٦/٢ ط الحلبى.

«ما فقدَ جسدُ رسولِ الله ﷺ، ولكن الله أُسرَى بِرُوحِهِ».

وقد نقل ابن إسحاق هذا الخلاف بين أن يكون الإسراءُ بالجسد حقيقةً، أو بالروح رؤياً، ثم قال:

«وكان رسول الله ﷺ، فيما بلغنى، يقول: (تَنَامُ عَيْنَايَ وَقَلْبِي نَقْظَانُ)».

«والله أعلمُ أي ذلك كان قد جاءه، وعَايَنَ فيه ما عاين من أمرِ الله، على أيِّ حاله كان: نائماً أو يفتظان، كل ذلك حقٌّ وصدق»^(١).

وكان ما أراد الله للإسراءِ برسوله، من «فتنة للناس» وابتلاءٍ لمن آمنوا منهم، وللذين أسلموا ولَمَّا يدخل الإيمانُ في قلوبهم. وقد يكفى لبيان ما كان من فتنة الإسراءِ، أن نقرأ ما نقل «ابن هشام» رواية عن ابن إسحاق:

«فلما أصبح ﷺ، غدا على قريش فأخبرهم الخبرَ. فقال أكثر الناس: «هذا والله العجبُ البينُ. والله إن العيرَ لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مُدبرةً، وشهراً مُقبلةً؛ أفذهب ذلك محمدٌ في ليلة واحدة، ويرجع إلى مكة؟».

«فارتد كثيرٌ ممن كان أسلم، وذهب الناس إلى أبي بكر - ولم يكن قد سمع بعدُ حديث المصطفى ﷺ عن الإسراءِ - فقالوا له:

- هل لك يا أبا بكر في صاحبك؟ يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة

فقال لهم أبو بكر:

- إنكم تكذبون عليه.

قالوا: بلى، ها هو ذاك في المسجد يُحدث به الناس.

قال أبو بكر:

- والله لئن كان قاله، لقد صدق. فما يعجبكم من ذلك؟ فوالله إنه ليُخبرني أن الوحي ليأتبه من السماء إلى الأرض في ساعةٍ من ليلٍ أو نهار، فأصدقه، فهذا أبعدُ مما تعجبون منه»^(٢).

وغيرُ بعيد من رواية (السيرة) ما نقله «الإمام الطبري» في تفسيره:

(١) ابن إسحاق: الهشامية ٣٧٢ وأقرأ معه: تفسر الطبري لآية الإسراء.

(٢) ابن إسحاق: الهشامية ٣٩٢.

«قال المشركون من قريش: تَعَشَّى فينا - بكه - وأصبح فينا، ثم زعم أنه جاء الشَّامَ في ليلة ثم رجع! وإيَّهم الله إن الحداةَ لَتَجِيئُهَا في سهرين: شهرًا مقبلًا وشهرًا مدبرًا... ما كان محمد لينتهي حتى يأتى بكذبةٍ تخرج من أقطارها.

«فأتوا أبا بكر فقالوا له:

- هذا صاحبك يزعم أنه أتى الشَّامَ في ليلته فصلَّى ببيت المقدس ثم رجع! فردَّ أبو بكر:

- أو قد قال ذلك؟ واللَّهِ لئن كان قاله لقد صدق».

فلما جادلوه فيه، قالها الصديق:

- أصدقه بخبر السَّاءِ، وَحَيًّا، والسَّاءِ أبعدُ من بيت المقدس، ولا أصدقه بخبر بيت المقدس؟!

«ثم أقبل أبو بكر حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فسأله:

- يا نبي الله، أَحَدَّتْ هؤلاء القوم أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة؟

قال عليه الصلاة والسلام: نعم.

فسأله أبو بكر أن يصفه له، فجعل رسول الله يصفه لأبي بكر، فكلما وصف منه شيئًا قال أبو بكر:

- صدقت، أشهد أنك رسول الله.

قال عليه الصلاة والسلام لصاحبه:

- وأنت يا أبا بكر الصديق^(١).

وَحَقَّقَ الإسراءُ آيته: فتنَّةً وابتلاءً وتمحيصًا:

نَحَى عن حزبِ الله مَنْ رآبَهُمْ أَمْرُ الإسراءِ بالمصطفى ﷺ، وليس أعجب من الوحي يَأْتِيهِ من الله سبحانه.

واستصفى للإسلام جنده المخلصين، ممن صَحَّ إيمانُهم وصدقت عقيدتهم.

وصدق الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾.

(١) تفسر الطبري: ج ١٥ (سورة الإسراء).

(٣)

بِوَادِرِ التَّحْوِيلِ

- نَجْرَانُ ، وَيشْرَبُ
- أَبْوَابُ مَوْصِدَةٍ
- بَيْعَةُ الْعُقْبَةِ وَمُتَجِّهُ الْأَحْدَاثِ

نجران . . . ويشرب

﴿ قُلْ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ④ النَّارِ ذَاكَ الْوَقْدُ ⑤ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ⑥ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ⑦ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ⑧ ﴾

(صدق الله العظيم)

حتى عام الحزن، السنة العاشرة من المبعث، كانت نجران ويشرب تبدوان بعيدتين عن مسرح الأحداث.

وفي نجران مركز النصرانية في بلاد العرب.

وفي يشرب وما حولها من شمال الحجاز، مستعمرات يهود.

وقد يُظن ألا يختلف موقف نصارى نجران من الإسلام عن موقف يهود الشمال، وهؤلاء وأولئك أهل كتاب يتلون التوراة والإنجيل ويصدقون برسالات الله.

لكن موقفهما في الواقع التاريخي كان جدد مختلف:

نصارى نجران عرب مؤمنون، فيهم رهبان بررة كانوا هناك ملء القلوب والأسماع، إخلاصاً في العبادة وعزوفاً عن الشهوات وعزوفاً عن أعراض الدنيا.

ويهود يشرب أجانب طارئون دخلاء، يدعون الموسوية ذريعة استغلال، وفيهم أخبار ذوو عدد، شغلوا عن الدين بالدنيا....

رأب نصارى نجران قبيل الإسلام، أن كان اليهود ممن روجوا لبشرى المبعث. فهل قصدوا بهذا إلى أن يُلْقُوا غشاوة على أبصار العرب، كيلا تلمح على سحتهم بصمة الجريمة النكراء للاتتمار بالسيد المسيح عليه السلام؟

لقد بُدِّ العهد بها، كما بُدِّ مسرحها في القرية الظالمة عن بلاد الحجاز وأرض المبعث، لكن النصارى بوجه عام لم يكونوا لينسوا هذه الجريمة، فضلا عن أن ينسى نصارى نجران جريمة

أخرى لم يتقدم عليها الزمن، بلغ ضحاياها عشرين ألفاً من نصارى العرب في نجران، أول عهدٍها بالنصرانية.

المأساة بدأت حين وفد على ديارهم راهب نصراني صالح، ابتنى له خيمة بضواحي نجران وعكف على عبادة الله، فمال إليه فتى عربي من أهلها، وكانوا على دين العرب أهل شرك، قد اتخذوا نخلة باسقة ونناً لهم، وجعلوا لها يوم عيدٍ يعكفون فيه على نخلتهم ويعلقون عليها أحسن ثيابهم وحلى نسائهم.

واسم الفتى العربي: «عبد الله بن الثامر» وكان أبوه يرسله إلى ساحر مشهور هناك ليلقنه أسرار الصنعة، فكلما مرَّ في طريقه إلى الساحر بخيمة الراهب، أطال الوقوف قريباً من بابه، يصغى إلى تراتيله وصلواته.

وعلى يد «ابن الثامر» تنصر أكثرُ عربِ نجران، فسار إليهم «ذو نواس» بتحريض من يهود اليمن، فدعاهم إلى اليهودية وخبرهم بينها وبين القتل، فاختاروا أن يموتوا على دينهم، شهداء...

وأمر ذو نواس جنوده، وهم يهود، فحفروا أخدوداً عميقاً أوقدوا فيه النار، وسبق ألوف من النصاري المؤمنين فألقوا في نار الأخدود، والمجرمون محيطون بهم يقتلون كل من يحاول الخلاص من الحريق، ضرباً بالسيف.

وظلت مأساة الضحايا الشهداء - وفي الخبر أنهم قاربوا عشرين ألفاً من الرجال والنساء - تؤرق نجران حتى أوان المبعث، وفي أولئك الضحايا المؤمنين، وفي السفاحين أصحاب الأخدود، نزلت آيات البروج:

﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ ① وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ② وَشَاهِدٍ مُّشْهُودٍ ③
قِيلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ④ النَّارُ ذَاتُ الْوُقُودِ ⑤ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ⑥
وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ⑦ وَمَا نَقَسُوا مِنْهُمْ شَيْئاً أَنَّ
يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ⑧ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ⑨ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ لَمْ
يَكُنُوا لَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ⑩﴾

وعرب الحجاز كانوا قبل الإسلام بعديين عن مأساة الأخدود، فآلقوا أسماءهم إلى ما روج يهود من بشرى مبعث نبي حان زمانه، غير مستريين فيما وراء هذه البشرى من قصد، لكن نصارى نجران، رابهم الأمر من يهود: عقوا نبيهم موسى، وكفروا بالمسيح واثمروا به وبمن اتبعه من المؤمنين.

وبُعت المصطفى عليه الصلاة والسلام، ونجران على نصرانياتها، وكان نصاراها بشهادة مؤرخى الإسلام: «أهل فضل وتقوى واستقامة» وقد سمعوا بأخبار المبعث من جيرانهم وأهل ملتهم نصارى الحبشة، وتوقعوا أن يكون لليهود دور خبيث مع الدين الجديد، وإن لم يكن هذا الدور قد بدأ بعد..

وكان لابد لنصارى نجران من أن يطمئنوا إلى رأى فى الإسلام ونبيّه العربى الأمى، وذلك ما لا سبيل إليه فى دوامة الأخبار والشائعات التى تتعز وتضطرب فى طريقها إليهم، فتأتىهم مهوشة مختلطة.

وكان أن قرروا إرسال وفدٍ منهم إلى مكة، يأتىهم بالخبر اليقين عن هذا الدين الجديد، ليكونوا منه على بينة...

* * *

أخذ الوفد طريقه شمالاً إلى مكة، عشرون رجلاً من أهل الرأى والعلم فيهم، يلتمسون أن يلقوا نبي الإسلام ويكلموه وينظروا فيما جاء به، بعد ستة قرون وإحدى عشرة سنة، من ميلاد المسيح عليه السلام.

وفى الحرم المكى، كان اللقاء.

دنوا من المصطفى ﷺ وقد أخذ مجلسه عند الكعبة، فسألوه فى دينه،

وحدثهم عليه الصلاة والسلام عن الإسلام فعرفوا أنه الحق من ربهم.

وتلا عليهم القرآن ففاضت أعينهم من الدمع خشوعاً، وتفتحت قلوبهم المؤمنة لتلك الكلمات تخنع لها صم الجبال...

واستجابوا لله...

وفى طريقهم من مجلس المصطفى إلى باب البيت العتيق، عرض لهم أبو جهل بن هشام فى نفر من طواغيت قريش، شق عليهم أن يصدق هؤلاء النصارى، وهم أهل كتاب، بنبوّة محمد، فيوقعوا الريبة فى نفوس العرب من تكذيب المشركين من قريش.

قالوا لهم :
« خيبكم الله من ركب ! بعنكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر
الرجل، فلم يطمئن مجلسكم عنده حتى فارقتهم دينكم وصدقتموه بما قال. ما نعلم ركبا أحق
منكم».

رد المؤمنون :
« سلام عليكم، لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا وقومنا
خيبرا»^(١) فيروى أن هذه الآيات، من سورة المائدة المكية، نزلت فيهم :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا
وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي ذَلِكَ
بِأَنَّهُ مِنْهُمْ فَتَبَسَّيْنَا وَنَفَخْنَا فِيهِمْ سُلُوفًا وَفَازَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ
وَلَا يَسْتَكْبِرُونَ ۚ ﴿٣٧﴾ وَإِذَا
سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا
عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ۚ ﴿٣٨﴾ وَمَا
لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا
مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ۚ ﴿٣٩﴾ ﴾

(صدق الله العظيم)

(١) ابن إسحاق : السيرة النبوية ٣٢/٢.

فماذا عن «يثرب» عاصمة شمال الحجاز؟

ماذا عن موقف عصابات يهود من نبي الإسلام الذى طالما بشروا ببعنه مصداً لما معهم من النوراة والإنجيل، وما عرفهم التاريخ إلا قتل الأنبياء وأعداء كل دين؟

كمنوا هناك فى مستعمراتهم شمالى الحجاز، يرصدون المواجهة الأولى بين الإسلام والوثنية، وأسماعهم مشدودة إلى مكة تلتقط أنباء الصراع الدائر هناك، وفى حسابهم أن قريشاً سوف تتكفل بالقضاء على الدعوة الجديدة فى مهدها، فتريح اليهود الذين ما هدأ لهم بال منذ نزلت الكلمات الأولى من كتاب الإسلام، خوفاً من أن يكشف عما زيفت يهود من الديانة الموسوية، وما حرفت من التوراة التى انجروا بها وراحوا يئنون على العرب الأيمن بأنهم أهل كتاب.

وإن مثلهم فيما حملوا من التوراة ثم لم يحملوها: ﴿كَمَثَلِ الْخِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا، بِئْسَ مَثَلُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وإذ ألقت قريش بكل ثقلها فى مقاومة الإسلام، توارت يثرب عن مسرح الأحداث، حتى كانت أم القرى هى التى اتصلت بها، والجولة المكية فى عنفوان احتدامها:

لقد رآب قريشاً من أمر الدين الجديد الذى تصدت لمقاومته فى بغى وعناد، تبات المصطفى والذين معه فى وجه الوثنية الطاغية، وتفانيهم فى سبيل عقيدتهم لم يرددهم عنها أذى مهلك ولا حصار منهمك، ولم تفلح معهم مساومة ولا مفاوضة.

ولقد جاوزت قريش المدى فى اضطهاد الدعوة، والمسلمون يزدادون على الأذى صموداً واستبسالاً، وإن أحدهم ليلقى الموت فى سبيل دينه، ووجهه يتألق بنور الإيمان والغبطة والرضى. أفيمكن أن يكون هذا كله، فى سبيل دعوة كاذبة ورسالة مفتراة؟

وما الذى يعد به محمد أصحابه؟

إنه لا يملك أن يرد عن نفسه أذى قريش إلا أن يشاء ربه، فضلاً عن أن يرده عن اتباعه وآمنوا برسالته، وهو قد باع الدنيا ليدعو إلى ربه، فليس لديه مال يعوض به الذين أودوا فى سبيل دعوته وخرجوا من ديارهم وأموالهم مهاجرين بدينهم من الفتنة والبلاء.

إنما يعدُّهم محمد ثواب الآخرة ويبشرهم برضوان من ربه، وفي الذين صدَّقوه مَنْ عُرِفوا بالحكمة وسداد الرأى، فهل كانوا بحيث يقبلون هذه الصفقة يبيعون فيها دنياهم بالآخرة، لو لم يكونوا موقنين بِصدق الوعد؟

وقريش تفهم أنَّ يجود العربى بحياته دفاعاً عن شرفه وذوداً عن حماه، وتفهم كذلك أنَّ يبذل العربى حياته غضباً لموروث العقائد والتقاليد والأعراف، لكنها ما عهدت قط مثل ذلك الجود السخى الباذل، جهاداً فى سبيل عقيدة غير موروثه، يدعو إليها بشرٌ مثلهم يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق!

ورأيها أكثر، أنَّه ما من عربى لقي محمداً وأصغى إليه غير معانِد، إلا آمن بنبوته وصدَّق برسالته، وبايعه على الجهاد معه بالنفس والمال! فماذا لو استفتت أخبارَ يهود يثرب، فى أمر هذا النبى البشر، لعلهم يحسمون هذا الهاجس من قلق وارتياب؟

إنهم أهلُ كتاب، لديهم ما ليس لدى العرب الأميين من علم بالنبوة والأنبياء، وعندهم تستطيع قريش أن تلمس ما تطمئن به إلى موقفها العدائى من بشر يدعو إلى دين جديد، وما جرَّبَت على هذا الداعى كذباً قط، وإنه فيها للصادق الأمين. والكلمات التى يتلوها من وحى ربه، ليست مما يستطيعون أن يأتوا بمثلها....

وكان الأمد قد طال على يهود فى انتظار ما توقعَت من حرب بمكة، تقضى على الإسلام وتنهك قريشاً إن لم تحصدّها حصداً، فتفتح ليهود أبواب أم القرى، وتُمكن لهم من النفاذ إلى المركز التجارى الأكبر فى بلاد العرب.

وغازط اليهود أنَّ تشتد وطأة قريش على المسلمين فلا ينفد لهم احتمال ولا يُغلب لهم صبر! كما غاظهم أن يطول صبر قريش على الموقف، فتلجأ إلى المساومة والمفاوضة، وإلى الإيذاء والاضطهاد، ثم إلى المقاطعة والحصار، دون أن تتجاوز بالموقف حافة الحرب!

فمضى يفلت الزمام من أيدي المكيين فتخرج السيوف من أغمارها لتنتهى الصراع الذى طال. فى مثل هذا كانت يهود تفكر، حين جاءها خبر من مكة عن تشاور قريش فى إرسال وفد منها إلى يثرب، يستفتى لها أخبار يهود فى أمر النبى، بما لديهم من علم الكتاب.

واستعدت يهود للفرصة المواتية:

شهدتهم مستعمراتهم في يثرب وتيباء وخيبر وفدك ووادي القرى... يجتمعون إلى أحبارهم ويتدارسون.

وتذكروا فيما بينهم أنهم الذين روجوا في العرب لبشرى نبي حان مبعثه، وأنهم كذلك، طالما منوا على العرب الأميين بأنهم أهل كتاب ودين، وهذا النبي العربي يدعو إلى دين مصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل، فكيف السبيل إلى تكذيب اليهود من بشرى مبعثه؟ ومن أي طريق يظهرون عبدة الأوثان على داع إلى عبادة الله، رب موسى وعيسى، وإبراهيم وإسحق وكل الأنبياء المرسلين؟

الموقف بالغ التعقيد والحرَج، ولكن هل يخونهم دهاؤهم فلا يسهفهم بما يحتالون به عليه؟ إنها فرصة سانحة للكيد للإسلام وقريش معاً، لو تركوها تفلت منهم لعقوا طبعهم. من هنا كان التشاور والمدارسة والتواطؤ، احتيالاً على الموقف الصعب والتماساً لمخرج منه، وإعداداً للفتوى يقدمونها إلى وفد قريش المنتظر.

تسامع بنو هاشم بما عزم عليه قريش من استفتاء يهود يثرب في نبوة محمد بن عبد الله، فتوجسوا شراً من هذه العصابة الماكرة، واسترجعوا ذكرى بعيدة للعلم أبي طالب بن عبد المطلب، حين مرَّ بالراهب «بحيرى» في طريقه إلى الشام في رحلة صيف، وكان قد صحب معه ابن أخيه محمداً، غلاماً لم يبلغ العاشرة بعد، فلما رآه الراهب بحيرى توسم فيه مخايل غدٍ موعود، ونصح لعمه «أن يعود به إلى بلده، وأن يحذر عليه شرَّ يهودا»^(١).

وقد مر على ذلك التحذير نحو أربعين سنة، نسي فيها بنو هاشم ما كان، وغاب صوت الراهب السى العابد في ضجيج الأحداث وكرَّ السنين، حتى بدا لقريش أن تستفتي في أمر محمد، هؤلاء اليهود الذين ذكرهم الراهب بحيرى لعمه أبي طالب، وحذره على ابن أخيه من شرهم. وإذ لم يكن في استطاعة بنى هاشم أن يردوا قومهم قريشاً عما أرادوا، وقد فسد ما بينهم منذ انحازوا إلى أبي طالب في منع محمد بن عبد الله من قريش.

لم يبق إلا أن ينتظروا وتنتظر مكة كلها، ما يكون من فتوى يهود.

(١) السيرة : ١٩١/١.

أَخَذَ «النَّضْرُ بْنُ الْحَارِبِ، وَعَقْبَةُ بْنُ مَعِيْطٍ» طَرِيقَهُمَا إِلَى يَنْرَبَ، مُوَفِّدِينَ مِنْ قَرِيْشٍ إِلَى أَحْبَارِ يَهُودَ، التَّمَاثِيَا لِأَرْيَهُمْ فِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ وَدَعْوَتِهِ.

وَكَانَتْ يَهُودٌ قَدْ اسْتَعَدَّتْ لِلْقَائِمَةِ وَأَعَدَّتْ فَتَوَاهَا.

أَسْعَفَهَا مَكْرُهَا فَلَمْ تَفْجَأْ قَرِيْشًا بِجَحْدٍ صَرِيحٍ لِنُبُوَّةِ طَالِمَا بَشَّرَتْ بِهَا، وَإِنْكَارٍ مُبَاشِرٍ لِدِينٍ يَرْفُضُ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ وَيَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ رَبِّ مُوسَى وَسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ...

وَأَثَرَتْ أَنْ تَشْغُلَ الْقَوْمَ بِسَائِلِ تَبْلِيلِ أَفْكَارِهِمْ وَتُعْنِتَ نَبِيَّ الْإِسْلَامِ، فَكَانَتْ فَتَوَى الْأَحْبَارِ لِلنَّضْرِ وَعَقْبَةَ، أَنْ يَعُودَا إِلَى قَوْمِهِمْ فَلْيَسْأَلُوا هَذَا الدَّاعِيَ عَنْ ثَلَاثٍ. قَالُوا:

«سَلُّوْهُ عَنْ فَتْيَةٍ ذَهَبُوا فِي الدَّهْرِ الْأَوَّلِ، مَا كَانَ أَمْرُهُمْ؟ فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ لَهُمْ حَدِيثٌ عَجِيبٌ.

«وَسَلُّوْهُ عَنْ رَجُلٍ طَوَّافٍ قَدْ بَلَغَ مُسَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، مَا كَانَ نَبُوْهُ؟

«وَسَلُّوْهُ عَنْ الرُّوحِ مَا هِيَ؟

فَإِنْ أَخْبَرَكُمْ بِذَلِكَ فَاتَّبِعُوْهُ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَهُوَ رَجُلٌ مَتَقَوِّلٌ، فَاصْنَعُوا فِي أَمْرِهِ مَا بَدَأَ لَكُمْ»^(١).

وَعَادَ الرِّجْلَانِ إِلَى مَكَّةَ، فَاتَّجَها فُورَ وَصُولِهَا إِلَى مَنْتَدَى قَرِيْشٍ، فَأَبْلَغَاهُمَا فَتَوَى الْأَحْبَارِ.

وَعَجَّلُوا إِلَى النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - يُعْنِتُونَهُ بِالْمَسَائِلِ الثَّلَاثِ، فَمَا دَرَى عَلَيْهِ

الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ بِمِ يَجِيبُ عَنْهَا، وَمَا كَانَ يَتْلُو مِنْ قَبْلِ الْقُرْآنِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا يَخْطُ بِبِيَمِينِهِ.

وَاسْتَمْهَلَهُمْ فِي الْجَوَابِ عَمَّا سَأَلُوا عَنْهُ، رَجَاءً أَنْ يَتَلَقَّى الْوَحْيَ بِمَا يَقُولُ فِيهَا.

لَكِنَّهُمْ أَلْحَوْا عَلَيْهِ بِإِعْنَاتِهِمْ، وَقَدْ عَرَفُوا أَنَّ جَوَابَ لَدَيْهِ عَمَّا يَسْأَلُونَ مِنْ فَتَوَى أَحْبَارِ يَهُودَ.

حَتَّى نَزَلَتْ آيَةُ الْإِسْرَاءِ (٨٥) فِي الرُّوحِ:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وَبَعْدَهَا نَزَلَتْ سُورَةُ الْكَهْفِ، وَفِيهَا الْخَبَرُ عَنْ أَمْرِ الْفَتْيَةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ:

﴿..... أَمْرٌ حَسِبْتَ

أَنْ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾^(٢) إِذْ

أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

(١) السيرة: ٣٢١/١.

وَهَيَّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١١﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ
سِنِينَ عَدَدًا ﴿١٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أُنْزِلَتْ إِلَيْهِمْ آحْصَىٰ لِمَا كَانُوا
أَعْمَدًا ﴿١٣﴾ فَخَرَّ نَقْصُ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ لَئِنَّهُمْ فِيهِ لَأَمَنُوا بِرَبِّهِمْ
وَزَادَهُمْ هُدًى ﴿١٤﴾ ﴿

صدق الله العظيم

ومعها الآيات عن ذى القرنين الطواف :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ
ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ
سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ
عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْتَ مُعَذِّبٌ وَإِنَّمَا أَنْتَ تُخَذِّلُ فِيمَنْ تَخْتَارُ ﴿٨٦﴾ ﴿

صدق الله العظيم

إلى آخر الآيات من سورة الكهف ٨٣ - ٩٨.

وخاب مكر يهود وحبط سعيهم،

وصدق الله تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿٧٦﴾ الَّذِينَ ضَلَّ
سَبِيلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿٧٧﴾
أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ
فَلَا نُفِيعُهُمْ يَوْمَ الصِّيمَةِ وَزُنَا ﴿٧٨﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ هُمْ بِمَعْتَدٍ بِمَا
كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوكًا ﴿٧٩﴾ ﴿

صدق الله العظيم

وعادت يثرب فتواتر عن مسرح الأحداث إلى حين، دون أن تصرف سمعها عن الصراع

الدائر بين الإسلام والمشرّكين بمكة، وهو يدنو من ذروة تعقده مؤذناً بوشك تحوّل في مُتّجه الأحداث.

وربما بدا في ظاهر الأمر أن «يثرب» حددت موقفها بالرفض الباتّ للدعوة الإسلامية، حين أوْشكت أن تصل إليها من بعيد.

وكان الخزرج، لا اليهود، هم الذين ردّوها بحدّ السيف.

حدّث أن قدم «سويد بن الصامت الأوسى» مكة حاجاً في الموسم، فلقيه المصطفى ﷺ حين سمع بمقدمه، ودعاه إلى الإسلام.

قال سويد: «فلعل الذي معك مثل الذي معي؟».

ولما سأله النبي ﷺ عما معه؟ قال:

«مَجْلَة لقمان» - يعني صحيفة حكمته...

فتلا عليه المصطفى آيات من القرآن، فلم يبعد منه حتى عاد إليه وقال: «إن هذا لقول حسن».

وانصرف وهو يتدبر ما سمع من القرآن، وكان شاعراً حكيماً لا يخفى عليه وجه القول، فقدم يثرب على قومه وراح يتحدث إليهم عن معجزة الكتاب العربي المبين، فلم تلبث الخزرج أن قتلته، وفي حسابها أن يثرب ليست بحيث تحتمل وطأة دين جديد، وحسبها ما لقيت من سر يهود، يزعمون أنهم أهل كتاب! (١).

* * *

وتكرر المشهد مع وفد آخر من الأوس جاءوا من يثرب، وإن اختلفت الأشخاص واختلف المكان، وكان الأوس، هذه المرة، هم الذين ردّوا الإسلام عن يثرب!

قدم «أنس بن رافع» مكة ومعه فتية من بني عبد الأشهل، فيهم إياس بن معاذ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم الأعداء من الخزرج.

وسمع بهم المصطفى عليه الصلاة والسلام، فأتاهم حيث نزلوا بأب القرى، فعرض عليهم الإسلام وتلا فيهم آيات من القرآن.

(٢،١) السيرة النبوية: ٦٧/٢، ٧٠.

قال إياس بن معاذ، وكان فتي حَدَّثنا سليم الفطرة:
 «أى قوم، هذا والله خيرٌ مما جئتم فيه،
 فما كان من زعيم الوفد، أنس بن رافع، إلا أن أخذ حفنة من تراب البطحاء فضرب بها
 وجه الفتى وهو يقول زاجراً:
 «دعنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا»^(٢).
 فصمت إياس،
 وقام عنهم المصطفى ﷺ، وقد هموا بارتحال عائدين إلى يثرب...
 لكن منطق التاريخ لم يكن ليُبقى يثرب طويلاً بعزل عن الأحداث، مهما بيد من ظاهر هذا
 الموقف أو ذاك...

* * *

أبواب موصدة

﴿..... قَدْ تَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتُوا لِلَّهِ يُجَادُونَ ۝ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الرُّسُلِينَ ۝﴾
 (صدق الله العظيم)

حتى عام الحزن، في السنة العاشرة من المبعث، لم يكن المصطفى عليه الصلاة والسلام قد خرج بدعوته من أم القرى، مهد مولده ومنزل مبعثه، إلا أن يلقي بعض الوافدين على الموسم فيدعوهم إلى الإسلام.

ففي مكة قبل سواها، كان ينبغي أن تستقر الدعوة، بحكم التاريخ الديني العريق للبلد الحرام والبيت العتيق.

لكن عشر سنين من الصراع المرير بين الإسلام والوثنية القرشية، بلغت بالجولة المكية ذروة تعقدها وفرضت أن تأخذ الأحداث متنجها آخر...

وبدأ المصطفى بالطائف، فخرج من مكة يلتمس النصرة من ثقيف والمنعة بهم من قومه، ويرجو أن يقبلوا منه دعوته التي تصدّت لها قريش بالمقاومة والاضطهاد، بغياً وعناداً...

خرج وحده، فلما انتهى إلى الطائف اتجه إلى ثلاثة إخوة، أبناء عمرو بن عمير الثقفي، هم يومئذ سادة ثقيف، وكان أحدهم زوجاً لقرشية من بني جمح، فجلس إليهم ﷺ حيث وجدهم في بستان لهم ودعاهم إلى الإسلام والتمس نصرتهم.

فكان ردّ أولهم، أنه يبرط ثياب الكعبة - أي ينزعها ويرمي بها - إن كان الله قد أرسله ! وردّ الثاني: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك؟

وقال ثالثهم: والله لا أكلمك أبداً! لئن كنت رسولاً من الله كما تقول، لانت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما بنبغى لي أن أكلمك...

فقام ﷺ من عندهم، وقد يش من خير نقيف، وأقصى ما طمع فيه منهم، أن يستجيبيوا لرجائه في أن يكتموا أمره معهم، كيلا تزداد قريش جرأة عليه.

لكنهم أغروا به سفاءهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس والجثوة إلى بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة، وهما فيه، فجلس عليه الصلاة والسلام هناك ريثما ينصرف عنه الناس، وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف.

رفع المصطفى ﷺ وجهه إلى السماء وقال في ضراعة وابتهاال:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك أو يحل علي سخطك. لك العتيى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك!».

فكأنما تحركت لضراسته رحم ابني ربيعة، فبعنا إليه بعض العنب مع غلام لهما نصراني يدعى «عداس».

ودهش عداس، حين سمع المصطفى يقول: باسم الله. قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد.

ولما حدثه المصطفى عن الإسلام، أكب عليه يقبل رأسه ويديه وقدميه...

لمحه سيده، فانتظرا حتى عاد إليهما وسألاه:

- مالك تقبل زاس هذا الرجل ويديه وقدميه؟

أجاب: يا سيدى، ما فى الأرض خير من هذا، لقد أخبرنى بما لا يقوله غير نبي.

قالا: ويحك يا عداس، لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه...

رجع المصطفى ﷺ إلى مكة محزوناً يائساً من خير ثقيف، والموسم قد أهل. فمضى على عادته يعرض دعوته على وفود القبائل العربية التى سعت إلى أم القرى.

وقومُهُ أَشَدُّ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ خِلَافِهِ، إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ آمَنَ بِهِ...

وبدت الجولة في أولها مدعاة إلى يأس وقنوط:

سعى إلى «منى» حيث مجتمع الحَاجِّ، فوقف على الحشود هناك يقول:
«يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا
ما تعبدون من دونه وأن تؤمنوا بي وتصدقوا بي وتمنعوني حتى آيئ من الله ما بعثني به».

فخرج له من جمع قريش رجلٌ أحوْلٌ وضِيءٌ، له غدیرتان وعليه حُلَّةٌ عَدَنِيَّةٌ، فقام في الناس
وقال:

«يا بني فلان، إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم إلى ما جاء به
من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه».

سأل سائل لا يعرفه:

- من هذا الذي يتبع محمداً ويرد عليه ما يقول؟

وأجاب مجيب: - ذاك عمُّه، عبد العزى، أبو لهب، بن عبد المطلب.

* * *

وانتظر المصطفى ﷺ حتى انصرفت القبائل من «منى» إلى منازلها في مكة، فأتى كندة
فدعاهم إلى الإسلام فأبوا عليه.

وكذلك رده بنو كلب، لم يقبلوا منه دعوته.

ثم أتى بنى حنيفة في منازلهم، فلم يكن أحدٌ من العرب أقبح ردّاً منهم.

وانتقل بدعوته إلى بنى عامر بن صعصعة، فتداولوا أمره فيما بينهم، وإن أحدهم، فراس بن
عبد الله بن سلمة العامري، ليقول:

«والله لو أتي أخذتُ هذا الفتى من قريش لأكلتُ به العرب».

ثم قام إلى المصطفى ﷺ فقال يساومه:

«أرايت إن نحن بايعناك على أمرِك، ثم أظهركَ الله على من خالفك، أكون لنا الأمر من
بعدك؟».

قال عليه الصلاة والسلام:

«الامر إلى الله يضعه حيث يشاء».

ورد المساوِم عن بنى عامر:

«أفتهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الامر لغيرنا؟ لا حاجة لنا
بأمرك!»...

* * *

بيعة العقبة ومتجّه الأحداث

﴿.....وَأَعْنِصُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا ۚ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٠٢)

(صدق الله العظيم)

ومن حيث بدت الأبواب كلها موصدة في وجه الإسلام، ظهرت يترتب على الأفق الشمالى البعيد، تجذب إليها مجرى الأحداث من دائرته المقفلة في أم القرى.

خرج المصطفى ﷺ في الموسم كدأبه في كل موسم، يعرض الإسلام على وفود القبائل. وبلغ العقبة فلقى رهطاً من العرب، سيأهم لما عرف أنهم من الخزرج: «أمن موالى يهود؟» قالوا: نعم. قال ﷺ: «أفلا تجلسون أكلمكم؟»

جلسوا، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن... وذكر ما طالما سمعوا من اليهود الذين غزوه ببلادهم، عن نبي حان زمانه، يظاهرونه على عرب يثرب من أوس وخزرج فيقتلونهم. قال بعضهم لبعض:

«يا قوم، تعلموا والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه». وأجابوه ﷺ إلى ما دعاهم إليه، وقالوا: «إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة

والشر ما بينهم. فعسى أن يجمعهم الله بك، فستقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبتك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك». ثم أخذوا طريقهم إلى الشمال عائدين إلى بلادهم وقد آمنوا بالله ورسوله عليه الصلاة والسلام.

وَشَغِلَتْ يَثْرِبَ بِأَمْرِ الْإِسْلَامِ، مِنْذُ عَادَ إِلَيْهَا الْخَزْرَجِيُّونَ الَّذِينَ بَايَعُوا الْمُصْطَفَى: الْعَرَبُ مِنْ أَوْسٍ وَخَزْرَجٍ، يُلقونَ أَسْمَاعَهُمْ إِلَى حَدِيثِ هَؤُلَاءِ الْأَنْصَارِ، وَلَا يَكَادُ يَفْرَغُ لَهُمْ عَجَبٌ لَمَّا يَشْهَدُونَ مِنْ حِمَاسَتِهِمْ لِلدَّعْوَةِ، وَصَدَقَ حُبُّهُمْ لِلرَّسُولِ وَإِيمَانُهُمْ بِرِسَالَتِهِ. ويهودُ، فِي شُغْلٍ شَاغَلَ بِهِذِهِ الْبَادِرَةِ الْخَطَرَةِ. كانَ الْخَزْرَجِيُّونَ أَصْحَابَ الْبَيْعَةِ الْأُولَى، سِتَّةَ نَفَرٍ أَوْ سَبْعَةٍ، لَمْ يَكُنْ عَدَدُهُمْ هُوَ الَّذِي شُغِلَ يَهُودُ، بِقَدْرِ مَا شَغَلَهُمْ أَنَّ الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ وَصَلَ إِلَى يَثْرِبَ، وَكَانَ الظَّنُّ أَنَّ بَيْقَى مُحَصَّورًا فِي مَكَّةَ بَيْنَ أَحْيَاءٍ قَرِيشٍ يَمِزُّهَا بَدَدًا...

وقد راحوا يترصدون خطوات الدعاة الأولين من الأنصار، متعلقين بالرجاء في أن عرب يثرب لن يلبثوا أن يختلفوا على الإسلام، وأن الأوس لن ترضى عن دعوة حملها رهط من الخزرج، ومثل هذا الخلاف المتوقع مرجو لأن يلهب نار العداوة والبغضاء بينهم، ويدها بوقود يزيدها حدة وضراماً:

لكن عاما مضى والأنصار الخزرجيون ماضون في دعوتهم لا يصدهم عنها من قومهم صائد، حتى إذا حلَّ موسم الحج، ذاع خبر من مكة أن أنى عشر يترى ممن وافوا الموسم، لقوا نبي الإسلام عند العقبة وبايعوه..

وَجُنَّ غَيْظُ يَهُودٍ وَهِيَ تَرَى فِي هَذِهِ الْبُؤَادِرِ إِيْذَانًا بِتَحَوُّلِ خَطِيرٍ فِي حَرَكَةِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي عَاشَتْ فِي مَكَّةَ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِ سِنِينَ، صَامِدَةً لِكُلِّ مَا قَاوَمَتْهَا بِهِ الْوُثْنَةُ الْقَرَشِيَّةُ مِنْ أَدَى وَاضْطِهَادٍ وَحَصَارٍ وَفِتْنَةٍ، رَافِضَةً كُلَّ مَا عَرَضَتْ عَلَيْهَا مِنْ مَسَاوِمَاتٍ.

وَانْتَهَزَتْ يَثْرِبَ حَتَّى عَادَ هَؤُلَاءِ الرَّهْطِ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَفِي الظَّنِّ أَنَّهُمْ خَزْرَجِيُّونَ كَسَابِقِيهِمْ أَصْحَابَ الْبَيْعَةِ الْأُولَى.

فَكَانَتْ الْمَفْاجَأَةُ، أَنَّ فِيهِمْ ثَلَاثَةً مِنْ زُعَمَاءِ الْأَوْسِ، مَعَ تِسْعَةٍ مِنْ أَحْيَاءِ الْخَزْرَجِ.

جمعهم الإسلام ووحد بينهم وألف بين قلوبهم، وقد كانوا من قبل متباغضين، بعضهم لبعض عدو...
 * * *

استقبلت يثرب مع الأنصار العائدين من بيعة العقبة، صحابياً جليلاً من صميم فريش، هو «مصعب بن عمير بن هاشم العيدري» مبعوثاً من قبل المصطفى عليه الصلاة والسلام، مع الذين بايعوه من النيريين، ليقرئهم القرآن ويفقههم في الدين...
 ونزل مصعب على أنصارى من سادة الخزرج: «أسعد بن زُرارة» كبير بني النجار، أخوال عبد الله بن عبد المطلب، والد المصطفى ﷺ...
 وكانت يثرب قد تسامعت قبل ذلك بما شاع وذاع من أمر مصعب بن عمير.
 قبل إسلامه، كان فتى مكة شاباً وجمالاً وزهواً، تلمس له أمه، لفرط شغفها به، أفخر الثياب وأندر العطور، حتى ليذكره النبي ﷺ فيقول:
 «ما رأيت بمكة أحسن لمة ولا أرق ولا أنعم نعمة، من مصعب بن عمير».

بلغ مصعباً يوماً أن محمد بن عبد الله الهاشمي ﷺ، في دار الأرقم يدعو إلى الإسلام. فاتجه إليه من تلقاء نفسه فبايعه، وكنم إسلامه إشفاقاً على أبويه اللذين شغفهما حباً. حتى بصر به عثمان بن طلحة «يصلى صلاة المسلمين، فأخبر قومه فأخذوه وحبسوه ليفتنوه عن دينه. فلم يزل محبوساً إلى أن لاحت له فرصة الإفلات فهاجر بدينه إلى أرض الحبشة.
 وعاد إلى مكة مع من عادوا من مهاجرة الحبشة حين بلغتهم بشرى انهيار الحصار المنهك الذي ضربه المشركون على المسلمين ومن والاهم من بني هاشم، فما رأت مكة فتى مثل مصعب، استبدل بأناقة المظهر بهاء الإيمان، وبخيلاء النعمة جلال التقى وتواضع الخشوع.
 واختاره المصطفى ﷺ من بين أصحابه ليكون إمام الأنصار في يثرب، فأقام عاماً هناك يتنقل بين دورها: يؤم المسلمين في الصلاة ويعلمهم الدين ويتلو القرآن، فتخشع له القلوب والضمائر متفتحة لنور الهدى.

* * *

خرج مصعب يوماً مع «أسعد بن زرارة» سيد الخزرج، وكان منزله عليه، إلى
حى بنى عبد الأشهل، واجتمع إليهما رجال من الأنصار. فسمع بمقدمهما «سعد بن معاذ،
وأسيد بن حضير» وهما يومئذ سيدا قومهما، وكلاهما على النرك، دين العثيرة والآباء.
وتخرج سعد بن معاذ من مواجهة أسعد بن زرارة، وهو ابن خالته، فحرّض أسيد بن حضير
على أن يقوم فيرده وصاحبه عن الحى. قال:

«لا أبا لك! انطلق إلى هذين الرجلين - أسعد ومصعب - اللذين أتيا دارينا ليسفها
ضعفاءنا، فازجرهما وانهما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منى حيث علمت،
كفيتك ذلك. هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدما».

فالتقط أسيد بن حضير حربته، ثم أقبل إليهما فقال متوعداً: «ما جاء بكما إلينا تسفهان
ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة».

قال له مصعب بن عمير:
أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره؟.

فركز أسيد حربته وجلس متكئاً عليها يسمع حديث مصعب عن الإسلام وتلاوته القرآن،
وقد زايله تقبضه وتجهمه. ثم قال متهلل الأسارير:

«ما أحسن هذا الكلام وأجمله!».

وأسلم...

وانطلق عائداً إلى حيث ترك «سعد بن معاذ» ينتظره في الجمع من قومه. فما لمح سعد حتى
قال لمن حوله:

«أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بن حضير بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم».

ثم سأله عما فعل بأسعد بن زرارة وضيغه مصعب، فرد أسيد محاذراً:
«كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً! وقد نهيتهما، وإني لأخشى على ابن خالتك من
بعض القوم».

فقام سعد مغضباً، فما أبعد حتى رأى أسعد ومصعبا يتجهان إليه مطمئنين، فعرف أن أسيد بن
حضير إنما أراد له أن يسمع منها.

وتجاهل مصعباً وقال لأسعد، ابن خالته:
«يا أبا أُمَامَة، أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمْتُ هذا منى، اتَّعَسَانَا في ديارنا بما نكره؟».

همس أسعد لصاحبه:
«أى مصعب، جاءك والله سيّدٌ من وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك اتنان».
وأقبل مصعب على سعد بن معاذ فقال له مثل الذى قال لأسيد بن حضير:
«أو تقعد فتسمع، فإن رضيتُ أمراً ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟».
قال ابن معاذ: «أنصفت».
وتكلم مصعب، وقرأ القرآن...
وقبل أن يلفظ سعد بكلمة، عرف القوم الإسلام في وجهه، لإسراقه وتهلله.
وأسلم سعد، ومضى من فوره إلى قومه فسألهم:
«كيف تعلمون أمرى فيكم؟» قالوا:
«سيدنا، وأفضلنا رأياً وأميننا نقيية».
فدعاهم إلى الإسلام فأجابوا جميعاً، فما أمسى في حى بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة،
إلا مسلماً ومسلمة^(١).

وكانت دور المسلمين تتجاوب منذ بيعة العقبة، بشعر في السعدين: سعد بن عبادة
وسعد بن معاذ، قبل إسلامهما:

فإن يُسلم السعدانِ يصبحُ محمدٌ	بمكة لا يخشى خلافَ المخالفِ
فيا سعدُ، سعدُ الأوس، كن أنت ناصراً	ويا سعدُ، سعدُ الخزرجين الغطارفِ
أجيباً إلى داعى الهدى وتمنياً	على الله في الفردوس منية عارفِ

دون أن يعرف لمن الشعر، وكأنما هو هاتف يشدو بما كان المسلمون يرجونه من إسلام هذين الرجلين..^(٢)

وهذا سعدُ الأوس قد أسلم.

(١) السيرة: ٨٠١.

(٢) من السيرة، والأبيات رواها الطبرى في تاريخه: ٢٤٨١٢. والسمهودى فى (وفاء الوفا): ٢٢٨١.

وبعده، في بيعة العقبة الكبرى، أسلم سعد الخزرج، ابن عبادة وكان أحد اتني عشر نقيباً لأصحاب البيعة الكبرى.

وتوقعت يهود، بل توقعت يشرب كلها والحجاز، أن يكون لهذا الأمر ما بعده...

بعد إسلام «سعد بن معاذ» وكل قومه من بني عبد الأشهل، فشا الإسلام في يثرب فما من دارٍ للعرب هناك، إلا وفيها للدين الجديد أنصار..

وأهل موسم الحج، لانتقى عشرة سنة بعد المبعث...

وخرج إمام يثرب «مصعب بن عمير» ساعياً إلى أم القرى، يصحب رهطاً من الأنصار، فيهم من لم يكن لقي المصطفى ﷺ بعد.

وفي الركب اليتري، حجاج آخرون غير مسلمين....

ودنا الركب من مشارف مكة، فتهللت وجوه الأنصار ورنّت قلوبهم إلى لقاء نبيهم عليه الصلاة والسلام، وهم على موعدٍ معه بالعقبة، في ليلة حدّوها من ليلى التشريق، دون أن يعلم بقية الثريين بهذا الموعد.

فيما عدا «عبد الله بن عمرو» الذى آنس فيه الأنصار خيراً، فأسروا إليه بموعدهم مع نبيهم المصطفى وقالوا له:

«يا أبا جابر، إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه»^(١).

في الليلة الموعودة، أوى الأنصار إلى مضاجعهم حيث نزلوا مع سائر قومهم في رحالهم.

فلما مضى ثلث الليل خرجوا لميعاد النبي ﷺ، يتسللون تسلل القطا مستخفين، حتى وافوه عند العقبة.

كانوا ثلاثة وسبعين رجلاً، فيهم أبو جابر عبد الله بن عمرو، وامرأتان:

أم عمارة، نسيبة بنت كعب المازنية.

وأم منيع، أسماء بنت عمرو بن عدى، من بني سلمة.

قال العباس بن عبادة بن نضلة يخاطب قومه:

«يا معشر الخزرج، هل تدرون علام تباعون هذا الرجل؟»

(١) السيرة، والاصابة، وتاريخ الطبرى. وقد أسلم أبو جابر رضى الله عنه وشهد العقبة الكبرى، وكان من نفيائها.

قالوا: نعم.

قال: «إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نُهكت أموالكم مصيبةً وأشرافكم قتلاً أسلمتموه، فمن الآن: فهو والله خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة».

قالوا للمصطفى ﷺ: ابسط يدك.

فبسط عليه الصلاة والسلام يده فبايعوه، الخزرج منهم والأوس، وأمرهم ﷺ فاختراروا من بينهم اثني عشر نقيباً: تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس.

قال أحد النقباء، العباس بن عباد: «يا رسول الله، والله الذي بعثك بالحق، إن شئت لَنَمِيلَنَّ على أهل منى، من المشركين غداً بأسيا فئنا».

فردَّ عليه الصلاة والسلام: «لم تؤمر بذلك، لكن ارجعوا إلى رحالكم».

ورجعوا إلى رحالهم فتسللوا إلى مضاجعهم فناموا مطمئنين، والدنيا من حولهم ساهرة لا تنام.

لم يكن النباُ الخطير لبيعة العقبة الكبرى، بحيث يخفى على المشركين من قريش، وأصحاب العقبة هذه المرة، ثلاثة وسبعون من الخزرج والأوس، بايعوا نبي الإسلام على أن ينصروه ويمنعوه.

ومتى؟ وأين؟

في ليلة من ليالي التشريق بموسم الحج، وفي مكة، معقل قريش والعاصمة الدينية للوثنية العربية.

وقبل أن يسفر الصبح، تسرب النباُ إلى مكة فهاج غضب المشركين، وإذ ظنوا أن المبايعين من الخزرج دون الأوس، بادر إليهم نفر من طواغيت قريش فقالوا بين وعد ووعد:

«يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا. وإنه والله ما من حيٍّ من العرب أبغض إلينا أن تنسب الحرب بيننا وبينهم، منكم».

فهبَّ مشركو الخزرج يحلفون لهم أنه ما كان من ذلك شيء وما علموه.
ولم يطمئن القرشيون، بل ذهبوا إلى «عبدالله بن أبي ابن سلول الخزرجي». وكان يبنى نفسه
بملك يثرب توازره يهود، فسألوه فأنكر الأمر كله إنكاراً باتاً، وقال لقريش:
«إن هذا الأمر للجسيم، ما كان قومي ليتفوتوا عليّ بثله، وما علمته كان».
وانصرفوا وما يزال في نفوسهم ريب مما بلغهم من الأمر الجسيم، فما زالوا يتثبتون حتى
علموا يقيناً أنه قد كان لقاءً في العقبة على موعد بين محمد وأنصاره، وأن بضعة وسبعين يثريبياً
من الأوس والخزرج قد بايعوه، وأن أحد نقبائهم قال له فيها قال:
«نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنك... فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل
الحلقة، ورتناها كابرًا عن كابر».

وكرّرت قريش راجعة إلى منزل الحجاج اليثريين، فإذا بهم قد شدوا رحالهم وأبعدوا في
طريقهم إلى شمال الحجاز.
والإسلام معهم، قد بدأً ببيعة العقبة الكبرى مرحلة جديدة مؤذنة بتحول حاسم في اتجاه
الأحداث:

في قلب الحجاز معقل الوثنية القرشية والعربية،

وفي الشمال، يثرب وما حولها، وكانت حتى ذلك الحين معقلًا لليهود...

* * *

بيعة العقبة الكبرى، أوشكت الجولة الأولى من جولات الصراع بين الإسلام والشرك، أن
تنتهي في مكة لتبدأً جولة أخرى...

بعد أن استنفدت تلك المواجهة الأولى، كل ما لدى قريش من وسائل وذرائع لمقاومة
الدعوة، دون أن تنتقل من موقفها على حافة الحرب إلى صدام مسلح.
وبدأً التاريخ يلتفت إلى يثرب التي يتجه إليها مؤشر التحول، ويستعيد ما طوى من قديم
أخبارها^(١).

(١) مادة هذا الفصل، مستخلصة من كتاب (وفاء الوفاء، بأخبار مدينة المصطفى) للسهمودي. مع مراجعة السيرة
لابن اسحاق، رواية ابن هشام، وتاريخ الطبري.

من قديم بعيد موغل في أعماق الماضي إلى عصر ما بعد الطوفان، بدأ الوجود العربي في يثرب والحجاز.

الرواية العربية تقول إن (سفينة نوح) رست قريباً من بابل في موضع سُمي «سوق النمانين» بعدد من كانوا في السفينة الناجية من الطوفان، وقد مكثوا هناك حتى كثروا وضاعت بهم المنطقة، فتفرقوا.

اتجه بنو عييل، أخى عاد، إلى موضع يثرب، وهو اسم أحد أبناء عييل، فنزلوا به وعمره. ثم مالوا إلى موضع آخر في المنطقة دهمهم فيه سيل جاحف، فسمى الجحفة. وظلت يثرب مهجورة إلى أن عمرتها قبيلة من العرب القحطانية العاربة، بعد تصدع سد مأرب.

هذه القبيلة العربية الصميمة، هي الأوس والخزرج.

أخوان سقيقان، أبوهما «عمرو بن عامر» آخر ملوك سبأ قبل خرابها.

وأمهما «قيلة» التي ينسب إليها عرب ينرب، بنو قبيلة.

ونزح إخوتهم «بنو جفنة بن غسان» إلى أرض الشام فأسسوا بها إمارة الغساسنة العربية.

وآخرون من جرهم، نزلوا حول مكة، وهم الذين أصهر إليهم «إسماعيل بن إبراهيم» جد العرب العدنانية.

أقام بنو قبيلة في يثرب دهرًا طويلاً في أمن وسلام ورخاء ونعمة، والمنطقة خالصة لهم، حتى طرأت عليهم من الشمال شراذم من فلول يهود، فارين من وطأة الرومان الساحقة، بعد المؤامرة على السيد المسيح عليه السلام.

وحطوا على أخصب منطقة هناك، فما لبثوا أن أنشبوا مخالبيهم فيها واستنزفوا خيرها، وأقاموا لهم مستعمرات حصينة في يثرب وقرينة وخيبر وفدك وتبعا ووادي القرى، وأثروا ثراءً فاحشاً على حساب الوجود العربي الذي بدأ يتصدع من وطأة الغزاة^(١).

حاول العرب أول الأمر أن يأمنوا شر يهود، بعقد حلف جوار معهم، وفي ظل ذلك الحلف استطاع بنو قبيلة أن يواصلوا حياتهم ويمارسوا نشاطهم، فخافت يهود على وجودها المغتصب، وقطعت الحلف الذي بينهم، وصرح الشر منهم حتى خاف بنو قبيلة أن تجلبهم يهود عن أرضهم...

(١) ولفنسون. تاريخ اليهود في جزيرة العرب: ٩، ١٨ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر.

إلى أن سب «مالك بن العجلان» أخو بني سالم بن عوف بن الخزرج، وسوّد الحَيَّان من بني قيلة، فكان هو الذي تصدى لأفاعى يهود وقتل بضعة وثمانين من رؤوسها، فانكمشوا خائفين يلعنونه في بيّهم ومعابدهم كلما دخلوها، ولجئوا إلى أحياء العرب يستجدون الحماية والجوار «وقد ذلوا وانكسرت شوكتهم وقلّ امتناعهم».

وإنما مكّن لهم من يثرب بعد ذلك، ما سب بين الأوس والخزرج من خصام خبّ فيه يهود ووضعوا، وسهروا على إلهاب ضرامه لتخلو لهم الأرض الطيبة.

وبدأت مرحلة مظلمة في تاريخ يثرب، استغرقت بضعة قرون قبل الإسلام - من القرن الأول إلى السادس للميلاد - لم تنطفئ فيها نار الحروب بين الأوس والخزرج، في كل حرب منها نلمح أثر اليهود في تدمير الوجود العربي هناك^(١).

وآذن العصر الجاهلي بمغيب، وهذا العدو الخبيث يتربص بالأوس والخزرج الدوائر، ليميل مع المنتصر منها ويسلب المهزوم.

والمستعمرات اليهودية سمائيّ الحجاز تزداد تراء بما تستنزف من خير الأرض، ومرافق البلاد الحيوية في قبضة مخالب الذئاب الفارة من مخالب النسر الروماني.

وقد كانت آخر حرب بين الأوس والخزرج، يوم بعث قبل بيعة العقبة الكبرى بأربع سنوات. ودور يهود فيها معروف مشهور: فحين ظهرت بوادر الحرب بين بني قيلة، تدخل يهود بنى قريظة يلهبونها بالتواطؤ سرا مع الأوس.

فلما علم الخزرج بهذا التواطؤ، بعثوا إلى يهود منذرين:

«إنكم إن فعلتم لم ننم عن الطلب أبدا... وأسلم لكم أن تدعونا وتخلوا بيننا وبين إخواننا».

رد يهود على نذير الخزرج:

«إنه قد كان الذي بلغكم، والتمست الأوس نصرنا، وما كنا لننصرهم عليكم أبدا».

لكن الخزرج أصرّوا على أن يأخذوا رهائن من غلمان بنى قريظة، ضمنا لعدم غدرهم. فدفعوا إليهم أربعين غلاماً يهودياً، وإن قائلهم ليقول:

«خلّوهم يقتلوا الرهن، إن هي إلا ليلة يصيب فيها أحدكم امرأته، حتى يولد له غلام مثل الرهن»^(٢).

(١) بمزيد تفصيل، في الباب الثاني من كتابي (أعداء البشر) ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(٢) السهمودي: وفاء الوفا: ٢١٨/١.

وغدرت يهود بوعدھا للخزرج، حين لمحت غلبة الأوس علیهم.
وانهزمت الخزرج يوم بُعات، ووضعت فیها الأوسُ السلاح، وسلبتهم قریظةً والنضیر..
اجتاح العصابة اليهودية دور الخزرج تنهب وتسلب، حتی أتوا دار «عبدالله بن أبی ابن
سلول» لیهدموها، فاشترى منهم الأمان بدفع رھائنهم إلیهم
ومن ذلك الیوم، بدأ بینہ وبینہم حلف الشیطان.
وكان لابد من حرب جدیدة یصلھا عرب یشرب، تصفیةً لیوم بعث.
والأمر فی مثلھا لا یعدو انطلاق شرارةٍ من هنا أو من هناك، توجب ضرامَ الجذوة التي لبشت
متقدة قرونًا، تلتمس بین حین وآخر من ینفخ فیھا، لتستعر بوقودٍ من رجال الأوس والخزرج.
وقد كان الخزرجیون أصحابُ الثأر لبعات، ومن هنا كان سعی الأوس إلى مكة التماسًا
لحلف قریش علی الخزرج.

ومن حیث توقعت ینرب أن تلتهب الجذوة بشرارة هذا الحلف، وألقت عاصمة الشمال
سمعھا إلى مكة فی انتظار عواقب المفاوضة بین وفد الأوس وزعماء قریش.
جاءت المعجزة من هناك فأطفأت الجذوة وبددت رمادھا هباءً منثورًا..
وكان عجبًا من العجب، أن تأقی «یشرب» بشرى السلام من مكة، فی الوقت الذی بلغت فیہ
معركتها بین الإسلام والوثنية ذروة احتدامھا.
وحین هم التاریخ بأن یضیف حربًا جدیدة إلى الحروب التي مزقت الأوس والخزرج، وقف
بعد بیعة العقبة الكبرى فطوى الصفحات الدامیات التي خضبت حیاة یشرب قرونًا ستة، لیبدأ
صفحة جدیدة بأية الإسلام التي من الله بها علی المؤمنین الأنصار، فأصبحوا بنعمته إخوانًا.
وكانت عبرة، أن تجمع العقيدة ما تفرق وانتثر من شتات القوم، وأن تزیل ما تراكم فی
قلوبهم من ثاراتٍ وأحقاد، وتنسخ جاهلیتهم المخضبة بالدماء..
وفی ظل هذه العقيدة الجامعة المؤلفة للقلوب، وتحت لوائها المبارك المیعون، التقى الأوس
والخزرج إخوانًا فی الدین وعادوا بعد بیعة العقبة الكبرى أنصارًا للإسلام ونبیہ علیہ الصلاة
والسلام، فكانوا هم الدعاة الأولین الذین حملوا نوره إلى عاصمة الشمال فی الحجاز، وهیئوها
لاستقبال المهاجر العظیم علیہ الصلاة والسلام.

وما يزال اليهود، حتى عصرنا هذا، يقفون عند بيعة العقبة مأخوذِينَ بما كان من جسيم خطرِها وُبُعد أثرِها.

وإنَّ فيهِم من يعدها بدءَ التاريخ الإسلامي، ويراهَا أُولَى بذاك من عام الهجرة التي هي في رأيهم أُنْزُلُ للبيعة الكبرى.

قال المؤرخ اليهودي «إسرائيل ولفنسون، أبو نُؤيب»:

«ومها يكن من شأن هذه البيعة العظيمة فإنها من الحوادث ذات النتائج الخطيرة في التاريخ الإسلامي، وإني أعتقد أنه كان من الحق على المسلمين أن يبتدئوا تاريخهم من تلك السنة، لأن قيمتها لم تكن أقل شأنًا من قيمة هجرة الرسول إلى يثرب»^(١).

وما كان لليهود يومها أمل، إلا «أن يفلح زعماء قريش في استمالة زعماء الخزرج (?) وإلا فإنهم لابد ذاهبون للتقرب من بعض زعماء اليهود ليعملوا على إحباط أعمال المسلمين في المدينة»^(٢).

* * *

(١-٢) تاريخ اليهود في جزيرة العرب: ١٠٩.

تلاحقت الأحداث بعد بيعة العقبة الكبرى.

أضاعت قريش ما بقي من رشداء، فصبت على المسلمين حمًا من الأذى والاضطهاد... والتقطت يهود أنفاسها، أملًا في أن تشتعل نار الحرب فتأكل الجمع من أهل مكة.

لكنهم فوجئوا بتدفق المهاجرين من مسلمي مكة نحو يثرب، بتوجيه من المصطفى عليه الصلاة والسلام، حيث نزلوا على الأنصار إخوانهم في الدين، بآمن من قريش.

وأمنت دور المهاجرين في مكة، موحنة خلاء.

لم يبق منهم في أم القرى، غير من حيس أو فتن، إلا الرسول عليه الصلاة والسلام، وصحابه الصديق أبو بكر، وعلى بن أبي طالب^(١).

وتوقعت قريش أن يلحقوا بالمسلمين في دار الهجرة، فهل تدع الأمر يفلت من يدها بعد ثلاث عشرة سنة من الصراع المرير المنهك؟

لا بد من ضربة باترة، تحسم الأمر كله.

وقد حاولتها قريش، في جنون غيظها وقهرها.

نقل كتاب السيرة ومؤرخو الإسلام، أن قريشًا «لما رأت أن محمدًا، ﷺ، قد صارت له شيعه وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا ببيترب دارًا وأصابوا منهم منعة، فحذروا خروج الرسول إليهم وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم، فاجتمعوا في دار الندوة - وهي دار جدّهم قصي بن كلاب، حيث كانت قريش لا تقضى أمرًا إلا فيها - يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر محمد، عليه الصلاة والسلام، حين خافوه.

«قال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما فد رأيتم، فإننا والله ما نأمنه على الوئوب علينا فيمن اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأيًا».

وتعددت مقترحاتهم، طائشة هوجاء. حتى قال أبو جهل بن هشام:

«والله إن لي رأيًا ما أراكم وقعتم عليه بعد».

(١) السيرة: ١١١/٢ وتاريخ الطبري: ٢٤٢/٢.

سألوه: «وما هو يا أبا الحكم؟».

قال: «أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً فيعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم» - يعنى الدية^(١).

وانصرفوا وهم مجتمعون على هذا الرأي المخبول، وحددوا ليلتهم لذلك موعداً. وفي تلك الليلة، خرج المصطفى عليه الصلاة والسلام ناجياً إلى دار هجرته...

(١) السيرة: ١٢٥٢ وتاريخ الطبرى. ٢٤٣٢ وفيها أساء من حضروا الندوة من طواغيت قريش.

(٤)

مع المصطفى ﷺ في دار هجرته

- هجرة... وتاريخ.
- أبعاد الموقف في ميدان الصراع.
 - موادعة يهود.
 - تحويل القبلة إلى المسجد الحرام.
 - نذر الصدام مع مشركى قريش.
 - ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه﴾.
- يوم بدر، وموازين القوى.
- درس من أحد ورسالة من شهيد.
- الإسلام في الجبهات الثلاث.
 - في الجبهة اليهودية
 - مع الوثنية القرشية
 - في جبهة المنافقين.

- ١ - في الجبهة اليهودية من أول
الهجرة إلى خيبر.
الأحزاب وبنو قريظة.
حديث الإفك.
الله أكبر، خربت خيبر.
- ٢ - في الجبهة القرشية: من
هدنة الحديبية حتى الفتح
ويوم حنين.
هدنة الحديبية وبيعة
الرضوان.
قد أَجَرْنَا مَنْ أَجَارَتْ.
تجربة «مؤتة» ولقاء الروم.
المسير إلى مكة.
الفتح.
﴿ويوم حُنينٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ
كَثَرْتَكُمْ﴾.
- ٣ - المنافقون... والفاضحة.

هجرة . . . وتاريخ

﴿..... إِلَّا نَضْرُوهُ فَقَدْ نَضَرُ﴾
 اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَلَاثِينَ إِذْ هَمَّ فِي الْغَارِ
 إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَجْنِ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ
 عَلَيْهِ وَأَنذَرُ الْيُحْذِرُ لَمْ يَزَلْ يَرْوِمَا وَجَحَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا
 السُّفْلَى وَلَكِنَّ اللَّهَ فِي الْعَالِيَاتِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٥﴾ ﴿

(صدق الله العظيم)

في السنة الثالثة عشرة للمبعث، كانت الهجرة التاريخية التي اختارها، بعد، ثاني الخلفاء الراشدين «عمر بن الخطاب» رضى الله عنه، بدايةً للتقويم الإسلامى.

تقديرًا لجلال الحدث الذي كان منطلق تحولٍ حاسمٍ وخطير، في تاريخ الإسلام. وعلى امتداد الزمان، يحتفل المسلمون حينها كانوا، بمستهل عام الهجرة، دون أن يفوتهم لمُح ما كان لها من أثر بعيد في حركة سير الدعوة الإسلامية، ودون أن يُخطئهم إدراكُ ما أعقب تلك الهجرة التاريخية من تغير في موازين القوى بين حزب الله، وبين الوثنية الباغية من فريش.

وإن فاتهم، أو فات كثيرًا منهم، وعى حركة التحول ذاتها، وأعوزهم فهمُ التفسير التاريخي لتلك الهجرة الفاصلة بين أخطر المرحلتين من عصر المبعث.

ولقد مضى عليها أكثر من ألفٍ وأربعمائة سنة، كلما بدأت السنة القمرية بهلال المحرم، تحركت أقلام تحيى الذكرى الخالدة، وسُدت أبصار وقلوب إلى خطوات المهاجر العظيم ما بين مكة وينرب، منذ خرج ﷺ من بيته في مكة ذات نهار - وفد بلغت محنة الاضطهاد أقصى مداها،

بعد ثلاث عشرة سنة من المبعث - فاتجه إلى بيت صاحبه الصديق أبي بكر، وأسرَّ إليه أن الله تعالى قد أذن له في الخروج والهجرة.

هتف الصديق: «الصحة يا رسول الله.. الصحة».

وبدأ التأهب لرحيل عاجل:

بعث أبو بكر يدعو «عبد الله بن أريقط» وكان دليلاً ثقةً، خبيراً بمجاهل الطريق، فدفع إليه براحلتين يرعاها لميعادٍ موقوت.

ودعا المصطفى ﷺ ابن عمه «علي بن أبي طالب» فاستخلفه بمكة ليؤدي عنه ودائع كانت للناس.

ثم لما حانت ساعة الرحيل، وقف ﷺ على مرتفع هناك ببيت صاحبه، فرنا إلى البيت العتيق طويلاً، ثم أشرف على أم القرى فاستوعبها بنظرة حزينة وقال مودعاً:

«والله إنك لأحب أرض الله إلى الله، وإنك لأحب أرض الله إلى ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت».

وتسلل الصحابان من خوخة في ظهر الدار، فأخذا طريقهما إلى غارٍ يعرفانه في جبل نورٍ بأسفل مكة، فأقاما فيه ينتظران ما يكون من أصداء الرحيل.

وجاء اليوم التالي يحمل إليهما في الغار، الأنباء عن خروج نفر من طواغيت قريش لمطاردة المصطفى عليه الصلاة والسلام، وفي الخبر أنهم بلغوا غار نور فتلبثوا عنده وهموا بأن يدخلوه، لولا أن صدهم عنه نسيج عنكبوت على مدخله، وحمامتان وحشيتان وقعتا عليه^(١).

قال الصديق للمصطفى ﷺ:

«لو أن أحدهم نظر إلى قدمه لرآنا».

فكان جوابه، ﷺ:

«لا تحزن إن الله معنا».

وفي هداة المساء من الليلة الثالثة لمقامهما في الغار، جاء الدليل يسوق الراحلتين حذراً، فأناخ قريباً من فتحته. وخرج المصطفى وصاحبه. وجاءت أسماء بنت أبي بكر بطعام لهما، فلما أعوزها

(١) تفصيل الهجرة، في الجزء الثاني من: السيرة الهشامية، وطبقات ابن سعد، وتاريخ الطبري.

عِصَامٌ تَشُدُّ بِهِ الزَادَ إِلَى الرَّحْلِ، حَلَّتْ نَظَاقَهَا فَشَقَّتْهُ نَصْفَيْنِ، عَلَقَتْ الزَادَ بِأَحَدِهَا وَانْتَضَقَتْ بِالشَّقِّ الْآخَرِ.

وسرى الركبُ في تلك الليلة التاريخية، آخذاً طريق الجنوب من أسفل مكة، وكان غيرَ مطروق.

وودَّعتُها «أسَاءُ» ذات النطاقين، نم تلبثت تُتبعها بصرها وقلبها حتى أبعدا، فعادت إلى بيت أبيها مستخفية حذرة، وهى توجس خيفة من المطاردين.

ولم تمض لحظات حتى فوجئت بطرقات عنيفة نُلح على باب الدار، وإذا نفر من فريش، فيهم أبو جهل بن هشام، يسألونها في غلظة:

«أين أبوك يا بنت أبي بكر؟»

أجابت: «لا أدري والله أين أبي».

وما كذبت، فقد كان آخر عهدا بأبيها مع المصطفى عليه الصلاة والسلام، منطلقين من الغار إلى حيث لا تدرى أين بلغ بها المسرى في مجاهل القلاء.

وفجأة، بغتتها لطمة فاحشة على خدّها، من يد أبي جهل، طرحت قرطها. وانصرف بمن معه، يتهددون ويتوعدون.

ومضت أيام وليالٍ لم يكن لمكة فيها شاغل، غير تلك المطاردة العنيفة، تعدو فيها قريش وراء مهاجر أعزل إلا من إيمانه.

وتضاربت الأنباء في الطريق التى أخذها -، حتى جاء الخبر من يترب أن النبى عليه الصلاة والسلام بلغ دار هجرته آمنا.

ووعت أذن الزمان ما لا نزال نردده في كل عيد للهجرة، من هتاف المدينة ترحيباً بالمهاجر العظيم ﷺ، وما وجد في دار هجرته من مامن ونصر...

وفي واقع التاريخ أن الهجرة لم تُنهِ الجولة الفاصلة بين الإسلام والذين تصدوا له بالعداوة والكيد والحرب.

وإنما كانت بدايةً لهذه الجولة الفاصلة،

بقدر ما كانت أنراً لما سبقها من أحداث، وتحركاً إلى موقع جديد، بعد جولة مريرة وطويلة، في البلد العتيق.

فإذا كان في الناس من يتصورون أن منافذ الخطر قد سُدت بمجرد انتقال المصطفى من دار مبعثته، وأن الإسلام صار بآمن من كيد أعدائه بمجرد أن تلفاه الأنصار في دار هجرته، فالذى يعرفه الواقع التاريخي أن الصدام المسلح بين الإسلام والوثنية القرشية لم يبدأ إلا بعد الهجرة، وبدأ معه في الوقت نفسه، نضال سناق بالغ الصعوبة والحرج، مع عصابات يهود النى تصدت للإسلام بعد الهجرة، بكل ما تملك من أسلحه خبيثة مأكرة.

والذى تعرفه السيرة النبوية، أن النبى ﷺ والذين آمنوا معه من المهاجرين والأنصار رضى الله عنهم، واجهوا مع الهجرة مرحلة خطيرة معقدة، كان عليهم فيها أن يخوضوا حرباً في أكثر من جبهة، وأن يستبسلوا في الجهاد تحت لواء عقيدتهم من حيث يأتيتها الخطر: من مواقع مكشوفة سافرة، وأخرى خفية مأكرة.

والتحول التاريخي لموقع المعركة، لا يمكن فهمه على الوجه السائب الذى يحسب أن الهجرة عزلت مكة عن مسرح الأحداث.

بل تظل مكة في صميم الصراع الدائر مهما ينتقل موقعه إلى شمال الحجاز. ويظل البيت العتيق مهوى أفئدة المهاجرين والأنصار في دار الهجرة، كما كان مثابة حج العرب من قديم العصور والآباد. وفي مكة كان مهد المصطفى ومبعثه.

وفيها مستقر الوثنية العربية من قديم موغل في القدم، ولم تكن الأرستقراطية القرشية التى ورثت وظائف الشرف الدينية في أم القرى وحققت بها نفوذها وسلطانها، مستعدة لأن تتخلى عن نضالها للإبقاء على الأوضاع الموروثة والأعراف الراسخة، والدفاع عن دين الأسلاف. وما تجنبت الصدام المسلح مع الإسلام في مكة، إلا رعاية لما للبلد العتيق من حرمة جعلته معبد القبائل العربية ومركز مواسمها التجارية.

كان في حسابها أن تواجه الخطر بالمفاوضة والمساومة، ثم بالإلحاح في إيذاء المسلمين وتعذيب المستضعفين منهم، وتحذير كل واغد إلى مكة في الموسم، من الإصغاء إلى ما يتلو محمد - ﷺ - من كتاب الإسلام.

نم كان الحصار المنهك وسيلةً أخرى من وسائلهم في مقاومة الدعوة، والترصد لمن يحاول الهجرة من المسلمين، ومطاردتهم حينها ذهبوا.

حتى كان عام الحزن، إيدانا بحتمية التماس منفذ من الأسوار التي سدّت الطريق. أحس المصطفى بموت زوجه السيدة خديجة وعمه أبي طالب، فراغَ مكانها في دنياه، إحساساً سديد الوطأة، حتى لتقول إحدى الصحابيات «خولة بنت حكيم السلمية» رضى الله عنها: «يا رسول الله، كأنى أراك قد دخلتكَ خُلةً لفقد خديجة».

ونقل عليه شعور بالغرابة، في بلده وبين أهله وعشيرته. لكن بيعة العقبة الكبرى هي التي وجهت مؤشر الأحداث نحو ينب، دون أن تتأى بمكة عن مكانها في مركز النقل لمصير التحول...

احتشدت يترب في انتظار المهاجر العظيم الذى لم يكن هناك أدنى سنك في وجهته، برغم ما ذاع من توغل المطاردين في طريق مكة إلى ينب، دون أن يظفروا بأنر منه. اليهود أرسلوا راصدهم يرقب مقدم النبي المهاجر، فأخذ مكانه على مشارف يترب. وغير بعيد منه كان المهاجرون والأنصار من أوس وخزرج، يخرجون كل صباح بعد الصلاة إلى ظاهر المدينة، فما يزالون ينتظرون حتى تغلبهم الشمس على الظلال فيعودوا إلى دورهم. واليهودى قائم هناك في مرصده لا يريم. وإذ هم يدخلون بيوتهم ذات يوم بعد أن لم يبق ظل، سمعوا اليهودى يصرخ بأعلى صوته: «يا بنى قيلة، هذا جدكم قد جاء».

وسرت البشرى في أنحاء دار الهجرة، فتعالى الهتاف من الأحياء العربية يشق أجواز الفضاء ترحيباً بالمهاجر العظيم...

صرخة اليهودى المعلنة بأعلى الصوت، عن وصول المصطفى إلى دار هجرته، زلزلت الأرض تحت يهود في مستعمراتهم الناشئة في شمال الحجاز: من حى بنى قينقاع في قلب يترب، إلى قريظه وخيبر وفدك وتيباء ووادي القرى. ورجَّ صداها حصون الأبلق والوطيح والسلام وناعم والقموص، وعشرات غيرها من

الحصون المنيعية والآطام العازلة التي «أقاموها على رؤوس الجبال والقلاع ليتحصنوا بها وقت الخطر»^(١).

وبدأ من اليوم الأول للهجرة، تأهبهم لدورهم الخبيث في مقاومة الإسلام. وقبل أن نمضى مع المصطفى عليه الصلاة والسلام في دار هجرته، نقف عند نقطة التحول لتندبر منطقة ونلمح أبعاده، دون إغفال فيها...

لم تكن الهجرة الأولى إلى الحبشة، ضناً بحياة ذلك الرهط من المسلمين الأولين، وإنما كانت هجرة في سبيل العقيدة بذلاً واحتمالاً، وسلاحاً شهروه في وجه الوثنية الغاشمة، لتدرك مدى ما يطيق المؤمنون احتماله من التضحية والبذل في سبيل ما آمنوا به.

وأما الهجرة التاريخية إلى يثرب، فلم تكن بذلاً واحتمالاً فحسب، بل كانت كذلك تحركاً إلى موقع خطير على حافة الحرب، فقد أذن الله في القتال للمسلمين الذين أوذوا وظلموا وأخرجوا من ديارهم، حتى إلا أن يقولوا ربنا الله.

وكان الإذن بالقتال، من حيث لم تتوقع قريش أو تحتسب. وقد مضى على المبعث بضع عشرة سنة ونبي الإسلام يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويواجه جبروت الوثنية بكلمات من وحى ربه، كانت على المدى الطويل سلاحه الذي يشهره في وجه الوثنية.

وقد أمنت قريش جانب المسلمين فيما تحرص عليه من تجنب الحرب في البلد الحرام، فلم يخطر لها على بال، أن نبي الإسلام يمكن أن يخوض بالقلة العزلاء من صحابته، معركة حربية مع الوثنية المعتزة بما لها من سلطان، مع قوة باطشة من العدد والسلاح.

من هنا أنكر سمعهم آيات الإذن للمسلمين في القتال، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون: أو يريد محمد أن يفرض عقيدته بالسيف؟ كأنه لم يتل من قبل، من كلمات ربه:

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا، إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا

مُؤْمِنِينَ؟

(١) السيرة: ١٣٧٢، وتاريخ الطبري: ٢٤٨٢. ووفاء الوفا للسهودي: ٢٤٤١ - وقابل عليها ما في (تاريخ اليهود في جزيرة العرب) لإسرائيل ولقنسون: ١٥٧، ١١١.

وفي أخذة المباغطة، فاتهم أن يدركوا مغزى الإذن للمسلمين في القتال: دفاعاً عن دينهم، وتقريراً لمبدأ الإسلام في حرية العقيدة، ودفاعاً عن حرمان لا يحل أن تنتهك، وانتصاراً للذين أودوا وأخرجوا من ديارهم بغير حق «إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ».

والزاماً بتكليف الجهاد في سبيل الحق والخير، في مواجهة الحسد الكاثر والقوى الباغية:

﴿أَذِّنْ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ يَأْتِيهِمْ ظُلُمًا وَإِنْ اللَّهُ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ
لَقَدِيرٌ﴾ ١٥٠ ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بغيرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا
رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ
السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو
بُرْهَانٍ﴾ ١٥١ ﴿وَلَقَدْ أَخْرَجْنَاكَ مِنَ بَيْتِكَ لِيُتَبَيَّنَ لَالِ
الْعَالَمِينَ﴾ ١٥٢ ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ ذِكْرُنَا فَأَنْبَتْ
النَّخْلَ وَجَعَلَ الْخُلَافَاءَ خَلْفَهُ﴾ ١٥٣ ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ ذِكْرُنَا
فَأَنْبَتِ النَّخْلَ وَجَعَلَ الْخُلَافَاءَ خَلْفَهُ﴾ ١٥٤ ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ
ذِكْرُنَا فَأَنْبَتِ النَّخْلَ وَجَعَلَ الْخُلَافَاءَ خَلْفَهُ﴾ ١٥٥ ﴿وَلَقَدْ
جَاءَكَ ذِكْرُنَا فَأَنْبَتِ النَّخْلَ وَجَعَلَ الْخُلَافَاءَ خَلْفَهُ﴾ ١٥٦
﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ ذِكْرُنَا فَأَنْبَتِ النَّخْلَ وَجَعَلَ الْخُلَافَاءَ
خَلْفَهُ﴾ ١٥٧ ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ ذِكْرُنَا فَأَنْبَتِ النَّخْلَ
وَجَعَلَ الْخُلَافَاءَ خَلْفَهُ﴾ ١٥٨ ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ ذِكْرُنَا
فَأَنْبَتِ النَّخْلَ وَجَعَلَ الْخُلَافَاءَ خَلْفَهُ﴾ ١٥٩ ﴿وَلَقَدْ
جَاءَكَ ذِكْرُنَا فَأَنْبَتِ النَّخْلَ وَجَعَلَ الْخُلَافَاءَ خَلْفَهُ﴾ ١٦٠

(صدق الله العظيم)

وهذه هي الجبهة الأولى التي كان على الإسلام أن يخوض معركة فيها إثر الهجرة. ضد الوثنية القرشية الباغية التي وعت منطق الهجرة أتم الوعي، فانكفأت بعد خيبة المطاردة الشرسة، تعبى قواها استعداداً للصدام. دون أن يتصور أحد من الفريقين أن الهجرة كانت نهاية مريحة للجولة المكية التي استغرقت ثلاث عشرة سنة، أجهدت المسلمين أذى وفتنة

واضطهاداً ومقاطعة وحصاراً، بقدر ما أجهدت قريشاً وأرقت لياليتها واستنفدت كل ما لديها من وسائل.

وهل كانت قريش بحيت تغمض عينها وتنام، وقد أعجزها، بكل عُتوها وجبروتها أن تنال من دعوة أذلت كبرياءها وسفّهت أحلامها وحقرت آلهتها؟

أو كانت بحيت تأمن على وجودها الجاهلى ودينها الموروث، وهذا النبى المهاجر قد أخذ موقعه الجديد فى عاصمة الشمال، يهدد طريقها التجارية إلى الشام، مصمماً على أن ينسخ برسائله دين قومه ويدكّ صروح وثنيّتهم، ومعه رجال مؤمنون اشتروا الآخرة بالدنيا، فهم يرون الموت فى سبيل عفديّتهم شهادة وحياة وانتصاراً؟

هيهات هيهات...

ولو تُرك القطا ليلاً لنام!

على أن هذه الجبهة لم تكن أخطر ولا أضرى من جبهة ثانية كانت تنتظر الإسلام فى دار هجرته.

يهود كانوا هناك، يرصدون مجرى الأحداث فى ذعر وقلق؛ لقد لبثوا طوال العهد المكى يتعلّقون بالأمل فى أن ينهك الصراع أهل مكة، مسلمين ومشرّكين، فيخلو ليهود الطريق إلى أم القرى، وفيها أسواق العرب التجارية الكبرى؛ عكاظ ومجّنة وذو المجاز...

لكن بيعة العقبة الكبرى خيبت هذا الرجاء، كما خيبت الهجرة أمّهم فى أن يبقى الإسلام محصوراً فى البلد العتيق، بعيداً عن شمال الحجاز.

ولم يبق لهم إلا أن يتربصوا بالإسلام ويكيدوا له، بكل ما وسعهم من خبث وشر ودهاء...

ثم كانت هناك جبهة ثالثة من المنافقين الذين ابتلى بهم الإسلام فى دار هجرته، ولقى المصطفى ﷺ من عنّتهم ونفاقهم وتخاذلهم، أسد مما لقى من طواغيت المشركين.

وكان رأس المنافقين فى المدينة: عبدالله بن أبى سلول، مولى يهود وحليف الشيطان.

ذلك هو منطق الهجرة: بذلاً واحتمالاً واستبسلاً، وتحركاً إلى موقع جديد خاض فيه المسلمون معركتهم فى الجبهات الثلاث، جهاداً بالنفس والمال، حتى جاء نصر الله والفتح...

استحدثت «يرب» بهجرة المصطفى إليها، اسماً إسلامياً جديداً هو «المدينة المنورة»: مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام.

وكان وصوله إليها قبيل الظهر من يوم الاثنين، وقد مضت انتنا عشرة ليلة من شهر ربيع الأول، في السنة الثالثة عشرة للمبعث.

وأقام في «قُبَاء» بظاهر المدينة، في بني عمرو بن عوف، أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، أسس فيها بقياء أول مسجد في الإسلام.

ثم ركب ناقته «القصواء» يوم الجمعة، وسط حشد من المهاجرين والأنصار، فأدركه صلاة الجمعة في حيّ بني عوف بن سالم، فصلّى بالصحابة أول جمعة بالمدينة المنورة.

وأرخص العنان لناقته وهى تشق أمواج الزحام، ولم يدّر أحد يومها أين يكون منزل المصطفى ﷺ، وكل بيوت المدينة مفتوحة له ترحب به، وإن لم يكن له ﷺ دار هناك.

وبدا الموقف صعباً:

كلما مرّ عليه الصلاة والسلام بحيّ من أحياء الأنصار بادر إليه الرجال يسألونه سرف النزول فيهم، وهو عليه الصلاة والسلام يتخرج من إيار حيّ على آخر أو دار على دار، فيقول معتذراً شاكرًا:

«خَلُّوا سَبِيلَ نَاقَتِي».

حتى إذا مرّ بحيّ بني عدى بن النجار، توقعوا أن يكون لهم من خثولتهم لأبيه عبدالله بن عبدالمطلب، حق الخطوة بالشرف الذى رنت إليه كل بيوت الأنصار.

هتفوا: «يا رسول الله، هلمّ إلى أخوالك، إلى العِدِّ والعُدَّة والمنعة».

وتلبث عليه الصلاة والسلام برهة يملأ عينيه من هذا الحى، ويسترجع ذكريات رحلته الأولى إلى يثرب، حين جاءت به أمه «آمنة بنت وهب» من مكة وهو فى السادسة من عمره، لتزيه قبر أبيه الثاوى هناك.

ونحطى بصره الجموع الزاخرة التى حفت بركابه، وتعلق بطيف أمه، مانلاً شاخصاً لا يغيب.

ومع الذكريات، طوي سبعة وأربعين عاماً من عمره، ليجد نفسه غلاماً غض الصبا، يعود مع أمه فى رحلة الإياب إلى أم القرى، ومعها «بركة أم أين» فما قطعوا بعض مراحل الطريق حتى

وَعِثْتُ أُمَّهُ، نَمِ أَسْلَمْتُ الرُّوحَ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي بَقْعَةٍ مُوَحَّشَةٍ مِنَ الْفَلَاةِ، بَيْنَ يَثْرِبَ وَمَكَّةَ.
 وَحَمَلْتُ «بَرَكَةَ» جِسْمَانِ «أَمْنَهُ» إِلَى قَرْيَةِ الْأَبْوَاءِ فَدَفَنُوهَا هُنَاكَ.
 وَاسْتَأْنَفَ الرِّحْلَةَ إِلَى مَكَّةَ وَاجِبًا صَامِتًا مُحْزُونًا مُضَاعَفَ الْيَتَمِ.
 وَمِنْ وَرَاءِ عَشْرَاتِ سَنِينَ أَتَاهُ صَدَى مِنْ حَشْرَجَةِ الْإِحْتِضَارِ الَّتِي رُوِّعَتْهُ فِي الْفَلَاةِ، مُخْتَلِطَةً
 بِهَيْتَافِ التَّرْحِيبِ وَأَنَاشِيدِ الْإِسْتِقْبَالِ.
 وَبَنُو النَّجَارِ يَكْرُرُونَ دَعْوَتَهُ:
 «هَلُمَّ إِلَى أَخْوَالِكَ...»
 قَالَ وَمَا يَزَالُ يَمْلَأُ عَيْنِيهِ مِنْ سَاحَةِ الْحَيِّ الَّتِي كَانَتْ مَلْعَبَ حَدَاتِهِ أَيَّامًا، مَعَ لِدَاتِهِ مِنْ صَبِيَّةٍ
 بَنَى النَّجَارَ:
 «خَلُّوا سَبِيلَ نَاقَتِي».
 إِلَى أَيْنَ إِذْنُ؟
 إِلَى حَيْثُ تَمُضِي بِهِ نَاقَتُهُ الْقَصْوَاءُ.
 وَفَدَّ خَطَّتْ وَثِيدًا تَشَقُّ الزَّحَامُ حَتَّى تَوْقَفَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ، وَبَرَكَتْ فِي مَرَبَدٍ هُنَاكَ لِسَهْلٍ وَسَهِيلٍ،
 ابْنَى عَمْرُو...
 فَحَطَّ الْمَهَاجِرُ رَحْلَهُ، وَقَامَ يَصِلَى...

على ساحة المربد الذى بركت فيه «القصواء» حين دخل المصطفى دار هجرته،
أمر عليه الصلاة والسلام أن يُبنى هناك مسجده، تانى الحَرَمين ومزارُ المسلمين على مر السنين
والدهور.

وتنافس المهاجرون والأنصار فى بنائه بما تيسر من مواد البناء: اللبن والجريد والليف،
وبعض الحجارة والخشب.

والمصطفى ﷺ معهم، يشارك ويوجه ويعين.
وقد يمد يده فينفض الغبار عن لحى بعض صحابته، داعياً للمهاجرين منهم والأنصار،
فيرددون دعاءه مرتجزين:

لا عيش إلا عيشُ الآخره
اللهم ارحم الأنصارَ والمهاجره

ولم يستغرق البناء أكثر من أيام معدودات. ومن حول المسجد بُنيت تسع حجرات تفتح على
ساحته، لتكون دار المصطفى المهاجر.

وكان مبنى المسجد والحجرات متواضعاً: بعضه من حجارة مرصوة، وبعضه من جريد
يمسكه الطين. والسقف كله من جريد.

ذكره سبط المصطفى عليه الصلاة والسلام: «الحسنُ بن على بن أبى طالب» فقال:
«كنت أدخل بيوت النبى ﷺ وأنا غلام مراهق، فأنال السقف بيدى».
وَشُدَّتْ خَشَبَاتُ بالليف، فكانت سريراً لمن اصطفاه الله تعالى خاتماً لرسله الأنبياء.

وغير بعيد من المدينة والحجاز، كانت قصور الحكام والأمراء والأغنياء، فى الحبرة وغسان
واليمن، وفى فارس ومصر والحبشة، تعلو سامقة شامخة، ساطعة ببريق البذخ والترف، فتخطف
أبصار الدنيا عن ذلك المبنى المتواضع الذى لم يلبث سنًا جلاله أن كسف كل ما عرفت الدنيا
من قصور لكسرى وقيصر وفرعون، أو نجاشى وملك وإمبراطور...

وفي الأحياء اليهودية الناشئة في المدينة وما حولها من مستعمراتهم شمالاً إلى الحجاز، دورٌ
مسيّدة وحصون منيعة، تطل على المبنى المتواضع لنبي الإسلام، فيبدو لها فقيراً أسد الفقر.
ويلتقط أهلها ما يتلو المصطفى من كلمات ربه في الحث على الإنفاق في سبيل الخير، قرضاً
لله تعالى، فتذيع قائلتهم الفاحشة:
«إنَّ اللهَ فقيرٌ ونحنُ أغنياءُ»!

في تلك الأيام الأولى بدار الهجرة، نزل المصطفى ﷺ بدارٍ صاحبه «أبي أيوب الأنصاري»
ريثاً تم بناء المسجد والحجرات حوله.
وأما صحابته المهاجرون، فنزلوا على الأنصار من الأوس والخزرج، وقد آخى ﷺ بينهم.
واختار ﷺ ابنَ عمه «علي بن أبي طالب» فجعله أخاه.
وهكذا ذهب كل أنصاري بأخ له من المهاجرين، وذهب علي بن أبي طالب بالمصطفى أخاً.
وَدُونَ عهد المواخاة في كتاب النبي ﷺ إلى أهل المدينة، مقدمه إليها.
وأغلقت دور المهاجرين بمكة.
وتركت مهجورة موحشة خلاء...

بعد أن تم بناء بيت المصطفى في دار هجرته، بدت الحاجة إلى زوج تملأ هذا البيت، وتهيئ
للمصطفى سكناً وراحة، فيما يواجه من أعباء الرسالة في مرحلتها الحرجة الصعبة.
وكانت «عائشة بنت أبي بكر» قد لحقت بأبيها في المدينة مهاجرة. وقبل الهجرة بثلاث
سنين، كان المصطفى ﷺ قد عقد عليها بمكة، ثم تمهل لم ينقلها إلى بيته هناك، إذ كانت ظروفها
كليهما، لا تعين على التعجيل بإتمام الزواج.
وقد سبقتها إلى بيت المصطفى في المدينة، أم المؤمنين «سودة بنت زمعة بن قيس بن
عبد شمس» التي مات عنها زوجها «السكران بن عمرو» إثر عودتها من هجرة الحبشة،
فأشفق عليها المصطفى ﷺ، وتزوجها ليحمل عبثها الذي لقيت من غربة وترمل...^(١).

(١) تراجم أمهات المؤمنين رضى الله عنهن معصلة في (طبقات الصحابة) ومعها كتابي (نساء النبي ﷺ) (طبعات دار
المعارف).

وقنعت «سودة» بحظها من زوجها المصطفى ﷺ: من بر ورحة، ورعايه وسكن.
وأرضاها كل الرضى أن يشرفها النبي عليه الصلاة والسلام فيدخلها بيته أمًا للمؤمنين.
وبقيت حياة محمد ﷺ في بيته، تقعات من ذكريات الزوج الحبيبة الراحلة «خديجة بنت
خويلد» التي أوحشت دنياه منذ رحيلها، في عام الحزن، بعد أنس عشرة هنيئة امتدت خمسًا
وعشرين سنة، لم تشاركها فيها زوج أخرى في بيت زوجها، أو في قلبه ودنياه...
وتهيأ مجتمع المدينة ليزف إلى محمد ﷺ، عروسه الصبيه الملبحة الذكية «عائشة بنت أبي بكر»
وتعلق بها الأمل أن تملأ في بيته وقلبه، ذلك الفراغ الموحش الذي تركته أم المؤمنين الأولى.
وتم حفل العرس متواضعًا غاية التواضع:

مضى محمد، ﷺ، إلى منزل صهره الصديق، فجاءت «أم رومان: زوج أبي بكر» بابنتها
العروس بعد أن سوّت شعرها وغسلت وجهها وطبّبتها، وقدمتها إلى زوجها المصطفى ﷺ وهي
تدعو الله أن يبارك له فيها ويبارك لها فيه.

ولم تُنحر جَزور ولا دُبُحت شاة، بل كان طعام العرس جفنةً من طعام، هدية من «سعد بن
عبادة الخزرجي الأنصاري» وقدحًا من لبن، شرب المصطفى ﷺ بعضه ثم قدمه إلى عروسه
فشربت منه.

ونقلها إلى بيتها الجديد، وما كان هذا البيت سوى حجرة من الحجرات المتواضعة التي
تبيدت حول المسجد النبوي من اللين والجريد. وأثاثه فراش من آدم حسوه ليف، ليس بينه
وبين الأرض إلا الحصير، وفي مدخل الحجرة، أسدل على فتحة الباب ستار من وبرٍ وسعر...
وفي هذا البيت المتواضع، بدأت «عائشة» حياتها الزوجية الحافلة، وشغلت مكانها المرموق في
حياة الرسول والإسلام.

ولم يكن وجود «سودة» على مقربة منها، في بيت الزوج الذي أحبته عائشة بقلبيها البكر
ووجدانها المرهف وعاطفتها المتوهجة، يشغل بالها في كثير أو قليل، فما غاب عنها أن ليس
لسودة في قلب زوجها مكان.

وإنما الذي كان يشغل عائشة، هو ذلك الحب العميق الذي حظيت به «خديجة» قبلها من
الزوج المصطفى ﷺ، وتلك الذكرى الحية لمن استأثرت بكل عواطفه ربع قرن من الزمان.
والزوج الحبيب يروض عائشة على أن ترضى منه بحظوتها لديه، ومنزلتها في قلبه وفي حباته.

هل كانت «عائشة» طفلة، كما يحلو لبعض المستشرقين أن ينعتهوا، وهم يقيسون نضج المرأة في المجتمع العربي منذ خمسة عشر قرناً، بمقاييس المجتمع الغربي في عصرنا؟
الذي يعرفه تاريخنا، هو أن عائشة في صباها الغض وأنوثتها الذكية، بدأت من اليوم الأول لحياتها الزوجية، تحقق وجودها في بيتها الجديد وتعنى دورها الفذ في حياة زوجها الرسول عليه الصلاة والسلام، وتفرض شخصيتها على المجتمع المدني، ثم على التاريخ الإسلامي الذي عرف لها أعمق الأثر في الحياة الفقهية والسياسية والاجتماعية للأمة الإسلامية...

* * *

هل نسي المهاجرون وطنهم الأول في البلد العتيق، مهد مولدهم ومغنى صباهم ومثوى آبائهم من قديم الزمان؟

هل انقطع ما بينهم وبين أم القرى، وطووا ما كان لهم فيها من ذكريات؟
كلا! بل بقيت مكة مهوى أفئدتهم مثلما هى مهوى أفئدة الأنصار وسائر العرب.
وما كان الفراق سهلاً، ولا كان في المهاجرين من ودّعها إلا وقلبه مثقل بالشجن. وكأنما كان المصطفى ﷺ يعبر عما يجدون، حين وقف ساعة خروجه للهجرة يستوعب مكة بنظرة حزينة ويقول مودعاً:

«والله إنك لأحِبُّ أرض الله إلى الله، وإنك لأحِبُّ أرض الله إلىَّ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت».

ورغم ما حفلت به الأيام الأولى في دار الهجرة، من مراسم الترحيب والإخاء وشواغل التنظيم للمجتمع الإسلامى الجديد، كانت وطأة الحنين ترهق أكثرهم فترهف حساسيتهم لتغير المناخ

والم بكتير منهم سقم، وأجهدتهم الحمى، وفي هذيان الحمى كان المطوئ من أنسواقهم ومكبوت حنينهم، يتنفس مُفْلِتاً من أعماق أفئدتهم، إلى ألسنتهم.
تتحدث أم المؤمنين السيدة «عائشة بنت أبى بكر» رضى الله عنها عن أول عهدهم بالمدينة فتقول:

«كان أبو بكر وعامر بن فهيرة وبلال، في بيت واحد.
فأصابتهم الحمى فدخلت عليهم أعودهم، وذلك قبل أن يُضْرَبَ علينا الحجاب، وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدة الوعك، فدنوت من أبى فقلت له:
- كيف تجدك يا أبتى؟
فردّ مرتجراً:

كل امرئ مُصَبِّحٌ في أهله
والموت أدنى من شراك نعله

فقلت: والله ما يدري أبى ما يقول.

ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة فقلت له:

- كيف تجدك يا عامر؟ فردَّ منشدا:

لقد وجدتُ الموتَ قبل ذَوْقِهِ
إنَّ الجبانَ حتْفُهُ من فوقِهِ

قلت: والله ما يدري عامر ما يقول...

وكان بلال إذا تركته الحمى، اضطجع بفناء البيت ثم رفع عقيرته، يذكر مكة وربوعها:

ألا ليت شعري هل أبيتُ ليلةً بِفَخٍّ وحولٍ إِذْخَرُ وجليلُ
وهل أُرْدَنُ يوما مياهًا بِحَنَةٍ وهل تبدُّون لي شامةً وطفيلُ

فذكرتُ لرسول الله ﷺ ما سمعت منهم فقلت:

- إنهم ليَهْذون وما يعقلون من شدة الحمى.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

«اللهم حَبِّبْ إلينا المدينةَ كما حَبِبتَ إلينا مكةَ أو أَسَدٌ»^(١).

ويح المشركين من أهل مكة، ضلوا وظلموا، واشتطوا في عُتوهم وعنادهم وبغيهم، وأسرفوا على من أسلموا منهم.

وبقيت مكة مهوى الأفئدة:

لم يسْلُ عنها مَنْ هاجروا منها بدبتهم، ولم يَغْضُ من شأنها عُتو الوثنية الطاغية.

وإن مكة لمهدُ النبوة ودار المبعث، ومثابة حِجِّ العرب من عهد إبراهيم وإسماعيل عليها السلام.

(١) نصه، عن ابن إسحاق، من السيرة النبوية روايه ابن هشام: ٢/٢٣٣ ط الحلي.

أبعاد الموقف في ميدان الصراع

﴿ * لَنُبَلِّغَنَّكُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا
وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ ﴿١٦﴾
(صدق الله العظيم)

في حساب التاريخ أن المواجهة الأولى بين الإسلام والونية في مكة، تختلف تمامًا عما يواجهه في المدينة من معركة معقدة بينه وبين أعدائه، في ميدان ذي جبهات ثلاث، يلقي فيه حشود قريش في صدام مسلح، وعصابات يهود في أوكارهم الخطرة، وجيوب المنافقين الذين حالفوا الشيطان..

وتتداخل هذه الجبهات زمانًا ومكانًا، فيزداد الموقف تعقيدًا وصعوبةً وحرَجًا، من حيث لا يستطيع المؤمنون أن يتفرغوا للجهاد في إحدى الجبهات ثم ينتقلوا إلى أخرى منها، فيكون الأمر عليهم أخف عبئًا وأيسر مشقةً.

وكذلك يشق علينا، فيما نحاول من متابعة المسير مع المصطفى ﷺ في داز هجرته، أن نمضي مع الأحداث من موقع إلى آخر في ميدان المعركة الكبرى المعقدة، بمعزل عن غيره من المواقع. ويمكن القول مع ذلك إن الجبهة اليهودية بدأت تشحذ أسلحتها المسمومة لحرب الإسلام، من أول يوم للهجرة.

بينما تأخر الصدام المسلح مع الوثنية القرشية، ريثما يتحدد مجاله ما بين مكة والمدينة، ويتم البأهب له والاحتشاد، فلم يبدأ إلا في السنة الثانية للهجرة.

وكذلك تأخر ظهور الجيوب الخطرة للمنافقين، ريثما سرى فيها سُم الشيطان بطيئًا خفيًا لم يكذ يُلحظ إلا بعد أن ضَرَى واستسرى، يهدد الوجود الإسلامي في أخرج المواقف.

ذلك كله مما كان يدخل في حساب التاريخ، حين بدا في ظاهر الأمر أن مكة وحدها هي مركز الخطر على الإسلام، وأن له في يثرب مأمناً من كل خطر.

فلنمض مع الأحداث إلى حيث نرقب منطق الحرب في الجبهة اليهودية التي لم تطق الصبر على الإسلام منذ تحول إلى دار الهجرة، بل أخذت زمام المبادرة إلى الكيد له، من اليوم الأول. وقد اقتضت طبيعة الجبهة، أن يأخذ الصراع فيها جولتين. أولاهما إثر الهجرة، بكل سلاح يهودي إلا الحرب والقتال. والآخرى بعد بدرٍ وأُحُدٍ والخندق، حيث فرض الوضع المواجهة بالسلاح في حرب مُعلنة. ومن الجولة الأولى، ينكشف موضع جديد للخطر، لافتاً إلى موقع في الميدان لم يكن له حساب في العهد المكي قبل الهجرة.

لم يكن قد مضى على المصطفى ﷺ في دار هجرته يوم وبعض يوم، حين انكمش يهود في دورهم وبجامعهم يرصدون أبعاد الموقف الطارئ، ويحسبون ألف حساب لما وراءه من تهديد لوجودهم المقتصب هناك.

أقرب الخطر أن ألف بين قلوب عرب المدينة من أوس وخزرج، وأطفأ ما أوقد يهود بينها من نار العداوة والبغضاء.

وراءه أن ينير الإسلام بصائر العرب الأميين ويعلمهم الكتاب والحكمة، فينكشف لهم ما عقى يهود من الدين الموسوى وحرفوا من التوراة، وقتلوا من أنبياء، واقترفوا من جرائم وحسية أرققت البشرية على اختلاف الأجناس والأزمان.

من أول يوم للهجرة، بدأ قلقهم وكيدهم.

وفي بيت زعيمهم «حُيَّ بن أخطب» كانت العصابة في سغل تشاغل بهذا المهاجر الذي صرخ راصدهم معلناً عن قدومه، فاحتشد عرب يثرب لاستقباله.

وبدا لابن أخطب أن يتسلل هو وأخوه «أبو ياسر» في غلس الفجر، ليتحققا من شخصية هذا النبي العربي، ويستوثقا من أمره في ضوء ما أعطت التوراه من ملامح النبوة.

وكانت «صفية بنت حُيَّ» هناك، صبية مدللة ما تزال في بيت أبيها، لم تر النبي العربي بعد.

قالت بعد أن أسلمت ودخلت بيت المصطفى ﷺ، تسترجع ذكرياتها عن يوم الهجرة.

«كنت أحبّ ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقها قط مع ولدهما إلا أخذاني دونه، فلما قدم رسول الله ﷺ، المدينة، غدا عليه أبي وعمي مغلسين بين الفجر والصبح، فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، فأتيا متعبين ساقطين يشيان الهويى، فهتست إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت واحد منهما إليّ، مع ما بهما من الغم.

وسمعت عمي أبا ياسر، وهو يقول لأبي:

- أهو هو؟

قال: نعم، إنه هو.

سأله عمي: أتعرفه وتُشبهته؟

قال: نعم أعرفه.

وسأل عمى: فما في نفسك منه؟
وردّ أبى: عداوته ما بقيتُ»^(١)

وكأنما كانت كلمته، أول يوم للهجرة، إيذاناً بفتح جبهة جديدة، أخطر وأضرى من الجبهة المكشوفة مع المشركين من قرينس.

موادعة يهود:

كان همُّ يهود، أن يوادعهم الإسلام ريثما يفيقون من صدمة الهجره، ويتدبرون وسيلة الخلاص من هذا الدين الذى لا يمكن أن يسالموه.

وتعلق أملهم فى الموادعة، بأنهم فى ظاهر أمرهم أهل كتاب وأتباع نبي مُرسل. والفرآن فيما سمعوا من آياته، يقرر أنه مصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل، مقر بنبوّة عيسى وموسى ويعقوب وإسحاق وإبراهيم وسائر الأنبياء لا يفرق بين أحد منهم.

وفى خبت ومسكنة، تقدموا يرحبون بالنبي المهاجر ويسألونه الموادعة والأمان، وله عليهم أن يكونوا مع أهل المدينة ضد أى عدوان عليها من ونىي مكة.

وكان الضمان، ما ليهود فى المنطقة من مستعمرات غنية وتجارة رابحة وحصون مشحونة بالأموال والسلاح، فهم أحرص الناس على سلام المدينة وأمن المنطقة.

وأعطاهم المصطفى ﷺ عهده بالموادعة والأمان على أموالهم وأنفسهم وحرية عقيدتهم، مسجلاً فى كتابه إلى أهل المدينة إثر مَفِدَمِهِ إليها عليه الصلاة والسلام.

ومما جاء فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قرينس ويثرب - المهاجرين والأنصار - ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة...»

«وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وأن المؤمنين على من بغى منهم أو ابغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن المؤمنين أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمناً فى كافر ولا ينصر كافراً على مؤمن.

(١) السهمودى . وفاء الوفا: ٢٧٠/١. والسيرة الهنامية: ١٦٥/١٢.

«وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أديانهم، وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس. وإن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم...»

«وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وإنه لا يجير مشرك - من أهل المدينة وما حولها - مالا لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن. وإنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولى المقتول. وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه. «وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدثاً ولا يؤويه^(١)، وإنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيمة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شىء فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد ﷺ. «وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين. لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يوتغ - يهلك - إلا نفسه وأهل بيته.

وإن جفنة - بطن من بنى ثعلبة - كأنفسهم...

وإن لبنى السطبية مثل ما ليهود بنى عوف، وإن البر دون الإثم. وإن موالى ثعلبة كأنفسهم، وإن بطانة يهود كأنفسهم...

«وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم. وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وإنه لم يأنم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يترى حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تُجار حرمة إلا بإذن أهلها.

«وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مردّه إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ.

«وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره.

«وإنه لا تُجار قريش ولا من نصرها.

(١) المحدث: من أحدث فى الإسلام بدعة أو ضلالة أو فتنة.

«وإن بينهم النصر على من دهم يشرب، وإذا دُعوا إلى صلح يصلحونه ويلبسونه فإنهم يصلحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دُعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين، إلا من حارب في الدين. على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.»
«وإن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة.

«وإن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم. وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو آثم، وإن الله جار لمن برّ واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ»^(١).

والصحيفة وثيقة تاريخية شاهدة على استجابة نبي الإسلام ﷺ لما طلب يهود من موادة وأمان وحلف وجوار، وعلى احترام الإسلام حريتهم في العقيدة، لهم دينهم وللمسلمين دينهم، وتأمينهم على أموالهم وأنفسهم ومواليهم وبطانتهم، إلا أن يأنموا ويظلموا، ويخونوا العهد فيظاهروا عدواً على أهل المدينة من المهاجرين والأنصار.

بقدر ما هي شاهدة على أبعاد الجبهة اليهودية، ومدى تغلغلهم في يشرب. ولم تذكر مع ذلك غير البطون الناشبة في أحياء العرب هناك، والمعدودة من مواليها. دون تعرض للمستعمرات اليهودية الناشئة في خيبر وبنى النضير وبنى قريظة، وتبهاء وفدك ووادي القرى...

بل لم تذكر كذلك الأحياء الخاصة بهم في صميم المدينة، مثل حي بنى قينقاع...
فلنتابع الأحداث...

(١) السيرة لابن هشام: ١٤٩/٢ وتاريخ الطبري: السنة الأولى للهجرة، وعيون الأثر من طريق ابن اسحاق. وانظره في (كتاب الأموال لأبن عبيد القاسم بن سلام). و(كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهل المدينة وموادة يهود) كان موضوع رسالة أنجزها بإشراف «الأستاذ خليفة المحفوظي» لدبلوم الدراسات الإسلامية العليا، من دار الحديث الحسنية بالرباط جامعة القرويين.

المدينة التي فتحت قلبها للمهاجر العظيم وبايعته على الإسلام والنصرة والبذل، كانت تتوجس الشر من عصابات يهود التي مزقت الوجود العربي هناك قبل الإسلام. وبنو قيلة، الأوس والخزرج، الذين فتحوا دورهم لإخوانهم المهاجرين من مكة، كانوا في ضيق بنفر من أشرف المدينة، ترددوا في الترحيب بهذه الهجرة التي غيرت الأوضاع وحولت مجرى الأحداث. ثم تابعوا قومهم على الإسلام، بعد تردد وارتياب، دون أن يدخل الإيمان في قلوبهم.

وعلى رأس المنافقين عبد الله بن أبي ابن سلول الخزرجي، حليف اليهود من يوم بعث. لقد افتدى نفسه وماله بدفع رهائن اليهود إليهم، حين هجموا بعد انتصار الأوس، على دور الخزرج يذبحون وينهبون...

ومن يومها صار حليفهم الذي يدين لهم بحياته، ويجدون فيه حليفاً يسخرونه في قضاء مآربهم، حتى فكروا في أن يتوجوه ملكاً على يثرب، وعكف بعض صناعتهم في حيا الصاغة اليهودي، على إعداد تاج لهذا المولى الحليف. وجاءت الهجرة فبددت أمله وأملهم، وشحنت نفسه حسرة على تاجه المسلوب.

* * *

ذات صباح، من الأيام الأولى للهجرة، ركب المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى بيت صاحبه «سعد بن عباد الخزرجي الأنصاري» رضى الله عنه يعوده من مرض ألم به. وفي طريقه إلى بيت سعد، مرَّ بعيد الله بن أبي، في مجلس له وحوله رجال من أهله، فكره عليه الصلاة والسلام أن يجاوز المجلس دون أن ينزل، فنزل وسلم على القوم، ثم جلس قليلاً فتلا آيات من القرآن الكريم، وذَكَرَ بالله وحذر، وبَشَّرَ وأنذر.

وابن أبي ابن سلول، صامت واجم.

حتى إذا فرغ المصطفى مما أراد أن يقول، بادره «ابن أبي» قائلاً في جفوة وغلظة:
- يا هذا، إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقاً، فاجلس في بيتك فمن جاءك فحدّثه إياه، ومن لم يأتك فلا تَقْسُنه في مجلسه بما يكره منه!

ولم يدعه الأنصار يتم قولته المنكرة الفاحشة، وانتفض الشاعر الأنصارى الخزرجى
«عبدالله بن رواحة» رضى الله عنه يعقب على كلام ابن أبي، متحدياً:
- بلى يا رسول الله، فاعْتَسْنَا بِحَدِيثِكَ وَائْتِنَا فِي مَجَالِسِنَا وَدُورِنَا وَبُيُوتِنَا، فهو والله مما نُحِبُّ،
ومما أَكْرَمَنَا اللهُ به وهدانا له.

وغضَّ ابن أبي ابن سلول من بصره وهو يتمثل بقول «خُفَاف بن نَدْبَةَ السُّلَمَى»:
مَتَى مَا يَكُنْ مَوْلَاكَ خَصَمَّكَ لَا تَزُلْ تَذُلُّ وَيَصْرَعُكَ الَّذِينَ تَصَارِعُ
وَهَلْ يَنْهَضُ الْبَازِي بِغَيْرِ جَنَاحِهِ وَإِنْ جُدَّ يَوْمًا رِيْشُهُ فَهُوَ وَاقِعُ

وقام المصطفى ﷺ فتابع سيره حتى دخل على صاحبه «سعد بن عباد» وفي وجهه -
ﷺ - ملامح ضيقٍ لما سمع من ابن أبي بن سلول.
سأل سعد: «والله يا رسول الله إني لأرى في وجهك شيئاً، لكأنك سمعت شيئاً تكرهه».
فأخبره ﷺ بما كان.

وقال سعد: «يا رسول الله، أرفق به فوالله لقد جاءنا الله بك وإنا لننظم الخرز لنُتَوَّجَهُ.
فوالله إنه ليرى أنَّ قد سلبته مُلْكاً»^(١).

* * *

(١) السيرة النبوية الهاشمية ٢/٢٣٧.

لم يكد اليهود يطمنون إلى موادة نبي الإسلام إياهم، حتى عادوا إلى أوكارهم يدبرون لحرب الإسلام في معركة غير مكشوفة، يتقون بها المواجهة المعلنة. وكان أقسى ما غاظهم من هذا الإسلام، أن أطفأ نار العداوة والبغضاء بين عرب المدينة، الأوس والخزرج، بعد أن سهرت أجيال من السلالة اليهودية على إضرارها بوقود من الدس والفتنة والتواطؤ..

فهل يمكن إيقاظ الفتنة بين الأوس والخزرج، وإهاجة الشر بينهم بعد أن حسمه الإسلام ونسخ نارَاتٍ لهم وأحقاداً تراكت على مدى خمسة فرون قبل المبعث؟ لا بأس من المحاولة، على أن تبدو حادثاً فردياً عارضاً، لا يحمل اليهود إنمه. روى ابن إسحاق والطبري، في أحداث السنة الأولى للهجرة:

«مرَّ شاس بن قيس - وكان شيخاً عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين والحسد لهم - على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ، من الأوس والخزرج، في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذاتِ بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية. فقال، يحدث نفسه أو قومه:

- قد اجتمع مَلَأُ بنى قَيْلَةَ بهذه البلاد، وما لنا إذا اجتمع أمرهم من قرار!

ثم أمر فتى شاباً من يهود كان معه، فقال:

- اعمدْ إليهم فاجلس معهم، ثم اذكر يومَ بُعثَ وما كان قبله من حروب بينهم، وأنسدهم بعض ما تناولوا فيه من أشعار».

ففعل الساب اليهودي ما أمره به شيخه، فتكلم القومُ عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا، حتى تواتب رجالان من الحيين وقال أحدهما لصاحبه:

- إن سننتم رددناها الآن جذعة.

فغضب الفريقان جميعاً وصاحوا:

- قد فَعَلْنَا.

وتواعدوا على أن يلتقوا في يومهم ذاك، بموضع «الحرة» واندفعوا في دروب المدينة بتداعون إلى الحرب وهم يتصايحون: السلاح السلاح..

وجئت دار الهجرة وهي تسمع صيحة الحرب. وجاء المصطفى ﷺ في جمع من صحابته، فأدرك القوم في «الحرّة» وقد همّوا بقتال، فقال ﷺ:

«يا معشر المسلمين، الله! أبْدَعُوا الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن هداكم الله للإسلام وقطع عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر، وألف بين قلوبكم»؟

ونفذ صوت المصطفى ﷺ من مسامعهم إلى أفئدتهم وضمايرهم وعقولهم، «وعرفوا أنها مكيدة عدوهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً».

وبطل سُم هذه الفتنة وخاب كيد يهود.

والمصطفى ﷺ يتلو من آيات «آل عمران» نانية السور التي نزلت بالمدينة بعد الهجرة:

﴿..... قُلْ يَا أَهْلَ

الْكِتَابِ لِمَ تَصَدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبِعُونَهَا

عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ۖ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا قَرِيبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا

الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ ءِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ

تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ وَفِيكُمْ

رَسُولُهُ ۖ وَمَن يُعَصِّم بِإِلَهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ

مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَأَعِصُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَادْكُرُوا

نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ

فَاصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرٍ مِّنَ النَّارِ

فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۚ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ

تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلَتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ
الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

(صدق الله العظيم)

وخشع المؤمنون لآيات ربهم،
وانكمشت العصاة الملعونة تفتش في جعبتها عن سهام أخرى يمكن أن تصيب من حيث
ارتد سهم الفتنة هذه المرة إلى صدورهم، يوجب ما انطوت عليه من ضغينة وغدر وحقد.
على أن تبدو المكيدة حادثة فردياً عارضاً، لا يحمل اليهود كلهم إنهم..

في أوكار يهود الناشبة في دار الهجرة وما حولها، تمت تعبئة الأخبار ليكيدوا للإسلام كيذاً،
دون أن يواجهوه بحرب معلنة:
يتظاهر نفر منهم بالإسلام، ثم يندسون بين الصحابة في صميم المجتمع الإسلامي بالمدينة،
ليبدروا بذور الشر التي تؤق أكلها الخبيث على المدى الطويل، ويُسربوا ضعاف النفوس من
بنى قبيلة سُم النفاق، واثقين من نتيجته وإن يكن بطيء الأثر.
وآخرون منهم يتصدون لمجادلة نبي الإسلام، التماساً للعلم في ظاهر الأمر، وقصدًا إلى
إحراجهِ، وإعناته!

جاء نفر منهم، وهو ﷺ في مجلسه مع صحابته، فقالوا: (١)
- يا محمد. أخبرنا عن أربع نسألك عنهم، فإن فعلت ذلك اتبعناك وصدقناك.
سألهم عليه الصلاة والسلام: ما هي؟

قال كبير منهم:
- أخبرنا كيف يشبه الولد أمه وإنما النطفة من الرجل؟
- وأخبرنا كيف نومك؟
- وماذا حرم إسرائيل على نفسه؟

(١) تجد نصوص أسئلتهم والرد عليها في (السيرة الهشامية) ٩١/٢ وما بعدها.

- وأخبرنا عن الروح.
- وجاءه «أبو صلوبا الفيطوني» فقال:
- يا محمد، ما جئتنا بشيءٍ نعرفه - من دلائل النبوة - وما أنزل الله عليك من آية فنتبعك لها.
وعقب «ابن حريملة» فاقترح على المصطفى مثل ما اقترحه عليه المشركون من قريس.
قال:

- يا محمد. إن كنت رسولاً من الله كما تقول، فقل له فليكلما حتى نسمع كلامه.
وأضاف آخر مقترحاً:

- يا محمد، ائتنا بكتاب تنزله علينا السماء نقرؤه، وإلا جئناك بمثل ما أتينا به!
تلا المصطفى من وحى ربه:

﴿..... وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ۚ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهْتُمْ بِمَا كُنْتُمْ تُدْعَوْنَ إِلَيْهِ أَلَيَّتِ الْقَوْمُ يُؤْفُونَ ﴿١٨﴾﴾

وجاءه «جبل بن أبي قشيرة، وشمويل بن زيد» فقالا:
- يا محمد، أخبرنا متى تقوم الساعة إن كنت نبياً كما تقول.
ولم يجب الرسول ﷺ بغير ما نزل عليه من كلمات ربه:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِئُهَا لِوَفْعِكِ إِلَّا أَمْرٌ تُفْئِكَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَافٍ عَلَيْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾﴾

وجاءه ﷺ، جمع منهم، فيهم «ابن أبي عزيز، وسلام بن مشكم، وابن أضاء فسألوا:
- أحق يا محمد أن هذا الذي جئت به لحق من عند الله، فإننا لا نراه متسقاً كما تتسق التوراة؟

وأضاف «فنحاص، وابن سوريا، وابن صلويا، وشمويل بن زيد».
 - يا محمد، أما يُعلمك هذا إنسٌ ولاجنٌ؟ ورد عليه الصلاة والسلام:
 «أما والله إنكم لتعرفون أنه الحق من عند الله... ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا
 بمثله، ما جاءوا به».

وكررُوا سؤالهم عن ذى القرنين وأهل الكهف، وكانوا قد اقترحوا على مسركى قريش أن
 يسألوه عن «خبر فتية كان لهم حديث عجب، وعن رجل طواف في الأرض ما شأنه؟».
 وأجاب ﷺ، بمنل ما أجاب به قريشاً، مما تلقى من آيات سورة الكهف في العهد المكى.
 وأتى رهطٌ منهم رسولَ الله ﷺ فسألوه معنيتين:
 - يا محمد، هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟
 فغضب النبي عليه الصلاة والسلام حتى تغير لونه، وهم بهم يريد أن يبطش بهم غضباً لله
 سبحانه، لكنه تمالك غضبه وراح يتلو:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾

وغيرهم حلمه ﷺ، فمضوا في جدلهم الوقح:
 - فصف لنا يا محمد كيف خلقه - تعالى -؟ كيف ذراعُه وكيف عضدُه؟
 عندئذ اشتد غضب المصطفى وساورهم، نم انصرف عنهم يائساً من جدوى مثل ذلك الجدل
 العقيم...

لكنهم لم يكفوا عن جدلهم الخبيث، ييثون سمومه في المجتمع المدنى آمنين من جانب نبى
 الإسلام، محتمين بعهد الموتق.

حتى ضج الصحابة من شرهم ومكرهم، فمضوا يساورونهم ويزجرونهم، عساهم يرتدعون.
 دخل «أبو بكر الصديق» رضى الله عنه بيتَ المدراس الذى يجتمعون فيه إلى أحبارهم
 ويتدارسون فى أسفارهم، فوجد عصاة منهم قد اجتمعت إلى حبرين من رؤوسهم: «أنسيع
 وفنحاص» فقال الصديق منذراً:

«ويحك يا فنحاص اتق الله، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله قد جاءكم بالحق من
 عنده، تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة والإنجيل»

ردَّ عدو الله، وقد ذكر ما يتلو المسلمون من آيات القرآن في البر والرحمة، والبذل للخير قرضاً حسناً يضاعفه الله لهم:

«والله يا أبا بكر، ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير! وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإننا عنه لأغنياء وما هو عنا بغنى! ولو كان غنياً ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم! ينهاكم عن الربا ويُعطينا؟ ولو كان عنا غنياً ما أعطانا الربا!» فلم يملك أبو بكر غضبه، ولطم وجه فنحاص وقال:

«والذى نفسى بيده، لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك، أى عدو الله». وأسرع الحبيث إلى النبی ﷺ يشكو إليه صاحبه الصديق أبا بكر، وينكر أن يكون قال شيئاً مما أغضبه.

ونزلت كلمات الله، من سورة آل عمران:

﴿..... لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِّ ۝﴾

ولجوا في عنادهم ومكرهم، حتى اجترأوا فأنكروا أن يكونوا قد بشروا بقرب مبعث نبي! ولم يسكت الأنصار على هذا الإنكار الجريء، وطالما من عليهم يهود بأنهم أهل كتاب، وشغلهم بالكلام عن نبي حان زمانه.

وقد تصدى لهم من الأنصار «معاذ بن جبل، وسعد بن عباد، وعقبة بن وهب» رضى الله عنهم قالوا:

- يا معشر يهود، اتقوا الله فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه لنا بصفته».

فرد منهم رافع بن حريملة، ووهب بن يهودا:

- ما قلنا لكم هذا قط، وما أنزل الله من كتاب بعد موسى، ولا أرسل بشيراً ولا نذيراً

بعده!

وبدا أن المجتمع المدني في حاجة إلى تطهير مما نفثوا فيه من سموم الشر والنفاق، لكن عهد
الموادعة بكتاب النبي ﷺ، كان يرخى لهم في أملهم أن يكيّدوا للإسلام دون أن يواجهوه في
معركة مكشوفة لم يكن أوانها قد حان بعد...

* * *

تحويل القبلة إلى المسجد الحرام

حتى شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة، كان المصطفى ﷺ والذين آمنوا معه، يتجهون في صلاتهم مستقبلين الشمال، شطر بيت المقدس.

ولم يكن ﷺ راضياً عن تلك القبلة الأولى، وطالما رنا في تأملاته إلى البيت العتيق يرجوه قبلة لأمته، لكنه لم يكن يملك أن يغير قبلة المسلمين من تلقاء نفسه، فليس له إلا أن ينتظر أمر الله سبحانه وتعالى.

واستجاب الله لرسوله فولاه القبلة التي يرضاها.

وصلى المصطفى والصحابة في دار الهجرة، مستقبلين المسجد الحرام منذ نزلت آية البقرة، أولى السور المدنية في منتصف شعبان :

﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۚ وَلَئِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ۚ وَاللَّهُ بِفَعْلِهِ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾

ولم يمضِ هذا التحول الهام دون جدلٍ من يهود:

ذهب نفر من أحبارهم إلى المصطفى عليه الصلاة والسلام يسألونه مساومين:

- يا محمد، ما ولّاك عن قبليتك التي كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه؟
ارجع إلى قبليتك التي كنت عليها تتبعك ونصدقك!

وتلا المصطفى ﷺ من وحى ربه:

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَنِ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٥١﴾ ﴾

وانصرف اليهود بغیظهم لم ینالوا شیئاً بحیلتهم الماکرة ومساومتهم المكشوفة الکاذبة.

وتسامع طواغیت المشرکین من قریش فی مکة، بنیاً تحول المسلمین عن قبلتهم الأولى إلى المسجد الحرام، فلم یرضهم ما فی هذا التحول من تأیید الزعامة الدینیة لام القرى وترسیخ حرمة البیت العتیق، بل أوجسوا فی أنفسهم خیفَةً أن تكون مکة متّجه الدعوة الإسلامیة التي حسبوا أنها خرجت منها إلى یشرب، مع محمد - ﷺ - والمهاجرین المکیین من صحابته... وساورهم القلق وهم یحسون نذر المواجهة المحتومة المتحدیة، کلما حان موعد الصلاة خمس مرات کل یوم، فتمنلوا المسلمین هناك فی دار هجرتهم یقیمون صلاتهم وقبلتهم المسجد الحرام فی أم القرى...

نذر الصدام مع مشركى قريش

فى أى الجبهات الثلاث، يبدأ الصدام المسلح الذى لم يكن منه بد، لتأمين الوجود الإسلامى وحماية حرية عقيدته؟

ليس مع يهود قطعاً، فما هو من طبيعتهم ولا فى إمكانهم.

وليس مع المنافقين، كذلك، وداؤهم لا يزال فى مرحلة الحضنة والتفريخ، والذى يبدو من بواده يمكن تداركه أو الغض عنه تجنباً لفتح جبهة خطيرة فى صميم المجتمع الإسلامى بالمدينة، ولما يفرغ من أعدائه الوثنيين ويهود...

إنما الصدام المسلح مع المشركين من قريش التى لم يبق أمامها سواه، بعد أن تجنبته جهدها طويلاً، على الرغم منها، حفاظاً على السلام فى أم القرى وأمن الحمى الحرام فى البيت العتيق.

لقد كان فى حساب الوثنية القرشية أن تفرغ من القلة المؤمنة فى الجولة الأولى بأرض المبعث، دون حاجة إلى قتال وحرب.

وقد غرها أن نبي الإسلام، عليه الصلاة والسلام، لبث بضعة عشر عاماً فى مكة، لا يحمل سلاحاً غير عقيدته، ولا يلقى طواغيت المشركين بغير كلمات ربه.

لكن طبيعة الأشياء فرضت حتمية الصدام، وقررت كذلك مصيره من تلك الجولة المدنية الأولى، وإن بدا أن المعركة لم تُحسم إلا يوم الفتح فى السنة الثامنة للهجرة.

ماذا عسى التاريخ أن يعطى من تفسير منطقى لحركة الدعوة الإسلامية إذ تأخذ منطلقها من فجر المبعث، فيحتمل المصطفى عليه الصلاة والسلام والذين آمنوا معه، وطأة الوثنية العاتية الشرسة، دون أن يؤذن لهم فى قتال؟

لا يمكن أن يكون المؤمنون مظنة أن يكرهوا القتال حذراً من معركة تبدو غير متكافئة، وهم الذين اشتروا الآخرة بالدنيا، وبايعوا المصطفى عليه الصلاة والسلام على الجهاد معه فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وليس فيهم من دخل فى دينه إلا وهو على بينة من أمره.

المهاجرون خرجوا من ديارهم وأموالهم.

والأنصار أصحاب العقبة الكبرى، بايعوا النبي عليه الصلاة والسلام «على نهكة الأموال وقتل الأشراف» وودوا لو قاتلوا الوثنية عن دينهم من يوم العقبة، لولا أن قال الرسول عليه الصلاة والسلام:

«لم تؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رجالكم».

ليس التفسير إذن، أنهم كانوا مظنة التردد في القتال أو الخوف من قوة عدوهم وكثرته. وإنما اقتضت سنة الله سبحانه، أن تطول تلك الجولة المكية الأولى بغير قتال، ليؤمن من يؤمن عن عقيدة خالصة واقتناع حر، ويكون الابتلاء بوطأة المشركين تحجيصاً للصفوة من المؤمنين، وتقريباً لغشاوة الغفلة عن بصيرة قريش، بما تشهد من هذا الاستبسال الصامد الذي لا يمكن إلا أن يكون عن إيمان بحق.

وتتابع آيات القرآن تقصر مهمة الرسول على البلاغ: يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة.

وأسلم من أسلم، بمحض إرادته واختياره، دون تورط أو إكراه أو مسايرة.

وما كان بعيداً في منطق الحياة أن تغلب القلة المؤمنة كثرة كافرة، لكن الإسلام بتقريره حرية العقيدة وعدم الإكراه في الدين، أصلاً من أصول دعوته، استصفى من قريش والموالي بمكة وسابقي الأنصار، الجنود الأولين لحزب الله: لم ينتظروا حتى يحسبوا حساباً لمكسب أو خسارة، بل استجابوا لداعى الإسلام بمحض إرادتهم، عن اعتقاد راسخ وضمير حر، فما عادوا بحيث يخشون فيه لومة لائم، أو يبالون الموت في سبيل ما آمنوا أنه الحق من ربهم.

وزودهم إيمانهم الصادق بطاقة فذة، نفذ أثرها إلى صميم الجبهة القرشية، فكان منها المدد المتصل المتتابع، لكتيبة المؤمنين.

وتصدع بنیان الوثنية من قبل أن تلقى الإسلام في الصدام المسلح الذي فرضته طبيعة الموقف، وقد أذن للمسلمين في القتال إقراراً لمبدأ حرية العقيدة، وغضباً لحرمان الله، ودفعاً لما سيموا من أذى واضطهاد.

وقررت كذلك مصيره: ينتصر الحق على الباطل فيزهقه، وينسخ النور الظلام فتتجلى غواشى الوثنية عن أم القرى والبيت العتيق...

* * *

على ساحة «بدر» كانت أولى جولات هذا الصدام، وموقعة بدر لم تأت فجأة، بل سبقتها نذر تراكت على الأفق ما بين دار المبعث ودار الهجرة، معلنة عن حتمية الحرب بين الإسلام والوثنية، إذ ليس من طبيعة الأشياء أن يتهاذن حق وباطل...

وقد أذن للمسلمين في القتال، بعد طول صبر واحتمال. لكن القتال لم يبدأ مع ذلك في عام الهجرة الأول، الذي مضى كله احتشاداً للجهاد وتنظيماً للمجتمع الإسلامي في مركزه بالمدينة، واكتشافاً لأبعاد الميدان في منطقة كانت، حتى المبعث ولمدى خمسة قرون قبله، شبه مستعمرة لليهود...

ولم يكن هينا على المهاجرين والأنصار، أن يأتي موسم الحج في عام الهجرة الأول، وقد حيل بينهم وبين أداء فريضة الحج والسعى إلى بيت الله الحرام الذي سيطر عليه المشركون وكدسوا أوثانهم في ساحته، وأباحوه لكل الوثنيين العرب، وصدوا عنه المؤمنين الذين يعبدون رب هذا البيت لا يشركون به شيئاً.

ومع مطلع السنة الثانية للهجرة، بدأ المصطفى عليه الصلاة والسلام يخرج في غزوات قصار، تدريجاً لجنده من حزب الله، وإقراراً لهيبة الإسلام في موقعه الجديد.

كما بدأ عليه الصلاة والسلام يبعث سراياه لتجوب المنطقة ما بين مكة والمدينة، وأولاهما مركز الوثنية العربية، والأخرى مركز الدعوة الإسلامية.

ولم تكن هذه السرايا قاصدة إلى قتال، وإنما كانت دوريات استطلاعٍ تترصد أبناء قريش في منطقة الحجاز^(١).

أولى السرايا، سرية «عبدة بن الحارث» إلى مشارف الحجاز، وقد لقي جمعاً من قريش فلم ينشب بينهم قتال، إلا أن «سعد بن أبي وقاص» من جنود السرية، رمى بسهم فكان أول سهم رمى به في الإسلام. وقد اعتر به سعد فأنشد مُعتداً:

(١) حديث هذه السرايا بتفصيل، في الجزء الثاني من السيرة النبوية الهنطامية، وطبقات ابن سعد، وتاريخ الطبري.

أَلَا هَلْ آتَى رَسُولَ اللَّهِ أَنَّى حِمْتُ صَحَابِي بِصُدُورِ نَبْلِي
فَمَا يَعْتَدُ رَامٍ فِي عَدُوِّ بِسَهْمٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِثْلِي

بعد سرية «عبيدة بن الحارث» بعث المصطفى سرية عمه «حمزة بن عبد المطلب» إلى سيف البحر، في ثلاثين راكباً من المهاجرين، تم تلتها سرية «سعد بن أبي وقاص» فبلغت غايتها في أرض الحجاز، ثم عادت لم تلق كبداً.

بعدها كانت سرية «عبد الله بن جحش» - ابن عمه المصطفى: أميمة بنت عبد المطلب. ومن هذه السرية اندلع الشرر الذي أوقد الضرام الكامنة فتوهج مستعلاً على ساحة بدر.

خرج «عبد الله بن جحش» في ثمانية من المهاجرين، في أوائل رجب من السنة الثانية للهجرة، ورجب من الأشهر الحرم التي لا يحل فيها قتال. وكانت أوامر المصطفى إلى ابن عمته أن يمضي بالسرية حتى ينزل بموضع «نخلة» ما بين مكة والطائف، فبرصد بها قريشاً ويستطلع أخبارها.

وحدث في مرحلة من الطريق أن خرج «سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان» ينتدبان بعيراً لهما ضلّ، ثم تخلفا لم يرجعا إلى منزل السرية، وبدأ أن قريشاً أخذتها على غيرة فأسرتهما، ومضى أمير السرية بن بقي معه من المهاجرين حتى نزل بنخلة كما أمره المصطفى ﷺ. فمرت غير تجارية لقريش، فيها «عمرو بن الحضرمي» وتحاشى المسلمون القتال حفاظاً على حرمة الشهر الحرام، لكن تجنب الصدام مع المواجهة، لم يكن مستطاعاً، وأطلق الصحابي «واقد بن عبد الله» سهماً أصاب عمرو بن الحضرمي فقتله.

وعندئذ فرت قريش عن عيما وقتيلها، وعن أسيرين منها.

وعادت السرية الظافرة إلى المدينة بالمغانم والأسيرين، وهي ترجو أن يفتدى بها سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان، غير أنها ما كادت تدخل المدينة حتى استقبلت بوجوم ذهب بفرحة النصر، وقال المصطفى ﷺ لابن عمته، أمير السرية: «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام».

ثم أعرض ﷺ عما جاءت به السرية من مغانم، ونحى الأسيرين القرسيين، فظن عبدالله بن جحش وأصحابه أنهم أتموا وهلكوا، واشتد الصحابة من المهاجرين والأنصار في

لومهم، ونقلوا إليهم ما تقول قريش في مكة: «لقد استحل محمد وأصحابه حرمة الشهر الحرام».

وتسللت الأفاعى من الأوكار اليهودية، فراحت تطوف بأحياء المدينة وهم تهمهم في حقد واشتفاء:

«عمرو بن الحضرمي، قتله واقد بن عبد الله.

عمرو: عمرت الحرب.

الحضرمي: حضرت الحرب.

واقد: وقدت الحرب».

حتى حسم القرآن ذلك الموقف المعقد وأنهى كل جدل فيه بكلمات الله البينات:

﴿..... يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ

قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ

يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرْجُوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ

مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَمَئًا لَهُ وَمَنْ كَفَرَ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٩١﴾

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ

يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾

صدق الله العظيم

وهذه الآيات استرد جنود السرية طمانينة بالهم، وطاب لهم النصر على عدوهم، وأنشد عبدالله بن جحش:

تُعدون قتلاً في الحرام عزيمةً وأعظم منه، لو يرى الرشداً راشداً
صدودكم عما يقول محمد وكفر به، والله راءٍ وشاهد

وإخراجكم من مسجد الله أهله لئلا يرى لله في البيت ساجد
فلنا وإن عيرتمونا بقتله وأرجف بالإسلام باغ وحاسد
سقيننا من ابن الحضرمي رماحنا بنخلة لما أوقد الحرب وأقد

بعد شهرين اثنين، في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، كانت غزوة بدر الكبرى التي
وجهت مجرى الأحداث وحددت موازين القوى، لا بين الإسلام والوثنية فحسب، بل في كل
صراع كذلك، بين حق وباطل!

يَوْمَ بَدْر، وَمَوَازِينِ الْقَوَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْفِتَاءِ فَمَثَلُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ بَرُّوهُمْ مَثَلَهُمْ رَأَى
الْعَيْنُ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً
لِلأُولَى الْأَبْصَارِ ١٧﴾

(صدق الله العظيم)

«أبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس» في طريقه من الشام إلى مكة عائداً بعير قريش.

وصيحة تعلق في مكة:

«يا معشر قريش، اللطيمة اللطيمة! أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى أنكم مدركوها».

وترد أصوات من هنا ومن هناك:

«أيظن محمد وأصحابه أن تكون غير أبي سفيان كغير ابن الحضرمي؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك».

وخرجت جموع قريش من مكة مزهوة بعددها وعدتها، تريد القضاء على المسلمين في دار الهجرة، وهي ترى الأمر هيناً يسيراً، وكأنها خارجة في رحلة صيد.

جمع المصطفى ﷺ صحابته من المهاجرين والأنصار، وعرض عليهم الموقف من مختلف نواحيه، ثم قال يطلب مشورهم: «أشيروا على أيها الناس».

فقام أبو بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب، فتحدثا ما شاء لهما إيمانها، عن فريضة الجهاد والثقة في النصر، ثم قام «المقداد بن عمرو - وكان خرج من قريش ولحق بالمسلمين في سرية عبيدة بن الحارث - ودنا من المصطفى ﷺ وقال:

- يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «أذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون»، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد - بأقصى الجنوب - لجالدنا معك دونه حتى تبلغه.

دعا له المصطفى بخير، ثم التفت ﷺ إلى الانصار ولم يكن أحد منهم قد تكلم بعد، وعاد يقول: «أشيروا على أيها الناس».

سأل نقيبهم «سعد بن معاذ» - أحد السعدين:

«والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟»

أجاب المصطفى ﷺ: «أجل».

فقال سعد، رضى الله عنه:

«فقد آمننا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا وموالاتنا على السمع والطاعة. فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك. فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن نلقى عدونا غدا، إنا لصبرٌ في الحرب صدقٌ في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسير بنا على بركة الله».

وسار بهم المصطفى ﷺ على بركة الله حتى نزل على ماء بدر، ليسمع أن في جيش المشركين بالعدوة القصوى من صناديد قريش: عتبة بن ربيعة، وسيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، والحكم بن هشام، ونوفلا وحكيما بنى خويلد، والنضر بن الحارث، وأمية بن خلف...

فالتفت ﷺ إلى أصحابه وقال:

«هذه مكة قد أخرجت لكم أفلاًذ أكبادها».

ثم لمح قريشاً تندفع من وراء كتيب هناك، هادرة بزئير الوعيد، ثملة بنشوة الغرور ومتمعة الصيد، فرفع ﷺ وجهه إلى السماء وقال يدعو ربه:

«اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تُحادّك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذى وعدتني، اللهم أحْنيهم الغداة»

كم كان عدُّ المشركين الزاحفين من مكة؟

ألف مقاتل كاملو العدة والسلاح أو يزيدون، ومعهم مائة فرس مدربة على القتال. وتجاههم، بالعدوة الدنيا، كان جنود المصطفى من حزب الله: ثلاثمائة وأربعة عشر لا يزيدون: من المهاجرين ثلاثة وثمانون ومن الأوس واحدٌ وتسعون، ومن الخزرج مائة وأربعون. ومعهم من الخيل ثلاثة أفراس فحسب!

استضعف المشركون جند الإسلام، فتقدم أحد صناديدهم في صَلف وخيلاء، يريد أن يقتحم عسكر المسلمين إلى ماء بدر، فلم يمهله «حمزة بن عبد المطلب» فسقط مضرجاً بدمائه دون بدر. واستكبر طواغيت قريش أن يخوضوا معركة مع هذه القلة المستبسلة:

إن انتصروا عليها ضاع النصرُ في ميزان فقدان التكافؤ، وإذا هُزموا قضت عليهم الهزيمة بعار الدهر وكانوا سبة في العرب.

وبدا لكبيرهم «عتبة بن ربيعة» فخرج من صف المشركين يحتال بين أخيه تنبئة عن يمينه وابنه الوليد عن يساره، وسأل في استخفاف:

- هل من مبارز؟

فخرج إليه ثلاثة من الأنصار، زهد في مبارزتهم عندما سألهم من يكونون فعرفوه بنسبهم في بني قيلة. قال: «مالنا بكم حاجة»!

ثم نادى: يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا.

فأخرج إليه المصطفى ﷺ ثلاثة من صميم البيت الهاشمي القرشي: عمه، حمزة بن عبدالمطلب.

وابنى عمه: على بن أبى طالب، وعبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب.
ولم تطل المبارزة، وسقط عتبة بن ربيعة، وشيبة أخوه، وابنه الوليد بن عتبة، صرعى
مجندين على ساحة بدر
عندئذ تزاحف الناس وحمت المعركة، فأخذ المصطفى ﷺ براحتة حفنة من حصاء بدر
قذف بها عسكر المشركين وهو يقول: «شاهت الوجوه».
ثم التفت ﷺ إلى جنده فقال: «شُدُّوا»! وشدوا على المشركين فما تركوهم إلا بين فتيل
وأسير، وهارب يشتري النجاة بعار الفرار.
وصدق الله وعده ونصر من نصره، وألقى الرعب في قلوب عدوهم فذهبوا عبرةً ومثلاً.

وعاد الجيش الظافر إلى المدينة بالأسرى والمغانم.
وعادت فلول المشركين إلى مكة بالهزيمة والذل.
أحصى «ابن اسحاق» في السيرة النبوة قتلى قريش في بدر سبعين رجلاً، وبلغ أسراهم
نحو ذلك العدد، فكانوا ستة وستين أسيراً. والباقون من الجيش المغلوب لاذوا بالفرار.
وأما المسلمون فاستشهد منهم يوم بدر أربعة عشر شهيداً: ستة من المهاجرين ونمانية من
الأنصار، بذلوا أنفسهم فداء عقيدتهم فذهبوا بمجد الشهادة وشرف الجهاد وثواب الآخرة:

وتجاوبت آفاق الحجاز بقصائد حماسية بعيدة الصدى، للشعراء الذين أخذوا أماكنهم في
الموقع الوجداني للميدان، يناضلون بسلح الكلمة لتعبئة الوجدان العام.
في مدينة الرسول كان شعراء الإسلام الذين جندهم المصطفى عليه الصلاة والسلام لنصر
الدعوة بألسنتهم، يشدون بأية النصر في بدر، ويرمون المشركين بشعر وصفه المصطفى ﷺ فقال
إن وقعهم عليهم أشد من نضح النبل.

فمن شعر حسان بن ثابت الأنصارى:
ألا ليت شعري هل أتى أهل مكة
قتلنا سراة القوم عند محالنا
تركناهم للعاديات ينبنهم
لعمرك ما حامت فوارس مالك
إبادتنا الكفار في ساعة العسرى
فلم يرجعوا إلا بقاصمة الظهر
ويصلون ناراً بعد حامية القعر
وأشياهم يوم التقينا على بدر

ومن قصيدة لكعب بن مالك الأنصاري:

ألا هل أقي غسان من نأى دارها
بأن قد رمطنا عن قسي عداوة
نبي له في قومه إرث عزة
فساروا ويسرنا فالتقينا كأننا
ضربناهم حتى هوى في مكرنا
فولوا ودسناهم ببيض صوارم
وأخبر شئ بالأمور عليها
معدمعا، إذ أتانا زعيمها
وأعراق صدق هذبها أرومها
أسود لقاء لا يرجى كليمها
لمنخر سوء من لوى عظيمها
سواء علينا جلفها وصميمها

وفي مكة، كان شعراء المشركين يهدرون بطلب الثأر، ويكون مصارع الصناديد الذين جندلوا على ساحة بدر.

قال ضرار بن الخطاب يرثي أبا الحكم بن هشام، أبا جهل، ويستنفر للثأر:

ألا من لعين باتت الليل لم تنم
كأن قذى فيها، وليس بها قذى
فأليت لا تنفك عيني بعبرة
على هالك أسجى لوى بن غالب
فلا تجزعوا آل المغيرة واصبروا
وجدوا فإن الموت مكرمة لكم
تراقب نجما في سواد من الظلم
سوى عبرة من جائل الدمع تنسجم
على هالك بعد الرئيس أبي الحكم
أنته المنايا يوم بدر فلم يرم
عليه، ومن يجزع عليه فلم يلم
وما بعده في آخر العيش من ندم

وقال «أمية بن أبي الصلت» - ذاك الذي آمن لسانه قبل المبعث وكفر قلبه - بكائية طويلة ينوح فيها على قتلى در من صناديد قريش...

وكذلك أخذت الشاعرات من الفريقين مكانهن في المعركة.

روى «ابن اسحاق» في «السيرة النبوية» أربع قصائد لهند بنت عتبة وقصيدتين لصفية بنت مسافر حفيدة أمية بن عبد سمس.

كما روى قصيدة لهند بنت أثاة، حفيدة عبد المطلب، ترتي شهيداً لها من شهداء بدر، وأخرى لقتيلة بنت الحارث في أخيها النضر بن الحارث الذي قتل صبراً بعد المعركة، في «الأثيل» بين بدر والمدينة.

وفيها تقول:

يا راكبا إن الأثيل مظنة
أبلغ بها ميتا بأن تحية
منى إليك، وعبرة مسفوحة
هل يسمعي النضر إن ناديته
أحمد يا خير ضنء كريمة
ما كان ضرك لو مننت وربما
أو كنت قابل فدية فليفدين
فالنضر أقرب من أسرت قرابة
من صبح خامسة وأنت موفق
ما إن تزال بها النجائب تخفق
جاذن بواكفها وأخرى تخنق
أم كيف يسمع ميت لا ينطق
في قومها والفحل فحل معرق
من الفتى وهو المغيظ المحنق
بأعز ما يغلو به ما ينفق
وأحقهم إن كان عتق يعتق

فيروي أن رسول الله ﷺ لما بلغه شعر قتيلة في النضر بن الحارث قال: «لو بلغني هذا قبل قتله، لمننت عليه».

وبدا النصر عجيباً وغريباً، فما تصورت قريش وهي تحتشد في ألف مقاتل كاملي العدة والسلاح، أن يغلبهم القائد الرسول في ثلاثمائة من صحابته. ولكن سنن الحياة لا ترى في هذا النصر أي شذوذ أو غرابة.

القتال في بدر لم يكن بين فئتين متكافئتين:

من حيث العدد والسلاح، كان القرشيون يزدون أضعافاً مضاعفة. ولكن المعركة لم تكن متكافئة كذلك من حيث القوى المعنوية: المسركون خرجوا للقتال بطراً ووراء الناس، وإمعاناً في البغي والعدوان، وتأميناً لطريق تجارتهم إلى الشام، وانتقاماً من المصطفى والذين هاجروا معه والذين آووه ونصروه لا يبالون غضب قريش! والمسلمون خرجوا جهاداً في سبيل دينهم، وتأميناً لحقهم في حرية العقيدة، وغضباً لما ساءتهم الوثنية القرشية من أذى واضطهاد.

ومنى كان القتال بين حق وباطل، بين مستبسل في سبيل ما يؤمن أنه الحق، وبين مضع في البغي والضلال، فإن القلة من المؤمنين يغلبون الكثرة من الذين كفروا.

وتحدّدت ببدرٍ موازينُ القوى:

فلم يكن الأمر فيها بين كثرةٍ وقلةٍ فحسبُ، ولكنه كان بين كثرةٍ يعوزها سلاح الإيمان، ليس فيها من يقاتل إلا وهو يفكر في حماية الجاه الموروث ويرى في خصومه المسلمين صيداً سهلاً، وبين قلةٍ مؤمنة صائرة ليس فيها من يقاتل إلا وهو يرجو انتصار الحق ورضوان الله، ويرى الموت في سبيل عقيدته التي آمن بها، حياةً ومجداً ونصراً.

وحزب الله لم يتردد في دخول المعركة حتى يقيس قوته إلى قوة عدوه، ولم يتهيب القتال خوفاً من كثرة مسلحة مزهوة بعدديها وعدتها، بل بادر جنود الإسلام إلى لقاء عدوهم بعد أن جمعوا له كلّ ما استطاعوا من قوة، ورحبوا بالجهاد لا يبالى أحدهم حين يقتل مسلماً، كيف ولا أنّي يقتل. وإن ساعرهم ليقول:

ولست أبالي حين أُقتل مسلماً على أيّ جنْبٍ كان في الله مَصْرَعِي

قلادة الحبيبة في فداء حبيب

سيق أسرى بدر إلى المدينة في أعقاب الفئة الظافرة، فتأملهم المصطفى ﷺ ملياً، ثم نحى منهم صهره «أبا العاص بن الربيع» وفرق الباقيين بين أصحابه وقال: «استوصوا بالأسارى خيراً».

وبقى أبو العاص عند المصطفى، وقلبه مسدود إلى مكة، حيث ترك هناك زوجته الحبيبة «زينب بنت محمد» مع صغيريها «علي وأمامة»، ولم يكن الإسلام قد فرق بعد بين زوجة مؤمنة وزوج مشرك.

حتى جاءت رسل قريش في فداء أسراها..

وغالوا في الفداء، حتى إن المرأة لتسأل عن أغلى ما فدى به قرشي فيقال لها: أربعة آلاف درهم، فتبعث بمثلها في فداء ابنها.

وتقدم عمرو بن الربيع فقال للمصطفى ﷺ:

«بعثني «زينب بنت محمد بهذا في فداء زوجها، أخي: أبي العاص بن الربيع».

وأخرج من نيابه صرة وضعها بين يدي الرسول، ففتحها ﷺ فإذا فيها قلادة لم يكدها يراها حتى رقت لها رقة شديدة، وخفق قلبه للذكرى: لقد كانت قلادة «خديجة» أهدتها ابنتها «زينب» يوم عرسها، حين زُفّت إلى «أبي العاص بن الربيع» ابن خالتها هالة بنت خويلد.

وأطرق أصحاب المصطفى ﷺ خُشعاً وقد أخذوا بجلال الموقف! قلادة الحبيبة، تبعها بنت النبي إلى أبيها في فداء زوج حبيب!

وتكلم النبي الأب بعد فترة صمت فقال:

«إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوها عليها ماها، فافعلوا».

أجابوا جميعاً: نعم يا رسول الله.

وأدنى المصطفى ﷺ إليه صهره الذي تأثر هلبة الموقف، فأسرَّ إليه حديثاً، فحنى أبو العاص رأسه موافقاً، ثم حياً ومضى. فلما أبعد التفت المصطفى ﷺ إلى أصحابه من حوله، فأتى على أبي العاص وقال:

«والله ما ذمناه صهرًا»^(١).

وعاد «أبو العاص» إلى مكة، ليجهز زوجه الحبيبة كى تلحق بأبيها المصطفى ﷺ، وفاء
بوعده قطعه على نفسه، يوم ودّع أباهما ﷺ بالمدينة، بعد بدر.

وكان الفراق قاسيًا صعبًا، وقد خانه تجلده يوم رحيلها، فترك أخاه «كنانة بن الربيع»
يصحبها إلى خارج مكة، حيث كان «زيد بن حارثة» في انتظارها.

وانطلق «كنانة» يقود بعيرها نهارًا وقد أخذ قوسه وكنانته متأهبًا، فهاهنا قريشًا أن يخرج بها
هكذا في وضوح النهار على مرأى منهم ومسمع، وخرج بعضهم في أثر المهاجرة حتى أدركوها بذي
طوى، فكان أسبقهم إليها «هبار بن الأسود الأسدي» الذي روعها بالرمح، وقد جن حزنه على
إخوة له ثلاثة صرخوا جميعًا في بدر بأيدي أصحاب محمد.

و نَحَسَّ البعير، فألقى بزینب على صخرة هناك، وعندئذ برك «كنانة بن الربيع» دونها ونثر
كنانته وهو يزأر متوعدًا:

- والله لا يدنو منها رجلٌ إلا وضعتُ فيه سهماً.

فتراجعوا، ووقف أبو سفيان بن حرب بعيدًا يقول لكنانة:

- كُفْ عَنَّا نَبْلَكَ حَتَّى نَكَلِمَكَ.

فكفَّ كنانة، ودنا أبو سفيان منه فقال:

«إنك لم تصب يا ابن الربيع: خرجتَ بالمرأة على رؤوس الناس علانية وقد عرفت مصيبتنا
ونكبتنا وما دخل علينا من محمد، فيظن الناس أن ذلك من ذلِّ أصابنا وأن ذلك منا ضعفٌ
وهن، ولعمري مالنا بحبسها عن أبيها من حاجة، ولكن ارجع بها حتى إذا هدت الأصوات
وتحدث الناس أن قد رددناها، فتسلل بها سرًّا فالحقها بأبيها».

فكبر على كنانة أن يردها ليعود فيتسلل بها سرًّا بعد أن يذاع في الناس أن قد رَدَّتْها
قريش.. وهم ليمضى بها، فراعته أن رآها تنزف دمًا، وقد طرحت جنبها على أديم الصحراء
وعاد بها إلى مكة، حيث سهر أبو العاص على رعايتها وقرىضها لا يفارقها لحظة من ليل أو

(١) السيرة الهشامية ٢/٢٠٨.

نهار، حتى إذا استردت بعض قواها، ودعها للمرة الثانية وداع مُحِبٍّ مقهور. وخرج بها كنانة حتى بلغت مأمنها..

ولم يتبعها في هذه المرة طالب، بل أغمض الذين طاردوها بالأمس أعينهم، وقد ركبهم الخزي والعار من قول هند بنت عتبة تُعيرهم، وتذكرهم بهزيمتهم في بدر:

أفي السلم أعيارٌ، جفاءً وغلظةً، وفي الحرب أشباهُ النساءِ العوارك؟

استقبلت دارُ الهجرة بنت المصطفى بترحاب بالغ، شابت فرحة اللقاء فيه سَوْرَةُ الغضب لما أصابها عند خروجها من مكة، وعاشت زينب في رعاية أبيها المصطفى ﷺ على أمل لم يغلبها عليه اليأس قط: أن يسرح الله صدر أبي العاص للإسلام، فيلتئم الشمل الممزق.

وكان عليها أن تنتظر ست سنوات طوال ليتحقق هذا الأمل الغالي، ثم لا يكاد الشمل يلتئم حتى ترحلَ عن الدنيا بعد عام وبعض عام من إسلام أبي العاص، فيكون فراقٌ لا لقاء بعده على هذه الأرض.

دَرْسٌ مِنْ أَحَدٍ . وَرِسَالَةٌ مِنْ شَهِيدٍ

﴿ وَلَا يَهْزُوا وَلَا تَحْزَنُوا
وَأَنْتُمْ الْأَغْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٣٨) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ
الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ
الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَذَكَّرَ مِنْكُمْ سُنَدَاءٌ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾
(صدق الله العظيم)

ما أبهظ أعباء النصر
وما أسرع ما يتعرض للضياح بأدنى بادرة من تهاونٍ أو تفريط، يستمرئ فيها المنتصرُ
فرحته فيغفل عن موقعه تجاه عدوه، ويتهاون في تقدير طاقة التحدى في المهزوم
والنصر في «بدر» قد ألقى على المسلمين تبعاته وأعباءه، بفدر ما أثقل على قريش بخزى
العار، وعبأها لا سترجاع شرفها الضائع، والتأثر لقتلها الذين جندهم المسلمون على ساحة
بدر.

وقد احتاج المشركون إلى سنةٍ كاملة رينما عبثوا قواهم واحتشدوا لمعركة الثأر.
خرجوا من مكة بحدهم وحديدتهم وأحايبيشهم ومن والاهم من بنى كنانة وأهل تهامة.
وخرجت معهم نساؤهم يقطعن على الرجال سبيل النكوص. و «هند بنت عتبة» في نسوة
بنى أمية وقرينس، يضربن الدفوف على صوت هند:

وَيْهًا بَنِي عَبْدِ الدَّارِ وَيَهًا حُمَاةَ الْأُدْبَارِ
ضَرْبًا بِكُلِّ بَتَّارِ

إِنْ تُقْبِلُوا نَعَانِقُ وَنَفْرَشَ النِّمَارِ
أَوْ تَدْبُرُوا نِفَارِقُ فِرَاقَ غَيْرِ وَامِقِ

ولم تكن هند قد نامت فط على بأرها، وفي فئلى بدر: حنظلة بن أبى سفيان، وأبو هند «عتبة بن ربيعة»، وأخوها الوليد، وعمها تنبئة.. نلانه منهم صرعوا على ساحة بدر، بسيف الفارس حمزه بن عبد المطلب رضى الله عنه.

حتى إذا دنوا من المدينة، خرج إليهم المصطفى ﷺ فى ألف من المسلمين، لم يلبثوا أن نقصوا بضع مئات قبل أن يلتقى الجمعان فى أحد، فى منتصف شوال من السنة الثالثة للهجرة.

انخذل عن الجيش كبير المنافقين «عبدالله بن أبى ابن سلول» بمن معه من منافقى المدينة، وكانوا نحو ثلث الجيش. فال لهم: ما ندرى علام نقتل أنفسنا وقد أهلكنا أموالنا؟

ولم يجد المصطفى ضيراً من هذا النخاذل، فلقد نحى المنافقين ومرضى القلوب وضعاف الإيمان، عن جنده المخلصين. فواجه بهم وما يزيد عددهم على سبعمائة، نلانه آلاف من المشركين يقودهم أبو سفيان بن حرب، معهم كتبية من الفرسان على مائتى فرس، بقيادة خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومى.

ألا تغلب مائة من المؤمنين الصابرين، أضعافهم من الذين كفروا؟

والتحم الجيشان،

ولم تختل موازين القوى التى تحدت من قبل يوم بدر: كان النصر فى «أحد» للمؤمنين لا شك فيه، وقد كشفوا المشركين عن عسكرهم فولوا الأدبار تاركين لواءهم على الساحة صريعاً..

لكن المسلمين تعجلوا الموقف فتركوا مواقعهم فى الميدان، وأسرعوا يهجمون عسكر فريسن بعد انكشافهم عنه.

وتركوا القائد الرسول ﷺ حيث هو فى صميم الجبهة، ليس معه إلا نفر قليل استجابوا له فبينوا فى موقعهم حوله.

ولاحت الفرصة لخالد بن الوليد، وكان برقبها بنظرة تاقبة، فهجم بالخيـل بغتة، من البغرة التى كشفها المسلمون أنفسهم. وكرت فلول قرنس راجعة إلى الميدان الذى سطر عليه خالد، وتقدمت إحدى نساـهم: «عمره بنت علقمة الحارسة» فالنقطت لواءهم الصريع فرفعته لهم.

وكان مالا بد أن يكون:

تغير وجه المعركة، وضاع النصر من المسلمين وقد كان لهم دون رب.

ولولا ثبات القائد المصطفى ﷺ، والنفر البواسل من أصحابه المؤمنين، لكانت الكارثة. واطردت المقاييس لا تتخلف..

استرد المسلمون وعيمهم للموقف بعد أن ساورهم اليأس منه، إذ أُرْجِفَ المشركون أن «محمداً قد قُتِلَ».

لكنه، ﷺ، كان هناك، جريماً مُحْضَبُ الوجه بالدماء، يوجه جنده من مكانه في قلب الميدان لم يبرحه.

ومن حوله النفر المؤمنون، قد جعلوا من أجسادهم دروعاً وتروساً لوقاية قائدهم النبي. وما إن صاح أحدهم ببشرى حياته ﷺ، حتى عاد المسلمون جميعاً فأخذوا مواقعهم في الجبهة.

وتقهقر جيش المشركين فأنعاً بالنصر المخطوف.

في خستوع، رجع المصطفى ﷺ وجنده إلى المدينة، فدخل المسجد وصلى بهم قاعداً، من أثر الجراح التي أصابته في أحد. وذهبت أحدُ عبرةً ومثلاً:

﴿..... وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلَ أَفَلَا يَنْتَبِهُونَ
مَا كَانَ أَفْئِدَةً عَلَى أَغْصَانٍ وَمَنْ يَنْفَلِتْ عَلَى عَفْصِهِ فَلَنْ
يُضَرَّ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١١٥﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ
تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ يَكْتُبُ أَجَلَهُ مُّوَجَّهًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ
مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١١٦﴾﴾
(صدق الله العظيم)

اكتفى المشركون بنصرهم المخطوف يوم أحد. وابتدروا الطريق عائدين إلى مكة، لا يكادون يصدقون ما كان،

وفرغ المسلمون لقتلاهم الشهداء، فمضى المصطفى ﷺ يلتمس عمه الفارس الشهيد «حمزة بن عبد المطلب» فوجده هناك ببطن الوادي، فد اغتالته حربة غادرة، سدّدها إليه «وحشى، مولى جبير بن مطعم»، وجاءت «هند بنت عتبة، زوج أبى سفيان» آكلة الأكباد، فرقصت على مصرع الفارس الشهيد وملت بجثته أبسّع ثميل: بقر بطنه عن كبده فلاكتها، وجُدِع أنفه وأذناه فاتخذت منها حُلِيًّا، بدلاً من حليها التي دفعتها إلى «وحشى» من تمن الصفقة الغادرة.

قال ﷺ حين رأى ما رأى: «لن أصاب بملك أبداً. وما وقفتُ موقفاً قط أغيظُ إلى من هذا».

وأمر ﷺ فسجوا حمزة ببردته، وصلى عليه مكبراً سيع تكبيرات.

نم جيء بالشهداء فكانوا يوضعون واحداً بعد الآخر إلى جانب حمزة، فيُصلى النبي عليهم وعليه، حتى بلغت مرات الصلاة على سيد الشهداء اثنتين وسبعين، بعدد الشهداء يوم أُحُد.

وتجاوبت أرجاء الحجاز، ما بين أم القرى ودار الهجرة، بأصداء المعركة، في نقائض الشعراء من الحزبين:

المشركون بمكة يهزجون بقصائد شعرائهم، ويترنمون برسالة «عبدالله بن الزبعرى السهمي» - ولم يكن أسلم بعد - إلى حسان بن ثابت الأنصارى:

يا غرابَ البين أسمعَ فُقلْ	إنما تنطق سيئاً قد فُعلْ
إن للخير وللشر مدى	وكلا ذلك وجهٌ وقَبْل
أبلغا حسانَ عني آية	فقرِضُ الشعرِ يَتَفى ذا الغُلْ
كم ترى بالجرِّ من جمجمة	وأُكفٌ قد أترَّت ورجُلْ
كم قتلنا من كريم سيّد	ماجدِ الجدِّينِ مقدامِ بطلْ
ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا	جزعَ الخنزرج من وقعِ الأسْل
حين حَكَّتْ بِقُبَاءٍ بركها	واستحَرَّ القتلُ في عبْدِ الأسْل
فقتلنا الضَّعَفَ من أشرافهم	وعَدَلنا مَيْلَ بدرٍ فاعتدلْ

فيرد عليه، من حزب الله، حسان بن ثابت الأنصارى، شاعر المصطفى ﷺ:

ذهبت يا ابن الزبعرى وقعةً
ولقد نلتُم ونلنا منكم
نضع الأسيف في أكنافكم
إذ تُولُّون على أعقابكم
إذ سددنا شدةً صادقةً
وتركنا في قريش عورةً
كان منا الفضلُ فيها لو عدَلُ
وكذاك الحربُ أحياناً دُولُ
حيث نهوى عللاً بعد نَهْلِ
هرباً في السَّعْبِ أمتال الرِّسْلُ
فأجأناكم إلى سفح الجبل
يومَ بدرٍ، وأحاديثَ المثلِ

والأصداءُ تتلاقى وتتصادم، كاشفة في وهج الصراع المحتدم، عن أبعاد الميدان وأسلحتِهِ
لمعركةٍ طويلة المدى.

في ذلك اليوم العصيب، افتقد المصطفى ﷺ صاحبه «سعد بن الربيع الأنصارى» - أحد
النفباء في بيعة العقبة الكبرى - فقال لمن حوله:

«مَنْ رجلٌ ينظر لى ما فعل سعدُ بن الربيع، أفى الأحياء هو أم فى الأموات؟»

فذهب رجل من الأنصار ينظر لرسول الله ﷺ ما فعل سعد، فألفاه على ساحة القتال
جريحاً وبه رمق. فأخبره عما كان من افتقاد المصطفى إياه وسؤاله عنه، فجمع «سعد» مابقى له
من طاقة المحتضر وقال:

«أبلغ رسول الله ﷺ عنى السلام، وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا
خيراً ما جرى نبياً عن أُمَّتِهِ.

«وأبلغ قومك عنى السلام، وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله
إن خلص العدو إلى نبيكم ﷺ، ومنكم عينٌ تطرف.»

وأسلم الروح مطمئناً، بعد أن بعث رضى الله عنه رسالته إلى النبى ﷺ، وإلى قومه الأنصار.

ولم ينس المصطفى ﷺ وأصحابه «سعد بن الربيع».

ولا نسيه تاريخ الإسلام الذى استوعب رسالة هذا الجندى الشهيد، وعرف مغزاها ودلالاتها،
ورصد موقعها من نفوس المؤمنين: تزيدهم نباتاً وقوة واستبسلاً وإصراراً.

ومن نفوس أعدائهم: تهز نقتهم فى جدوى معركة خاسرة بلا ريب، بخوضونها مع أمانال
هؤلاء الحنود المؤمنين الذين يرون الموت فى سبيل عقبتهم: سرفاً و...

في السيرة النبوية، أن رجلاً دخل على «أبي بكر الصديق» رضى الله عنه، وقد ضم طفلة صغيرة إلى صدره وأقبل عليها يلعبها ويقبلها. فسأل الرجل: «من هذه؟»
 أجاب الصديق: «هذه بنت رجل خير مني: سعد بن الربيع. كان من النقباء يوم العقبة، وشهد بدرًا، واستشهد يوم أحد».
 وكل نفس ذائقة الموت،
 ولكن الصفوة من عباد الله المؤمنين هم الذين يستقبلون الموت في سبيل الله راضين مطمئنين، سلام عليهم:

﴿ وَلَا تَحْزَنْ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ ١٧٠ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ١٧١ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ ١٧٢ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ ١٧٣ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلِهِ لَمْ يَمَسَّهُمْ شُيْءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ ١٧٤ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ١٧٥ وَلَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يَسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزْبًا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ١٧٦ ﴿

(صدق الله العظيم)

الإسلام في الجبهات الثلاث

في الجبهة اليهودية، ومع الوثنية القرشية، وفي جبهة المنافقين

﴿..... هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ
مُمَانِعُهُمْ خُصُونَهُمْ مِنْ اللَّهِ فَأَنظَرَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ
الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ۝﴾

(صدق الله العظيم)

مسير المعركة الحاسمة بين الإسلام والوثنية، قد تقرر يوم بدر، وإن طال مداها سنين عددًا
وتعددت جولاتها حتى حُسمت يوم الفتح في السنة الثامنة للهجرة.

وكذلك تقرر، من يوم بدر، مصيرُ الصراع في جبهة أخرى أخطر وأضرى من الجبهة
القرشية، والمعركة فيها سافرة مكشوفة والأسلحة مألوفة معروفة.

لقد كان العرب القرشيون يقاتلون ببسالة، دفاعًا عن أوضاعٍ موروثة وتقاليده راسخة
وأعرافٍ مقررة، وغضبًا لحرمة أسلافهم، من حيث لم يهن عليهم أن يتصوروا أن أولئك الآباء
الكرام، من أمثال عبدالمطلب وهاشم وعبد مناف ومخزوم وزهرة، وقضى إلى فخر ومضر وعدنان،
كانوا على سفهِ وضلال.

وعلى مدى السنين العشرين التي استغرقتها المعركة بين العرب المشركين والمسلمين، في
جولتيها المكية والمدنية، كان الإسلام يستقبل من يُصغى من قرينس إلى ما يتلو المصطفى ﷺ
من آيات معجزته، فيؤمن برسالته ويبايعه على الإسلام والبذل والجهاد.

وحزبُ الله الذى بدأ فجر ليلة القدر من شهر رمضان، بالمسلمة الأولى السيدة خديجة زوج المصطفى ﷺ أم المؤمنين، ثم انضم إليه السابقون الأولون، كان يستقبل كل يوم جندياً جديداً من الجبهة القرشية والعربية، يُعزّه الله بالإسلام ويعز الإسلام به،

والمئات الثلاث من المجاهدين والأنصار الذين شهدوا بدرًا تحت لواء المصطفى ﷺ، لم يلبثوا أن كثروا بمن انضم إليهم من العرب، فدخل ﷺ مكة يومَ الفتح، فى عشرة آلاف من الصحابة، فيهم من كان قبل أن يسرح الله صدره للحق، أسدُ الناس عداوة للإسلام وحرماً للمصطفى والذين آمنوا معه.

والذين تأخر إسلامهم إلى عام الفتح وغزوة حنين والطائف بعده، وعام الوفود فى السنة التاسعة للهجرة، لم يلبثوا أن خرجوا مع الكتائب المجاهدة فى الفتوح الكبرى التى حملت لواء الإسلام إلى أقصى المشرق وأقصى المغرب.

١ - في الجبهة اليهودية :

كلا ، لم تكن تلك الجبهة القرشية العربية أخطر ما واجه الإسلام في عصر المبعث، والجبهة فيها مكشوفة والسلاح معروف، ومنها كان يأتي المدد تباعاً إلى حزب الله.

إنما كان الخطر الأكبر في الجبهة الخبيثة لأعداء البسر ومن شرب سُمهم من المنافقين في المدينة : لقد حرص اليهود على ألا يواجهوا الإسلام في معركة مكسوفة، وسهرت عصاباتهم في أوكارها الناشبة في شمال الحجاز، تنفث سُم النفاق في المدينة، ثم تبادى بها الشر فسعت إلى قريش، تؤلب الأحزاب منها وتستنفرها لقتال المسلمين بالمدينة، على وعد النصر من يهود الذين وادّعهم المصطفى ﷺ وأمنهم على دينهم وأموالهم.

وكانت موقعة بدر، هي التي كشفت المستور من غدرهم بعهدهم للمصطفى وفيه النص الصريح :

«وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب».

إنه الغدر! فجيش قريش لم يخرج من مكة إلا ليدهم يثرب. والغدر من طبيعة يهود، وهو متوقع ومحسوب.

وأملى لهم المصطفى، واكتفى ﷺ بأن جمع يهود المدينة بسوق بنى قينقاع، وحذرهم من الله متلاً ما نزل بقريش من النعمة.

وحين يقتصر الأمر على الإنذار أو ما هو أشد منه، فإن يهود تتناول وتجترئ، ما بقيت السيوف في أغمارها.

وغدا بنو قينقاع إلى سوقهم بالمدينة يأكلون المال، ويكبدون للإسلام لا يبالون نذيراً من الله ورسوله. وبدا لنفر منهم أن يعرضوا لإحدى المسلمات يريدونها على أمر تكرهه، تم احتالوا حتى كسبوا نوبها في السوق عن عورتها، فصاحت تستصرخ العرب، ووقع السر بين من في السوق من المسلمين، ويهود بنى قينقاع.

وأقبل المصطفى ﷺ في جمع من الأنصار فحاصر اليهودَ خمسَ عسره ليلة، حتى استسلموا ونزلوا على حكمه، وعندئذ تقدم المنافق «عبدُ الله بن أبي ابن سلول» فقال للمصطفى على الملأ من الناس:

«يا محمد، أحسنْ إليَّ في مَواليَّ!».

وأعرض عنه المصطفى ﷺ، لكن المنافق مضى في لجأته، مُصِرًّا على استنقاذهم!

قال عليه الصلاة والسلام: «هم لك!».

واكتفى بأن جرّدهم من سلاحهم، وأمهلهم ثلاثة أيامَ يَجْلُونَ بعدها عن المدينة، فخرجوا أذلةً مفهورين إلى وادي القرى، حيث نزلوا على عصابتهم هناك، وتطهرت دارُ الهجرة بجلاء بني قينقاع عنها بعد «يوم بدر» في السنة الثانية للهجرة!

وتتابعت أحداثٌ فردية، تعكس صدَى الرعب في قلوب يهود، وتنم عن كيدهم وحقدهم. وفد تعلق أملهم، بأن تنأر قريش لقتلها في بدر، فما كانت لتسكت عليه كما سكّت يهود على إجلاء بني قينقاع.

بعد عام واحد من بدر، في شهر سوال من السنة الثالثة للهجرة، كانت موقعة أُحد، وكان من أمرها ما كان.

نقضت يهود ميثاقها مع الرسول ﷺ هذه المرةَ أيضًا، فلم تكن «على النصر ضد من حارب أهلَ هذه الصحيفة».

وبنو النضير، كانوا في منطقة المدينة.

وقد لبثوا في أوكارهم يرقبون سير المعركة في أُحد...

وطاب لهم ما لقي المسلمون من عدوهم، وتأهبوا لكي يرجفوا في المدينة بقاتلهم الخبيثة:
- انهزم محمدٌ وأصحابه، ويقول إنه نبي مرسل؟ لو كان نبيًّا ما انتصر عليه الوثنيون!

ثم هموا بأن يغتالوا الرسول ﷺ!

خرج عليه الصلاة والسلام إلى بني النضير، يستعينهم في دية قتيلين من بني عامر، وكان بينهم وبين بني النضير حلف وجوار.

« قالتُ يهود: نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت... »

تم خلا بعضهم إلى بعض فقالوا: « إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد - فَمَنْ رجلٌ يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه ؟ »

وصعد يهودى فألقى الصخرة، لكن بعد أن كان المصطفى قد تحرك من مكانه. ولم تَزده فعلتهم علماً بغدرهم، لكنها زادتَه تصميمًا على حسم شرمهم.

وعاد إليهم ﷺ، فحاصروهم ست ليالٍ من شهر ربيع الأول، من السنة الرابعة للهجرة... واستسلموا، بغير قتال، لحكم المصطفى عليهم بالجلاء... وتضرعوا إليه أن يدعهم يذهبون بما حملت الإبل.

فسمح لهم بها الرسولُ المنتصر ﷺ.

وبلغ بهم الحرص، أن راحوا ينزعون الأخشاب من دورهم ليحملوها معهم. ومضوا بالنساء والأولاد وما حملت الإبل من مال ومتاع إلى عسيرتهم في خيبر، ولم يكن دَوْرُها قد حان بعد... فكأنما كانوا في خروج الجلاء، في ضغطة الحسرة! وصدق الله تعالى:

﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿١﴾ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٣﴾ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيْحَيِ الْفَاسِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَا كُنْ

اللَّهُ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَا أَفَاءَ
 اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
 وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۚ لَيْسَ لَكُم مَّا كُنَ دُولُهُ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ
 وَمَا أَتَاكُمْ الرُّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ
 إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴿

(صدق الله العظيم)

الأحزاب، وبنو قريظة :

خانهم المعهود من حذرهم، فسعوا إلى حتفهم بأظلافهم ومخالبهم !
 لقد ضاقوا بطول الانتظار، وعدوهم نبي الإسلام يبدو كمن لا يفهم، وإنه ليوشك أن
 يقذف بهم إلى تيه تتسردهم القديم، بعد أن طاب لهم المقام في مستعمراتهم بالأرض الطيبة، شمالي
 الحجاز، أكثر من خمسة قرون.
 أزمة «أحد» لم تكسر من معنوية جند الإسلام المهاجرين والأنصار، بل أعطتهم الدرس
 والعبرة، وزادتهم إيماناً ونباتاً وإصراراً.
 وقريش تبدو حذرة مترددة، وتود لو أعفتها الظروف من الصدام مع جند الإسلام، خوفاً من
 أن يضيع النصر الذي اختطفته في «أحد» من حيث توقعت أن تبوء بالهزيمة والعار.
 ولم يجد عليها هذا النصر المخطوف، وإنما لتعلم علم اليقين أن بين رجالها من اهتز إيمانهم
 بالأوثان، فلن يلبنوا أن يلحقوا بإخوانهم الذين سبقوهم إلى الإسلام !

* * *

ولاحت الفرصة ليهود بني قريظة:
 بعثت وفداً من أحبارها إلى مكة، يرد على المرتابين من المشركين إيمانهم بأهتهم ويغري
 الوثنية العربية بحرب دين التوحيد.

قالوا لقريش:

- دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه. حاربوه ونحن معكم !
 فلما اطمأنوا إلى أن المشركين نشطوا لما دعوهم إليه من حرب نبي الإسلام، خرج أولئك
 النفر من يهود حتى جاءوا غطفان فدعوهم إلى مثل ما دعوا إليه قريشا، ووعدوهم المؤازرة
 والنصرة.

تم تسللوا عائدين إلى أوكارهم في شمال الحجاز ومن ورائهم جيش المشركين: قريش
 وعليها أبو سفيان بن حرب، والأحزاب من غطفان: بني فزارة، وبني مرة، وبني أشجع بن
 ريث...

لكن مل هذا التواطؤ لم يكن بحيث يخفى أمره، وقد علم المصطفى ﷺ بمسعى يهود وما بيئت من غدر، فانتظر عليه الصلاة والسلام حتى فرغ من الأحزاب يوم الخندق، ورجع بجنده إلى المدينة في ساعة الظهيرة فما كادوا ينفضون عن نياهم غبار المعركة الظافره، حتى سمعوا دعاء المصطفى ﷺ يعلو به صوت مؤذنه من المسجد النبوى:

«أيها الناس، من كان سامعاً مطيعاً فلا يُصلِّنَّ العصر إلا في بنى قريظة».

وتدفقت جموع المؤمنين إلى موعد الرسول: صلاة العصر في بنى قريظة...

وصلوا هناك، وقد لاذ اليهود الجبناءً بحصونهم التي ظنوا أنها مانعتهم من الله.

وامتد الحصارُ خمساً وعشرين ليلةً، ثم أخرجهم الرعبُ منها مستسلمين لحكم نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام.

لكنه ﷺ، ترك الحكم لسعد بن معاذ، نقيب الأوس. وقد حاول نفرٌ من قومه أن يحملوه على الرفق بأعداء الإسلام وطالما ظاهروهم على الخرج في الجاهلية، قالوا لسعد:

- يا أبا عمرو، أحسين إلى مواليك، فإن رسول الله ﷺ إنما ولّاك ذلك لتحسن إليهم.

فلما أكثروا عليه، ردّهم بقوله:

«آن لسعدٍ ألا تأخذه في الله لومة لائم».

ونطق «سعد بن معاذ» بحكمه الصارم العادل على رجال بنى قريظة دون النساء والصبية...

حسباً لشرهم الوبيل، وجزاءً وفاقاً على ما كان من غدرهم وكيدهم.

وذهبت بنو قريظة، قصةً وعبرةً ومثلاً.

وتجاوبت الجزيرة بأصداء القصائد التي قالها الشعراء فيهم وفيمن حزّبوا من أحزاب
المسركين يوم الخندق، وفي المنافقين.

وتلا المصطفى من وحى ربه، من سورة الأحزاب:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ
عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودُ فَارِسَاسَ عَلَيْهِمْ رِيحٌ وَجُنُودٌ لَمْ تَرَوْهَا

وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ④ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ
مِنْكُمْ وَيَا ذُرَاغِيَا لَا بَصَرُ وَلَئِنِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرُ وَتَظُنُّونَ
بِاللَّهِ الظَّنُّونَ ⑤ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ⑥
وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ
وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ⑦ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا هَلْ يَنزِلُ
لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ
بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ⑧ وَلَوْ دَخَلَتْ
عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثَمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّسُوا
بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ⑨ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤْلُونُ
الْأَذَى بَرُّوْكَانَ عَاهَدُوا اللَّهَ مَسْئُولًا ⑩ قُلْ لَّن يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن
فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ وَالْقَتْلِ وَإِذْ لَا تَمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ⑪ قُلْ مَن ذَا الَّذِي
يَعِصِيكُمْ مِّنْ اللَّهِ إِنِ ارَادَبِكُمْ سُوءًا أَوْ ارَادَبِكُمْ رَحْمَةً وَلَا
يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ⑫ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ
مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلْمْ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا
قَلِيلًا ⑬ أَشِخَّةٌ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ
تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمُوتِ إِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ
سَلَفُوا بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشِخَّةٌ عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَخْبَطَ اللَّهُ
أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ⑭ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ
يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَأَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ
يَسْأَلُونَ عَنِ النَّبَإِ كَرَاهٍ لَّوَكُنُوا فِيكُمْ مَفْقَهُوا إِلَّا قَلِيلًا ⑮

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ
يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۖ وَلَمَّا رَأَى
الْمُؤْمِنُونَ الْآخْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ
اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۖ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ۚ ۝٢٦ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ
صَّدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّن
يَسْتَظِرُّ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ۚ ۝٢٧ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ
وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ تَوَبَّ عَلَيْهِمْ إِنَّا اللَّهُ كَانَ
عَفُورًا رَّحِيمًا ۚ ۝٢٨ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا
وَكَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا غَزِيرًا ۚ ۝٢٩ وَأَنزَلَ
الَّذِينَ ظَاهَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي
قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَنَأْسٍ رَّوَدَّ فَرِيقًا ۚ ۝٣٠ وَأَوْرَثَكُم أَرْضَهُمْ
وَدِيرَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرًا ۝٣١ ﴿٣١﴾

(صدق الله العظيم)

حديث الإفك

﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ١٥ ﴾
صدق الله العظيم

إِذْنٌ فَقَدْ بَدَأَ سُمُّ النِّفَاقِ يُجَدِّدُ أَثَرَهُ وَهُدَّدَ الْجَبْهَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ مِنْ دَاخِلِهَا، فِي الْوَيْسِ الَّذِي كَانَتْ تَخْوِضُ فِيهِ مَعْرَكُهَا مَعَ الْعَرَبِ الْمُسْرِكِينَ وَالْعَصَابَاتِ مِنْ يَهُودٍ.

لَكِنِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ انْكَشَفُوا يَوْمَ الْخَنْدَقِ فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ، لَمْ يَلْبِنُوا بَوَسُوسِيَّةً مِنْ يَهُودٍ، أَلَّا سَغَلُوا الْمُجْتَمَعَ الْإِسْلَامِي عَنْهُمْ بِفِرْيَةِ الْإِفْكِ، الَّتِي هَزَّتِ الْمَدِينَةَ هَزًّا لَمَدَى شَهْرٍ كَامِلٍ مِنْ أَيَّامِ سَعْيَانِ وَرَمَضَانَ مِنَ السَّنَةِ السَّادِسَةِ لِلْهَجْرَةِ.

فَبَلَّهَا كَانَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ خَرَجَ غَازِيَا إِلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ، وَصَحْبَتُهُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ السَّبْدَةُ عَائِشَةُ بِنْتُ الصَّدِيقِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَفِي طَرِيقِ الْعُودَةِ أَنَاخَ الرِّكْبِ قَرَبَ الْمَدِينَةِ فَبَاتُوا بَعْضُ اللَّيْلِ نَمَ ارْتَحَلُوا، وَمَا يَدْرُونَ أَنَّ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ تَخَلَّفَتْ عَنْهُمْ، حَتَّى افْتَقَدُوهَا فِي هَوْدَجِهَا حِينَ بَلَّغُوا الْمَدِينَةَ فِي الصَّبْحِ.

وَفَبَلَّ أَنَّ يَشْتَدَّ الْقَلْقُ عَلَيْهَا، وَصَلَتْ عَلَى بَعِيرٍ يَقُودُهُ «صَفْوَانُ بْنُ الْمُعْطَلِ السَّلْمِيُّ» وَحَدَّثَتْ زَوْجَهَا الْمُصْطَفَى ﷺ عَنْ سَبَبِ تَخَلُّفِهَا فَمَا أَنْكَرَ مِنْهُ نَبِيًّا:

كَانَتْ قَدْ خَرَجَتْ مِنْ هَوْدَجِهَا مِنَ الْعَسْكَرِ لِبَعْضِ حَاجَتِهَا، قَبْلَ أَنْ يُؤْذَنَ فِيهِ بِالرَّحِيلِ، وَكَانَ فِي عُنُقِهَا عَقْدٌ مِنْ جَزَعِ انْسِلَ مِنْهَا فَالْتَمَسَتْهُ حَتَّى وَجَدَتْهُ، وَاتَّجَهَتْ إِلَى هَوْدَجِهَا فَإِذَا الرِّكْبُ قَدْ رَحَلُوا وَاحْتَمَلُوهُ، لَمْ يُحْسُوا أَنَّهَا لَيْسَتْ فِيهِ، لُحْفَةً وَزَنَاهَا.

تَلَفَعَتْ بِجَلْبَابِهَا وَانْتَظَرَتْ فِي مَكَانِهَا وَانْقَةَ أَنَّهَا لَنْ يَلْبِنُوا أَنْ يَفْتَقَدُوهَا فَيَرْجِعُوا إِلَيْهَا. وَحَدَّثَ أَنَّ مَرَّةً بِهَا «صَفْوَانُ» فَأَنْكَرَ أَنْ يَتْرَكَهَا وَحْدَهَا فِي الْخَلَاءِ، وَقَدَّمَ بِعِيرِهِ إِلَيْهَا ثُمَّ اسْتَأْخَرَ عَنْهَا حَتَّى رَكِبَتْ، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِهَا حَتَّى أَبْلَغَهَا مَآمِنَهَا فِي الْمَدِينَةِ.

وَسَجَّ الْمُنَافِقُونَ وَالْبَهُودُ فِرَّةَ الْإِفْكِ، مِنْ هَذَا الْحَادِثِ الْعَارِضِ، وَرَدَّدَهَا نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ صَلَعَتْ سَمْعَ زَوْجِهَا الْمُصْطَفَى ﷺ وَأَبِيهَا الصَّدِيقِ وَأُمِّهَا، أُمُّ رُومَانَ. فَصَكَتْ آذَانَهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَجْرَوْا

أحد منهم على مواجهه السيدة عائشة بالنائعة الخبيثة، إذ كانت نسكو من عله، ولما أحس جفوة من زوجها المصطفى ﷺ استأذنته في الانتقال إلى أمها لتمرصها، فأذن لها.

بعد بضع وعشرين ليلة، نقهت من علتها فخرجت من بيت أبيها لبعض حاجتها، ومعها «أم مسطح بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف» وإذ هما في الطريق عنرت السيدة عائشة في مرطها، فقالت رفيقتها:

«تعيَس مسطح».

فأنكرت السيدة ما سمعت، وقالت:

«بئس لعمرك الله ما قلب لرجل من المهاجرين قد شهد بدراً».

سألتها أم مسطح:

«أو ما بلغك الخبر يا بنت أبي بكر؟».

ولأول مرة، سمعت السيدة عائشة بفرية الإفك، فارتاعت وهرعت إلى أمها، تسألها بأكيه:

«يغفر الله لك، تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لى من ذلك شيئاً؟».

فلم تملك أمها إلا أن تقول:

«أى بنية، خفضى عليك الشأن، فوالله لقلبا كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها، لها ضرائر، إلا كنزن وكثر الناس عليها».

لكن ذلك لم يهون عليها من محنة الفرية الخبيثة التي امتحنت بها، وإن لم تدر ماذا عساها أن تصنع، إلا أن تكل أمرها إلى الله سبحانه...

وفي المسجد النبوى، كان زوجها عليه الصلاة والسلام، يحاول أن يرد عنها السنة السوء، فيقول:

«يا أيها الناس، ما بال رجال يؤذوننى في أهلى ويقولون عليهم غير الحق؟ والله ما علمت منهم إلا خيراً، ويقولون ذلك لرجلٍ والله ما علمت منه إلا خيراً، وما يدخل بيتاً من بيوتى إلا وهو معى».

فتنفذ كلماته إلى قلوب المؤمنين، وينورون غضباً للسيدة الكريمة، ويتماسك الأوس والخزرج متصايحين مطالبين بأعناق أصحاب الإفك من هؤلاء وهؤلاء. حتى كاد يكون بين الحيين سر»^(١).

(١) تفصيل حديث الإفك، في (صحيح البخارى) ٢٧/٤ ط الشرفية، وفي السيرة لابن إسحاق وتاريخ الطبرى (حوادث السنة السادسة للهجرة) ومعها (السمط المين، للمحب الطبرى) ص ٦٣.

وخيف على المجتمع الإسلامى من التصدع، وخيف على السيدة عائشة رضى الله عنها من وطأة الحزن والقهر.

حتى حسم القرآن الكريم ذلك الإفك الفاحش والبهتان العظيم بآيات النور:

﴿..... إِنَّ الَّذِينَ
جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ
لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ١١ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ
خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ١٢ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ
فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ ١٣ وَلَوْلَا
فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ
فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٤ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ
مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ١٥ وَلَوْلَا
إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَدْعِيَكُمْ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا
بَهْتَنٌ عَظِيمٌ ١٦ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ بِأَعْيُنِكُمْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ ١٧ وَيَسِّرُ اللَّهُ لَكُمْ أَلْيَتَ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ ١٨
إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ١٩﴾

(صدق الله العظيم)

الله أكبر ، خربت خيبر

وكان «عبد الله بن أبي أسيد سلول» هو الذي تولى كِبَر ذلك الإفك... في أم المؤمنين عائشة، أحب أزواج المصطفى إليه وأحظاهم عنده... بنت أبي بكر الصديق، أقرب الصحابة إلى المصطفى وأعزهم عليه، وأول السابقين إلى الإسلام!

فهل حانت المواجهة الحاسمة، مع مرضى القلوب المنافقين؟ كلا، بل يمكن أن تنتظر رينما يأمن الإسلام سرَّ يهود ويحسم المعركة مع الوننة العربية. وهذه المعركة أيضا تحمل الهدنة بعض الوقت، وقد عُقدت الهدنة في «الحديبية» في أواخر السنة السادسة للهجرة.

بعدها، في مستهل السنة السابعة، كان مسير المصطفى ﷺ إلى يهود خيبر الذين سارعوا إلى حصونهم يحمون بها، فتساقطت حصناً بعد حصن، حتى إذا لم يبق لهم سوى حصن الوطيح والسلام، بعنوا وأفداهم إلى نبي الإسلام يسألونه أن يحقن دماءهم ويكتفى منهم بالجلاء. وأجاب المصطفى ﷺ سؤالهم، وتركهم يحلون عن «خيبر» هائمين على وجوههم في الفلاة.

بعد سقوط خيبر، انتهت قصة الاستعمار اليهودي لشمال الحجاز، لم يبق من عصايتهم سوى فلول مبعرة في فلك ووادي القرى وتيباء، حتى كان أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» هو الذي طهر جزيرة العرب من بقاياهم. وعاد اليهودي التائه إلى ضلاله القديم، يضرب في التيه من بادية الشام، تلفظه الأرض حين أقام، وتطارده اللعنة أينما حط أو سار.

﴿..... فُظِّلَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾

حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٧﴾
وَأَخَذْنَاهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُ عَنْهُ وَأَكْفَلَهُمْ بَعَثْنَا رَسُولًا بِالْبَيْتِ
وَأَعَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦٨﴾ ﴿

(صدق الله العظيم)

٢ - في الجبهة القرشية من هدنة الحديبية حتى الفتح ويوم حنين

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ ٨١

صدق الله العظيم

هدنة الحديبية وبيعة الرضوان

كانت غزوة خيبر، في السنة السابعة للهجرة.

قبلها، في آخر السنة السادسة، كانت هدنة الحديبية مع قريش، وبيعة الرضوان.

أقام المصطفى ﷺ بالمدينة شهرى رمضان وسوال، ثم خرج في ذى القعدة فاصداً إلى العمرة، لا يريد حرباً.

ومعه مئاة من الصحابة، المهاجرين والأنصار: في رواية أنهم كانوا سبعمائة، وفي أخرى أنهم زادوا على ذلك بضع مئاة^(١).

وسار الركب النبوى من المدينة، يحذوه السئوق إلى زبارة «البيت الحرام» مهوى أفئدتهم وقبلة صلاتهم، والحنين إلى «أم القرى» بعد ست سنين من الهجرة والاعتراب.

في الطريق إلى مكة، لقي الرسول ﷺ من أنبأه بخبر احتشاد قريش لصدده ومن معه عن المسجد الحرام، فتطوع رجل من الصحابة، وسلك بالركب طريقاً وعراً غير الطريق التى لمريش.

حتى وصلوا إلى «الحديبية» من أسفل مكة، وعندئذ لمحتهم خيل قريش، فطار سهودها إلى مكة بالنبأ.

(١) السيرة ٣/٣٢٢.

ومن مكة، جاء وافدٌ خزاعي «بديل بن ورقاء» في نفرٍ من قومه، يسألون المصطفى :
 - ما الذي جاء بك؟
 أخبرهم ﷺ أنه لم يأت يريد حرباً، وإنما جاء زائراً للبيت ومعظماً لحرمة.
 وعاد الخزاعيون إلى مكة، يؤكدون لقريش أنه ما جاء لقتال، وينصحون لهم ألا يعجلوا
 عليه، وأن يدعوه وما جاء له من زيارة البيت العتيق.
 فاتهم طواغيت المنكرين، وردوا في عناد وسفه: «إن كان جاء ولا يريد قتالاً، فوالله
 لا يدخلها علينا عنوةً أبداً، ولا تتحدث بذلك عنا العرب».
 وتتابع رسل قريش، تحاول أن ترد المصطفى عما جاء له، وهو ﷺ يؤكد لكل وافد منهم،
 أنه ما جاء لقتال .

ويعودون إلى طواغيت قريش بما فاله ﷺ فيلقونهم بالمكروه من القول والاهام.
 حتى ضاق ذوو الحلم بهذا التمداد في السفه والإعنات.
 قال أحدهم - الحليس بن علقمة، وكان سيد أحابيس مكة - غاضباً متوعداً:
 «يا معشر قريش، والله ما على هذا حالناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أئصد عن بيت الله
 من جاء معظماً له؟ والذي نفس الحليس بيده، لتخلن بين محمد وبين ما جاء له، أو لأنفرن
 بالأحابيش نفرة رجل واحد».

وقال «عروة بن مسعود الثقفي» قبل أن يستجيب لهم فيخرج إلى المصطفى، في محاولة
 أخيرة لحسم الموقف دون قتال:
 «يا ه قريش، إني قد رأيت ما يلقي منكم من بعتموه إلى محمد إذ جاءكم، من التعنيف
 وسوء اللفظ، وقد عرفتم أنكم والد وأنى ولد - أمه: سبيعة بنت عبد شمس - وقد سمعتُ
 بالذي نابكم، فجمعت من أطاعني من قومي نم جئكم حتى آسبكم بنفسى».

فالوا يثبونه على مفاوضة المصطفى، عنهم، ليحول دون مكة والحرب:
 «صدفت، ما أنت عندنا بمتهم»^(١).

(١) السيرة: ٣٢٧/٣، تاريخ الطبري: السنة السادسة: من طريق ابن اسحاق.

خرج «عروة» حتى أتى المصطفى ﷺ في مناخه عند الحديبية، فجلس بين يديه وقال في تودة،
يذكر محمد بن عبد الله بما يهدد بلده، أم القرى:
«يا محمد، أجمعت أوثاب الناس تم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم؟ إنها قريش، قد
خرجت معها العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمر يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً.
وأيهم الله لكأني بهؤلاء - الذين معك - قد انكشفوا عنك غداً».

وأنكر أبو بكر الصديق ما سمع، فاعترض بقول من مكانه خلف الرسول ﷺ: أنحن
ننكشف عنه؟

ورد «عروة» وقد عرفه:
«أما والله لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها، ولكن هذه بها».

وحف الصحابة بالمصطفى ﷺ وهو يرد على وافد قريش، يمثل ما قاله لمن سبقوه: إنه لم
يأت يريد حرباً.

وعاد «عروة» إلى قريش، يتحدثها عما رأى وما سمع، من حب أصحاب محمد لمحمد،
وتفانيهم في القيام دونه، وقال فيما قال:
«يا معشر قريش، إني قد جئت كسرى في ملكه، وقيصراً في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني
والله ما رأيت ملكاً في قوم قط، مثل محمد في أصحابه. ولقد رأيت قوماً لا يُسلمونه لشيء أبداً،
فروا رأيكم».

ولاحظ النذر:

بعثت قريش أربعين رجلاً منهم أو خمسين، وأمروهم أن يُطيفوا بعسكر رسول الله ﷺ،
ليصيبوا لهم من أصحابه أحداً.

وأخذتهم فئة من الصحابة أخذاً، فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ فعفا عنهم وخلي سبيلهم، بعد
أن رموا في عسكر المسلمين بالحجارة والنبل.

وجاء دور المصطفى ﷺ ليحاول رد قريش عن غيها، كي تُحلي طريقه إلى البيت الحرام.
بعث إليهم صاحبه وصهره: عنان بن عفان - وهو من صميم عبد شمس - لكرّر عليهم
أن النبي ﷺ لم يأت لحرب، وإنما جاء زائراً لهذا البيت، ومعظماً لحرمته.

قالت قريش لعثمان تسترضيه، بعد أن أدّى رسالة المصطفى: «إن شئت أن تطوف بالبيت فطُف».

وردّ رضى الله عنه:

«ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ».

وبدا لقريش، فاحتبست عثمان عندها، لعل ذلك يجدى عليها من حيث فنسل مسعاها. وخرجت من مكة شائعة تقول: إن عثمان بن عفان قد قُتل. فما بلغت سمع النبي حتى قال ﷺ:

«لا نبرح حتى نناجز القوم».

ودعا أصحابه إلى البيعة على ذلك، فكانت «بيعة الرضوان» تحت شجرة هناك. وفيها نزلت آيات الفتح:

﴿..... لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَخْرًا قَرِيبًا﴾ (١٨) ﴿

صدق الله العظيم

ولكن الخبر اليقين ما لبث أن جاء بأن «عثمان لم يُقتل» وكانت بيعة الرضوان قد رابت قريشاً، وأكدت لها تصميم هذه القلة المؤمنة، على الثبات والاستبسال. ومهما يكن من حجة قريش الجاهلية، فلسست بحيث تستبعد أن ينتصروا عليها، لو نشب قتال.

قبلها، انصروا في «بدر» وكانوا أقلّ عدداً، وكانت قريش، على عددها وعدتها أقوى أملاً في الغلبة...

كلا.. ما ينبغي أن ينسب قتال، بعد عبرة بدر التي تحدت فيها موازين القوى.

من مكة، جاء خطيب قريس «سهيل بن عمرو العامري» مبعوثاً من فريش، للمفاوضة على الصلح...

وتركت قريش لسهيل حريه التصرف، لم تسترط عليه في الصلح، «إلا أن يرجع محمد عن

مكة عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب أنه دخلها عليهم عنوةً أبدًا». ودارت المفاوضة بين المصطفى وبين مبعوث قريش، وتراضيا على أن يرجع محمد بأصحابه عن مكة هذا العام، على أن يعودوا في الموسم القابل فيدخلوها ويقيموا بها ثلاث ليال، بغير سلاح إلا سلاح الراكب: السيوف في القرب. واتفقا على هُدنة مداها عشر سنين، من جاء المسلمين فيها من قريش بغير إذن وليه ردوه إليهم، ومن جاء قريشاً من المسلمين لم يردوه. وكان أصحاب المصطفى ﷺ يتابعون هذه المفاوضة بينه ﷺ وبين سهيل بن عمرو، وقد غاب عن بعضهم مغزى شروطها وحكماتها: هدنة، تسمح للمصطفى أن يفرغ للعصابات اليهودية ويحسم شرها. ولا بأس على من يرد إلى قريش، فذاك ابتلاء لإيمانه. ولا خير فيمن يجيء قريشاً من المسلمين، فلا جدوى من رده إليهم، ولا حاجة لهم إليه.

وإذ تم التراضي على شروط الصلح ولم يبق إلا أن يكتب، وب وعمر بن الخطاب فقال لأبي بكر:

- يا أبا بكر، أليس برسول الله؟

قال الصديق: بلى.

وتابع عمر أسئلته:

«السنا بالمسلمين؟

أليسوا بالمشركين؟

فعلام نعطي الدنية في ديننا؟»

وأبو بكر، يحاول رده إلى التسليم بحكمه ما يرضى به رسول الله عليه الصلاة والسلام...

ويمضي «عمر» إلى المصطفى فيسأله مثل ما سأل أبا بكر:

- يا رسول الله، ألسب برسول الله؟

- أو لسنا بالمسلمين؟

- أو ليسوا بالمشركين؟

- فعلام نعطي الدنية في ديننا؟

وانتظر عليه الصلاة والسلام حتى فرغ صاحبه من كل ما أراد أن يقول، ثم لم يزد على أن قال:

«أنا عبدُ الله ورسولُه، لن أُخالف أمرَه، ولن بُضيعني».

ثم دعا رسولُ الله ﷺ، ابن عمه «عليّ بن أبي طالب» وأملى عليه نص وتيقّة الهدنة فكتبها^(١) وأشهد على الصلح رجالاً من المسلمين، وآخرين من المشركين... ثم قام عليه الصلاة والسلام إلى هديه فنحره، وحلق شعره. وكان قد دعا أصحابه إلى أن يفعلوا، فتردد منهم من لم يكونوا راضين عن شروط الصلح، ثم ما هو إلا أن رأوا المصطفى ينحر هديه ويحلق شعره، حتى توابوا جميعاً ينحرون ويحلقون^(٢).

وما لبنا أن أدركوا حكمة هذا الصلح الخطير الذي عدّه القرآن فتحاً مبيناً. وفيه نزلت سورة الفتح، يقول فيها تعالى لرسوله المصطفى:

﴿..... لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝^(١) وَمَغَازٍ كَثِيرَةٍ يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝^(٢) وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَازٍ كَثِيرَةٍ تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَى النَّاسَ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝^(٣) وَأُخْرَى لَمْ نَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝^(٤)﴾

(صدق الله العظيم)

بعدها كان المسير إلى خيبر، وخربت خيبر...

(١) مجد النص، في السيرة لابن هشام ٣٠٣/٣، وتاريخ الطبري: ٨٠/٣٠، وطبقات ابن سعد: ج ٢.

(٢) السيرة لابن هشام: ٣٣٣/٣.

قد أجَرْنَا مَنْ أَجَارَتْ

﴿..... عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَادْتُمْ

مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

صدق الله العظيم

هلَّ هلال المحرم من السنة السابعة للهجرة، وقد رجع المصطفى ﷺ من الحديبية، والمدينة في موقف ترقب وانتظار...

من طريق مكة، جاء رجل يسعى، عرفت فيه المدينة «أبا العاص بن الربيع» فكأنها كانت في انتظاره، ولم يكن قد مضى غير سبعة أشهر على وداعها إياه! مرَّ قريباً منها، في جمادى الأولى من السنة السادسة، في طريق عودته من الشام إلى أم القرى، في مالٍ له ولقريس، فعرضت له سرية إسلامية أصابت كل ما معه، وأفلت منها مع الفجر إلى أم ولديه، بنت خالته «زينب بنت محمد» عليه الصلاة والسلام، مستجيراً بها.

ولم تكن رضى الله عنها قد رآته منذ ودعها إلى دار الهجرة وقد فرق الإسلام بينها، بعد أن افتدته من الأسر يوم بدر، بقلادة أمها وأم المؤمنين، خالته السيدة خديجة رضى الله عنها...

وفي هداة الفجر سرى صوت زينب:

«أيها الناس، إني قد أجرتُ أبا العاص بن الربيع» فبلغ سمع أبيها عليه الصلاة والسلام وهو يصلى بالناس في مسجد المدينة، فلما سلّم سأل مَنْ حوله إن كانوا قد سمعوا ما سمع؟ أجابوا: نعم يا رسول الله.

قال: أما والذي نفس محمد بيده، ما علمتُ بشيءٍ من ذلك حتى سمعتُ ما سمعتم.

وأضاف بعد صمت قصير:

«إنه يُجبر على المسلمين أدناهم، وقد أجَرْنَا مَنْ أَجَارَتْ».

نم انصرف عليه الصلاة والسلام فدخل على ابنته وعندها ابن خالتها أبو وليها «على» وأمامة» فما كادت ترى أباهما حتى قالت توضح موقفها:

- يا رسول الله، إن أبا العاص إن قرب فابن عم، وإن بُعد فأبو ولي، وإنى قد أجرته .

قال الأب عليه الصلاة والسلام:

«أى بُنية، أكرمى مثواه، ولا يخلصن إليك فإنك لا تحلين له».

وتركها وما يديران علام استقر رأيه فيها.

ولاحت لهما من بعيد رؤيا ماضيها السعيد والشمل مجتمع والبال خلي، وتذكرت زينب أن قد طال عليهما الأمد - سنين عددًا - في انتظار تحقق أملها الذى لم تتخل عنه قط: أن يسرح الله سبحانه صدر أبي العاص للإسلام.

وسمعه يقول، كأنه يعتذر إليها:

«لقد عرضوا عليّ بالأمس أن أسلم وأخذ ما معى من أموال فإنها أموال المشركين، فأبيت وقلت: بئس ما أبداً به إسلامى، أن أخون أمانتى».

فرنّت إليه زينب، تفكر فى مغزى ما سمعت.

وفى الصبح، بعث المصطفى عليه الصلاة والسلام من صحب أبا العاص إلى المسجد، وفيه رجال الهريية الذين أصابوا مال أبي العاص، قال لهم عليه الصلاة والسلام:

«إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذى له فإننا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فى الله الذى أفاء عليكم وأنتم أحق به...».

أجابوا جميعاً: يا رسول الله، بل نرده عليه...

وتأهب أبو العاص للرحيل إلى مكة، فقال عليه الصلاة والسلام وهو يودعه:

«حدّثنى فصدقنى، ووعدى فوفى لى»

وتوقعت دار الهجرة أن يعود إليها.

وهذا هو قد عاد مع هلال السنة الهجرية السابعة.

بعد أن صفى حسابه بمكة، ودفع إلى أهلها ما خرج فيه من ماله إلى الشام، نم وقف فى الحرم المكى هناك، يسأل بأعلى صوته:

«يا معشر قريش، هل بقى لأحدٍ منكم عندى مال لم يأخذه؟»
قالوا: «لا، فجزاك الله خيراً، فقد وجدناك وفياً كريماً».

فأدار بصره فى الجمع الحاشد، ثم قال على مهل:
«فأنا أسهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، والله ما منعنى من الإسلام إلا تخوف أن تظنوا أنى إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أذاها الله إليكم، وفرغت منها، أسلمت»^(١).

وخلف القوم واجين كأنما انقضت عليهم صاعقة، وانطلق مستقبلاً دار الهجرة وكأنه معها على موعد.

اتجه فور وصوله إلى المسجد النبوى، فهلل المسلمون وكبروا حين رأوه يبائع النبى ﷺ، وحفوا به مهئين مرحين، لكنه كان مشغول البال عنهم بأمر أهم: أترى يرد إليه المصطفى ابنته الحبيبة «زينب» زوجاً، بعد الذى كان؟

وساوره قلق، ثم ذكر أن الإسلام يحب ما قبله، فتقدم إلى المصطفى ﷺ يلتمس أن يجيبه إلى حاجته فى استرجاع «زينب».

أتنى المصطفى ﷺ عليه خيراً، ثم قام ﷺ وسار إلى بيته، ومعه ابن الربيع.

ودعا إليه ابنته، فردّها على أبى العاص.

واجتمع الشمل الممزق، بعد فراق طال..

ومضى عام واحد، ثم كان الفراق الذى لا لقاء بعده فى هذه الدنيا.

ماتت «زينب» فى مستهل السنة الثامنة للهجرة، وتركت لزوجها أبى العاص ذكراها الحية، وولديها علياً وأمامة، حتى لحق بها بعد أربع سنين.

(١) السيرة ٣/٣١٣، تاريخ الطبرى: ١/٢٩٣، الاستيعاب لابن عبد البر: ٤/١٧٣ - ط الحلبي.

في فترة الهدنة مع قريش، وبعد أن تطهرت المنطقة الإسلامية من الوباء اليهودي. اتجه تفكير المصطفى ﷺ إلى نشر دعوته خارج بلاد العرب، فبعث رسلاً من أصحابه بكتب منه إلى الملوك والحكام لعهدده، يدعوهم إلى الإسلام بالحسنى، أمناً لأمر الله الذي بعثه إلى الناس كافة:

أرسل المصطفى ﷺ: «دحية بن خليفة الكلبي» إلى قيصر، إمبراطور الروم. و «عبدالله بن حذافة السهمي» إلى كسرى فارس. و «عمرو بن أمية الضمري» إلى نجاشي الحبشة. و «حاطب بن أبي بلتعة» إلى المقوقس عظيم القبط. و «عمرو بن العاص» إلى ملكي عمان. و «سليط بن عمرو» إلى ملكي اليمامة. و «العلاء بن الحضرمي» إلى المنذر العبدى ملك البحرين. و «سجاح بن وهب الأسدي» إلى الحارث الغساني بالشام. و «المهاجر بن أبي أمية المخزومي» إلى الحارث بن عبد كلال الحميري ملك اليمن.

تجربة «مؤتة» ولقاء الروم

ثم وجه المصطفى عليه الصلاة والسلام، عناه خاصة إلى بلاد الشام، حيث تم إمبراطورية الروم سلطانها إلى شمال الجزيرة العربية، وفرض نفوذها المادي والمعنوي على أهل المنطقة، بالبطش والإرهاب.

وفي جمادى الأولى من سنة ثمان للهجرة، جهز ﷺ جيشاً لغزوة مؤتة، أول غزوة سيرها المصطفى ﷺ إلى خارج بلاد العرب، تأميناً لحدودها ن ناحية الروم، وتدريباً لجند الإسلام على لقاء عدو ذي صولة و صلف، واتجأها بالدعوة الإسلامية إلى ما وراء الحدود.

واختار ﷺ «زيد بن حارثة» أميراً على الجيش وقال: «إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب فعبد الله بن رَوَاحَة على الناس».

كان عددهم ثلاثة آلاف، أسلحتهم الحربية السيوف والقسي والرماح والنبيل والسهم، وزادهم التمر والخبز الجاف وما قد يتيسر لهم من صيد.

وساروا حتى نزلوا «معان» من أرض الشام فبلغهم أن «هرقل» قد نزل مآب من أرض البلقاء، في مائة ألف من الروم، انضمت إليهم ألوف وألوف من نحم وجذام والقين وبهاء وبلي.

وتساور المسلمون في خطر الموقف، وكان رأى عدد منهم ألا يجازفوا بقاء الروم في معركة تفنى جند الصحابة، وأن يكتبوا إلى الرسول ﷺ، عسى أن يدهم بالرجال أو يأمرهم بالعودة إلى المدينة.

لكن «عبد الله بن رواحة» أبي إلا أن يتقدموا للقتال، قال: «يا قوم، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون: الشهادة. وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور وإما شهادة».

هتف جند الإسلام: قد والله صدق ابن رواحة.

ومضوا حتى إذا بلغوا تخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل، فأنحاز المسلمون إلى قرية «مؤتة»^١ وقاتل «زيد بن حارثة» بلواء المصطفى حتى استشهد، فتلقى جعفر بن أبي طالب اللواء بيمينه، فقاتل به حتى قُطعت، فأخذه بسماله حتى قطعت، فاحتضنه بعضديه حتى استشهد. وتلقى اللواء من بعده «عبد الله بن رواحة» فما تخلى عنه حتى استشهد، فكانت له إحدى الحسينين التي أراد.

واختار المسلمون «خالد بن الوليد» قائداً فلم ير أن يعرض جنده للهلاك، وظل يدافع الروم في بسالة ومهارة وهو ينحاز بجنده حتى نجا بهم، لم يتركوا من ورائهم غير ثمانية شهداء، كانت دماؤهم الزكية هي التي مهدت أرض الشام للفتح الإسلامي بعد نحو من عشر سنين!

استقبلت المدينة الجيـش العائد من مؤتة بالغضب والإنكار، وجعل الناس يحنون التراب على جنود خالد بن الوليد ويقولون:

- يا فُرَّار، فررتُم في سبيل الله؟

والمصطفى ﷺ يرد عنهم الناس ويقول:

«ليسوا بالفُرَّار، ولكنهم الكُرار إن شاء الله».

ويضي وقت، نحو شهرين: جمادى الآخرة ورجب، في بطن مرهق بالتوتر، وعلى الأفق نذر.

المسير إلى مكة

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝ ﴾

صدق الله العظيم

لم يكن هناك يهود يلوكون حديث مؤتة، ولكن المنافقين كانوا هناك في صميم المجتمع المدني، لا يكتمون شماتهم ولا يكفون عن سخرية بما حسبه تطاولاً من المؤمنين إلى تخوم الروم. وقريش تزاد حمفاً وتطاولاً، فنظاهر بكرّاً على خزاعة وترفدها بالسلاح، لا تبالى عهد الحديبية، وفيه النص على «أنه من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ فليدخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه».

وخزاعة كانت قد اخذت الدخول في عهد الرسول وحلفه، فبئتها «بكر» بالوتير، وأمعن فيها قتلاً بسلاح قريش!

وعهل المصطفى ﷺ، لعل فريشاً ترجع عن غيها فيما نقضت من عهد الحديبية، بما ظاهرت بكرّاً على خزاعة، وهى في عقد الرسول وعهده!

«المدينة» تهدر بالغضب والقلق والترقب.

والمصطفى هناك قد أخذ مجلسه بين أصحابه في مسجده، وما بدرى أحد خطوه البالة.

وفجأة، تعلف الأبصار برجل، يشق طريقه في زحام الناس حتى يصل إلى مجلس الرسول ﷺ، فبقف عليه، ويلتقط أنفاسه من سفر بعيد.

• عرف المهاجرون فيه «عمرو بن سالم الخزاعي»

وانتظروا ماذا يكون من أمره، فانصرف عمرو عنهم وابتدر المصطفى ينسده مرجحاً:

يا ربِّ إني ناسدٌ محمدًا
 حلفَ أبينا وأبيه الأتلا
 قد كنتم ولدًا وكنا والدا
 تمَّ أسلمنا فلم ننزعْ يدا
 فانصرَ هداك الله نصرًا اعتدا
 وادعُ عبادَ الله يأتوا مددا
 فيهم رسولُ الله قد تجردا
 إن سيم خسفًا وجهه ترربدا
 في فيلقٍ كالبحرٍ يجري مزبدا
 إن قريسا أخلفوك الموعدا
 ونقضوا ميثاقك المؤكدا
 وزعموا أن لست أدعو أحدا
 وهم أذلُّ وأقلُّ عددا
 هم يبتوننا بالوتير هجدا
 وقتلوننا رُكعًا وسجدا

قال عليه الصلاة والسلام:
 «نُصِرْتُ يا عمرو بنَ سالم».
 ثم قام يتجهز لفتح مكة...^(١)

الوقت مساء..

• والمدينة ساهرة تحتشد للتعبة، وقد أوسك جُندُ الإسلام على المسير إلى مكة.
 ووافدٌ من مكة جاء يسعى حميا حتى بلغ بيت أم المؤمنين «أم حبيبة، رملة بنت أبي سفيان»
 في دُور النبي المحبطة بمسجده.
 واستأذن فدخل، وأمُّ المؤمنين لا تكاد تصدق أنه والدها «أبو سفيان بن حرب»!

(١) السيرة: ٣٦٤ وتاريخ الطبري، السنة الثامنة هـ.

هل جاء مبيعاً، بعد أن طال ضلاله وأهلك قومه؟
لو كان قد جاء مسلماً، لما تردد في أن يعجل إليها بالبشرى، فيضع حداً لما كابدته من هم، في موقفها بين زوجها وأبيها.
وقد كان الموقف صعباً:

من قبل أن تنسرف «رملة» بالزواج من المصطفى، آمنت به نبياً مع زوجها الأول «عبيد الله بن جحش» وهاجرت معه إلى الحبسة. فلم يلبث أن ارتد عن الإسلام، وتركها تكاد تموت بقرها، لولا أن واساها عليه الصلاة والسلام، وشرفها بأن أرسل إلى ابن عمه «جعفر بن أبي طالب» فخطبها إليه في بلد النجاشي.

وعادت من مهاجرها مع جعفر، يوم فتح خيبر، وأخذت مكانها الرفيع في بيت النبي، فما كانت امرأة أعز منها بزواج وأسقى باباً!

فإن لم يكن أبوها فد جاء من مكة مبيعاً، فلعله موفد من مشركي قريش، يتوسل بابتته إلى زوجها نبي الإسلام، ليجدد الهدنة التي نقضها القرشيون!

وانتظرت أم المؤمنين، لم تدع أباهما إلى الجلوس حتى تعلم فيم جاء!
وتقدم هو من تلقاء نفسه، فهم بالجلوس على فراش هناك، فسبقته إليه أم المؤمنين وطوته عنه.

سألها وهو يتجاهل مغزى ما فعلت:
- يا بنية، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟
فما راعه إلا أن أجابت:
«بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراشه ﷺ».
قال أبو سفيان مقهوراً:
- والله يا بنية، لقد أصابك بعدى سر!^(١)

وخرج بحسرتة، فإذا رسول الله ﷺ في المسجد مع جمع من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر.
ووقف بين يدي المصطفى ﷺ، يعتذر عن قريش ويسأله أن يستبقى الهدنة، فما رد عليه المصطفى ﷺ بكلمة.

(١) السيرة: ٣٨/٤، تاريخ الطبري ١١٢/٣. السمط الثامن ١٠٠.

وانتجه أبو سفيان إلى الصديق أبي بكر، يرجوه في أن يكلم النبي عليه الصلاة والسلام،
فما زاد الصديق على أن قال: «ما أنا بفاعل!».

والتمس أبو سفيان الشفاعة عند الرسول، من عمر بن الخطاب، فكان ردُّ عمر:
«أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذرَّ لجاهدتكم به!».
ونقل أبو سفيان بصره في القوم، فما وجد إلا الصد والجفاء.

وقاوم يأسه، فخرج متعثرًا في حيرته حتى بلغ بيت «علي بن أبي طالب» صهر المصطفى
وابن عمه، فقصَّ عليه ما كان من أمره مع ابنته رملة، ثم مع الرسول وصاحبيه أبي بكر وعمر.
وقال يستنجد بابن أبي طالب، ويذكر جدَّهما «قصي بن كلاب» والد عبد مناف
وعبدشمس:

«يا علي، إنك أُمُّ القوم بي رحماً، وإني قد جئتُ في حاجة فلا أرجعُ كما جئتُ خائبًا،
فأنسُف لي إلى صهرك وابن عمك».

ردُّ علي، كرم الله وجهه:

«ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم الرسول ﷺ على أمرٍ ما نستطيع أن نكلمه فيه».
فالتفت أبو سفيان إلى «الزهراء»، وكان حتى هذه اللحظة صامته لا تشارك في حديث، فقال
لها وهو يشير إلى ابنها «الحسن بن علي» سبط النبي:
«يا ابنة محمد، هل لك أن تأمرى بُنَيْكَ هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر
الدهر؟».

ردت الزهراء رضي الله عنها:

«والله ما بلغ بُنَى أن يجير بين الناس، وما يجير أحدٌ على رسول الله ﷺ».

ولم يبق إلا أن ينصرف...

غير أنه لم يكن يدرى إلى أين، وقد أوصدت الأبواب في وجهه. وتمهل برهة فقال لعلي:
- يا أبا الحسن، إنني أرى الأمور قد اشتدت علي، فأنصحني.
قال علي:

«والله ما أعلم لك شيئًا يغني عنك شيئًا، ولكنك سيد في بني كنانة، فقم فأجر بين الناس ثم
الحق بأرضك».

سأله:

«أو ترى ذلك مغنياً عنى شيئاً؟».

فرد على:

«لا والله ما أظنه، ولكنى لا أجد لك غير ذلك»^(١).

(١) السيرة: ٣٩/٤ - تاريخ الطبري: ١١٣/٣، من طريق ابن إسحاق.

الفتح

على ناقته «القصواء» التي خرجت به من غارٍ بور، قبلَ ثمانى سنين، طريداً مستخفياً مهاجراً، أعزلٍ إلا من إيمانه، ليس معه غير صاحبه أبى بكر، والله تالئها...

سار من دار الهجرة لعشرٍ خلون من شهر رمضان، السنة الثامنة للهجرة فيبلغ ﷺ مكةَ يومَ الفتح، في عشرةِ آلافٍ من جند الإسلام، حزب الله...

وفتحت أم القرى قلبها للنبي العائد، ومن معه من أبنائها المهاجرين وأصحابه الأنصار... ولم يَدُرْ يومها قتال، وكأنما عاشت أم القرى في انتظار هذه اللحظة التاريخية، لتتحرر من أغلال الوثنية.

وكانما كان أهلها، جيرة الحرم الأقدس، يتطلعون إلى اليوم الذى يكفون فيه عن حرب عقيم، بعد أن فقدوا إيمانهم بالأوثان التى حاربوا من أجلها، فما أغنت عنهم شيئاً!

وعلى راحلته، طاف عليه الصلاة والسلام بالبيت العتيق سبعا، وسط الجموع الحاشدة من الناس، ثم ترجل فدخل البيت خاشعاً، وقام يصلى بالمسلمين فى الحرم المكى الذى تطهر يومئذ من رجس الأوثان. وفى (عيون الأثر) من طريق أبى القاسم الطبرانى من حديث ابن عباس، رضى الله عنها، أنه ﷺ دخل مكة يوم الفتح وعلى الكعبة ثلاثمائة وستون صنبا، أهوى عليها بقضيب فى يده فتهاتت واحدا بعد الآخر، وهو يقول: ﴿جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾.

وفتحت له الكعبة فدخلها، ثم وقف على بابها وقال: «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده». والجموع من حوله تردد الدعاء، فتخشع له صم الجبال.

وخطبهم ﷺ خطبة الفتح، فقال فيها قال: «يا معشر قريش، إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية ويعظمها بالآباء. الناس من آدم وآدم

من تراب. ثم تلا قوله قوله تعالى : ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ..﴾ الآية..

ثم قال ﷺ :

«يامعشر قريش، ماذا ترون أنى فاعل بكم؟» قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم. فقال عليه الصلاة والسلام :
« اذهبوا فأنتم الطلقاء»

وفي رواية لابن سعد في (الطبقات الكبرى) أن رسول الله ﷺ أمر بلالا فأذن فوق ظهر الكعبة، ووقف عليه الصلاة والسلام مشرفاً على مكة يستقبلها بمثل ما ودعها به ساعة الهجرة منها، قال ﷺ : «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إليه وإلى، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت».

وفى كان بعد الفتح واقفا على الصفا يدعو، وقد أهدت به الأنصار، قالوا فيما بينهم .
«أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده، يقيم بها؟» فلما فرغ ﷺ من دعائه التفت إليهم فسألهم عما كانوا يتكلمون به.. ثم قال : «معاذ الله، المحيا يحياكم والمماتُ مماتكم».

لكنه تمهل في العودة إلى دار الأنصار، ربنا يقضى على فلول الوثنية الناسبة في بعض القبائل حول مكة، فبث سراياه إلى الأصنام التي حول مكة فكسرها، منها : العُزَّى وسُواع وذو الكفين...

والشعراء في مواضعهم في الميدان يسجلون أحداث الفتح.

ويعبرون عن وجدان أم القرى وقد انتقل شعراؤها من مسلمة الفتح إلى الجبهة الإسلامية جُنْدًا لله ولرسوله.

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾

ترددت في أفق مكة، عقب الفتح. سائعات عن احتشاد «هوازن وثقيف» ومن والاهما، لحرب المسلمين وهم بمكة غير بعيد. فبعث ﷺ من أصحابه مَنْ جاءه بالنبا اليقين: أنهم أجمعوا على حرب رسول الله ﷺ والذين آمنوا معه.

وخرج المصطفى ﷺ في غزوة حنين إلى هوازن في الآلاف العشرة الذين شهدوا معه فتح مكة، ومعهم ألفان من أهل مكة. وكادت مأساة «أحد» تتكرر..

بلغ القائد الرسول ﷺ بجنده منحذرا في وادٍ من تهامة، سبقهم إليه المشركون من هوازن وأحلافها، فكمنوا لهم في شُعابه وأحناثه ومضايقه، ثم انحطوا بغتة في عَمَاية الصبح، فستدوا عليهم، فولوا راجعين لا يلوى أحدٌ على أحد، لم يبق منهم مع المصطفى ﷺ سوى نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته.

يومها تكلم رجال من المنافقين ومن المكيين حديثي العهد بالإسلام بما في أنفسهم من الضغن، وقال أبو سفيان في شماته: لا تنتهى هزيمتهم دون البحر.

وعقب آخر، جبلة بن الحنبل: ألا بطل السحر اليوم!

وبطل السحر حقا، لكنه سحر الغفلة والضلال.

تدارك المصطفى ﷺ الموقف، فأمر عمه «العباس بن عبد المطلب» - وكان جهير الصوت - فصاح بالمسلمين يستنفروهم للجهاد مع نبيهم المصطفى ﷺ، ويسترجمهم إلى أماكنهم حوله، وإنَّ واحدة من الصحابيَّات «أم سليم بنت ملحان» لَتَبَّتْ مع القلة المؤمنة وإنها لحاملٌ بعبدالله بن أبي طلحة، وقد حزمت وسطها ببرْدٍ لها تتقى الإجهاض، ومعها خنجر مشهر، فيقول ﷺ: «أم سليم»؟

وتجيب: نعم، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، اقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك، فإنهم لذلك أهل.

(١) السيرة لابن هشام ١٤٣/٤، طبقات ابن سعد ٩٨/٢.

قال ﷺ: «أو يكفى الله يا أم سليم؟»^(١).
ويسألها زوجها أبو طلحة: ما هذا الخنجر معك يا أم سليم؟ أجابت: خنجر أخذته، إن دنا
منى أحد من المشركين بَعَجْتُهُ به..

وعاد المسلمون على صوت النفير، والتحم الفريقان وحى الوطيس، فكان النصر للمؤمنين.
وكانت تجربة أخرى، يُذكرهم الله بها بعد غزوة تبوك، في السنة التالية، التاسعة للهجرة،
فيقول تعالى في سورة التوبة:

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كُنُوزُهُمْ
فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَبَحْتُمْ لَهَا وَإِنَّ
مُؤَيَّدِينَ ⑤ لَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ
وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ
الْكَافِرِينَ ⑥ لَقَدْ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ⑦

(صدق الله العظيم)

بعد الملحمة، سار النبي ﷺ والآلاف من جنده إلى (الجعرانة) في طريقة لقضاء عمرته
الأولى بعد الفتح. ومعهم سبى هوازن وغنائم حنين، فتمهل ﷺ في قَسَمِ السبى، متوقعا أن يقدم
وفدهم لفداء هذا السبى. وقسم الأموال، فزاد في عطاء كبار المكيين، مسلمة الفتح.

وصح ما توقعه النبي عليه الصلاة والسلام: قدم وفد هوازن، أربعة عشر رجلا، يتقدمهم
«زهير بن صرد الجُسنمي» شاعرهم، وأبوبرقان السعدى، عم المصطفى عليه الصلاة والسلام،

(١) السيرة: ٨٨/٤.

من الرضاة - فسألوا النبي ﷺ أن يمن عليهم بالسبي، وتوسلوا إليه بما لهم من حق الرحم، إذ أرضعته السيدة حليلة السعدية. وقال قائلهم: إن في الحظائر - مستودع السبي - عماتك وخالاتك يا رسول الله، وأنشد زهير قصيدته التي مطلعها:

امتُّن علينا رسول الله في كرم * فإنك المرء نرجوه وننتظر
وذكره فيها بالعمات والخالات من بني سعد، من هوازن، قال عليه الصلاة والسلام:

«ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم» وقالت قريش - سوى نفر قليل - : ما كان لنا فهو لله ولرسوله، وقالت الأنصار: ما كان لنا هو لله ولرسوله.

* * *

ومن منازل الأنصار خرجت قالة تعبر عن ضيقهم وقلقهم لما رأوا من سخائه في عطاء المؤلفة قلوبهم.

قالوا: «لقد لقي والله رسول الله ﷺ قومه».

وبلغت قالتهم سمع المصطفى ﷺ، نقلها إليه «سعد بن عباد» شاكيًا له ﷺ ما تجد الأنصار من قلق وضيق.

سأله المصطفى ﷺ:

«فأين أنت من ذلك يا سعد؟»

وردّ نقيب الأنصار: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي،

فلم يضق ﷺ بصاحبه، بل طلب إليه أن يجمع له قومه من الأنصار، ثم خرج إليهم المصطفى ﷺ فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«يا معشر الأنصار، ما قالة بلغتني عنكم وجدةً وجدتموها عليّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلّالا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداءً فألف بين قلوبكم؟».

أجابو: بلى، الله ورسوله أمّن وأفضل.

سألهم ﷺ: «ألا تحببوني يا معشر الأنصار؟».

فسألوا بدورهم: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل.

قال ﷺ: «أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتهم ولصدقتهم: أتيتنا مكذبًا فصدقناك، ومخذولًا فنصرناك، وطريدًا فأويناك، وعائلاً فأسيناك.. أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم، في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن

يذهب الناس بالشاة والبعر وترجعوا برسول الله إلى رجالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت أمراً من الأنصار، لو سلك الناس سبيلاً وسلكت الأنصار تبعاً، لسلكت سبب الأنصار! اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وهتفوا جميعاً بصوت واحد: «رضينا برسول الله ﷺ قسماً وحظاً».

وقضى ﷺ عمرته في ذي القعدة من السنة الثامنة، وعاد إلى دار هجرته في رحل الأنصار.

استقبلت المدينة ركب المصطفى ﷺ منصرفة من الفتح وحنين ظافرا منصورا، وفي كتيبة الصحابة الشعراء رضى الله عنهم «بُجير بن زهير بن أبى سلمى».

وفي حزب المشركين أخوه «كعب بن زهير» وفي السيرة أن بجيرا أسفق على أخيه فكتب إليه يحذره من مثل مصير من حارب الإسلام وأذى النبي ﷺ، وقال ينصحه: «إن كانت لك في نفسك حاجة فطُرْ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه يعفو عمن جاءه تائباً» وكان كعب قد قال يخاطب أخاه في قصيدة بعث بها إليه:

ألا أبلغا عني بجيرا رسالة	فهل لك فيما قلت ويحك هل لكا
فبين لنا إن كنت لست بفاعل	على أى سىء غير ذلك دَلْكا
على خُلُقٍ لم تُلفِ أما ولا أبا	عليه ولم تدرك أخا لكا

فردَّ عليه بجير:

مَنْ مُبلغٍ كعبا: فهل لك فى التى	تلوم عليها باطلا وهى أحزَمُ
إلى الله، لا العُزَّى ولا اللات، وحده	فتنجو إذا كان النجاء وتسلم
لدى يوم لا ينجو وليس بمفلتٍ	من النار إلا طاهر القلب مُسلم

فلما بلغ كعبا كتاب أخيه، ضاقت به الأرض وأشفق على نفسه وأرجف به المرجفون أنه مقتول، فنظم لاميته المشهورة [بانت سعاد]^(١) المِدْحَةُ النبوية الكبرى وقدم بها المدينة خفية فنزل على رجل يعرفه من جهينة. فغدا به إلى النبي ﷺ حين صلى الصبح، واستأمنه إذ جاء تائبا مسلما، فأمنه ﷺ وأذن له فأنشده مدحته، فخلع عليه المصطفى برده وانضم كعب إلى كتيبة الصحابة الشعراء رضى الله عنهم.

(١) النقل من (عيون الأثر) من طريق ابن اسحاق، وبها خمسة وخمسون بيتا، مع شرح الغريب من ألفاظها.

٣ - المنافقون . . . والفاضة

﴿..... وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبًا وَلَا نَقْمَ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ﴾ (٨٤) ﴿٨٤﴾
صدق الله العظيم

استغرقت تلك الأحداث الكبار، ما بين غزوة مؤتة وفتح مكة وغزوة حنين، شهور السنة النامنة للهجرة، من جمادى الأولى إلى ذى القعدة.

واعتمر المصطفى وعاد إلى المدينة كوعده للأناص، فأقام بها إلى آخر صفر من سنة تسع، وقد نجّم النفاق هناك وكثر الحديث عن «مؤتة» يلوك المنافقون فيه ما كان من غلبة الروم، ويتندرون بسذاجة الآلاف الثلاثة من المسلمين، يطمعون في منازل الإمبراطور هرقل، في مائة ألف من جنده!

وآن الأوان لتطهير دار الإسلام من جيوب النفاق التي كانت تهدده في الصميم، بعد أن انتصر على المشركين من العرب والأعداء من يهود.

لقد كمن السُّمُّ في أول الأمر، وإن ظهرت بوادر منه في مثل إصرار «عبد الله بن أبي ابن سلول» على أن يُجِير مواليه من يهود بنى قينقاع؛ وانخداله بمن معه من منافقى المدينة، عن جند المصطفى ﷺ يوم أُحُد؛ ثم نشاطه الخبيث في فرية الإفك الذى تولى كبره.

وتتابعت البوادر مع ثقل أعباء الجهاد وتكاليفه، في غزوة الأحزاب وغزوة مؤتة، ويوم حنين، دون أن يملك أحد أن ينفى المنافقين عن الإسلام وهم بتظاهرون به ويشهدون بالسنتهم أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، يحقنون بهذه الشهادة دماءهم ويعتصمون بها من أن يرجعهم مؤمن بلعنة الردة.

والتوايا لله، هو وحده الذى يعلم سرهم ونجواهم فليس للرسول إلا أن يكلهم إليه سبحانه، يحمى دينه منهم ويكتشف المستور من كفرهم. وقد جاءت «غزوة تبوك» فمزقت أقمعتهم، بعد أن توالى النذر، منبهة إلى أن النفاق قد تمكن من مرضى القلوب حتى صار داءً عيائاً لا يجدى فيه غير البتر والتطهير.

فى مستهل رجب من السنة التاسعة للهجرة، أمر المصطفى أصحابه بالتهؤ لغزو الروم، تثبيتاً لجند الله فى لقاءٍ عدو مرهوب، وليزيل التهيب الذى تركته التجربة الأولى فى مؤنة. وأراد الله سبحانه أن تكون هذه الغزوة تمحيصاً لإيمان المؤمنين، وفاضحةً لزيف المنافقين المحسوين على الإسلام زوراً وادعاءً.

ولم يكن من عادة الرسول القائد، أن يصرح بوجهته فى كل مرة يخرج فيها بأصحابه للجهاد، بل يكتفى بالتكنية عنها، تدريباً لجند الإسلام على الامتثال لأمر الله والرسول. لكنه فى هذه المرة، صرح بوجهته لم يكن عنها، لبعدها المسير وشدة الوقت وكثرة العدو الذى يصمد له، حتى يتأهب المسلمون لذلك أهبتهم^(١).

وذلك فى زمانٍ من عسرة الناس وسدة من الحر، وحين طابت الثمار بعد جذب، فطاب للناس المقام فى ثمارهم وظلالهم.

وبدأ المنافقون منهم ينتحلون الأعذار للتخلف والقعود، حتى إن أحدهم ليقول للمصطفى: يا رسول الله، أو تأذن لى ولا تفتنى؟ فوالله لقد عرف قومى أنه ما من رجل بأشدَّ عجباً بالنساء منى، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر - الروم - أن لا أصبر! فأعرض عنه ﷺ وقال: «قد أذنت لك».

ومشى بعضهم إلى بعض، يتواصون بالقعود قائلين: «لا تنفروا فى الحر».. زهداً فى الجهاد وشكاً فى المصير، وإرجافاً برسول الله ﷺ. وانبث نفر منهم فى أحياء المدينة يُخلدون قومهم ويقولون: «أتحسبون جلاذ بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً؟».

(١) تفصيل الحديث عن غزوة تبوك، فى: السيرة: ١٥٩/٤، والجزء الثانى من طبقات ابن سعد، والثالث من تاريخ الطبرى.

ولكن هؤلاء وهؤلاء، لم يبلغوا من التخذيل والإرجاف، ما بلغته مكيدة كبرهم «عبدالله بن أبي»: لقد وجد اللعين فرصة العمر التي طال انتظاره لها، فنظاها بالتأهب للخروج، وجمع إليه حسداً من شيعته أهل النفاق ومن اغتر بهم، ثم ضرب عسكره على حدة وانتظر حتى تمت التعبئة للجهاد وخرج المصطفى ﷺ بجنده من مكة، وما يشك أحد في أن «ابن أبي ابن سلول» ماضٍ وراءه بعسكره، ولم يكن أقل العسكرين!

لكن الخبيث تحرك، لا إلى الشمال في طريق الجيش المجاهد، وإنما انحاز بعسكره من أسفل مكة إلى الطريق المضاد!

ومضى المصطفى ﷺ بالمؤمنين من جند الإسلام، وتخلف كل المنافقين، وتخلف معهم نفر قليل من ذوى العذر، ومن استنقلوا العباء، عن غير شك ولا نفاق!

في الطريق، لحق بالمصطفى ﷺ من لم يطيقوا القعود وهم عذر فيه. منهم اثنان من البكائين، وهم سبعة من الصحابة التمسوا من رسول الله ﷺ أن يحملهم وكانوا أهل حاجة، فقال ﷺ: «لا أجد ما أحملكم عليه».

﴿فَتَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾. وحدث أن مرَّ اثنان منهم بـابن عمير بن كعب النضري، وهما ييكبان، فسألها عن أمرهما فقالا: - جئنا رسول الله ﷺ ليحملنا فلم نجد عنده ما يحملنا عليه، وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج معه.

فأعطاهما بعيراً له، وزودهما شيئاً من تمر، فارتحلا البعير ولحقا بجند المصطفى.. وكذلك لحق بهم من صحا ضميره من غفوته، فكره أن يقعد مع القاعدين وليس من أهل النفاق.

في الخبر أن «أبا خزيمة الأنصاري، مالك بن قيس» رجع ذات يوم حاراً بعد مسير الرسول ﷺ بأيام. فوجد امرأتين له في عريشين ببستانه، قد رشت كل منهما عريشها وبردت له فيه ماء، وهيات له طعاماً؛ فلما رأى ذلك كله أنكره، وقد يحدث نفسه: - رسول الله ﷺ في الضح والريح والحر، وأبو خزيمة في ظل بارد وطعام مهيب وامرأة حسنة، في ماله مقيم؟ ما هذا بالنصف؟!.

نم التفت إلى امرأته وقال:
«والله لا أدخل عريشَ واحدٍ منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ، فهيناً لى زاداً».
وركب راحلته، وخرج يُغذُّ السيرَ حتى لحق بجند الإسلام في تبوك^(١).

وفي الطريق أيضاً، تخلف الرجلُ بعد الرجل، من خرجوا في أول الأمر مُكرهين، ثم استتقلوا مسقاةً السفر وعبءَ الجهاد.

ويقول الصحابة للمصطفى ﷺ وهو ماض في طريقه إلى وجهته:
- يا رسول الله، تخلف فلان...

فيقول عليه الصلاة والسلام:
«دعوه، فإن يك فيه خيرٌ فسيُلقه الله تعالى بكم. وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه».
حتى قيل له مرة:

- يا رسول الله، قد تخلف «أبو ذرٍّ» وأبطأ به بغيره.

فقال المصطفى ﷺ، مثل ما كان يقوله في الرجل يتخلف.

لكن أبا ذر لم يتخلف مختاراً، وإنما خذله بغيره بعد أن أبطأ به، فما كان منه رضى الله عنه إلا أن أخذ متاعه فحملة على ظهره، ومسى يتبع أثر الركب المجاهد، فبينما رسول الله ﷺ في منزل ببعض مراحل الطريق، نظر أحد الصحابة فلمح من بعيد شخصاً يمشى، فقال:

- يا رسول الله، إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده.

قال عليه الصلاة والسلام وهو ينظر إلى الجهة التي يتسير إليها صاحبه:
«كُنْ أبا ذر».

فلما تأمله القوم، قالوا: يا رسول الله، هو والله أبو ذر!

ورد المصطفى: «رحم الله أبا ذر، يمشى وحده، ويموت وحده، ويُبعث وحده...»^(١).

(١) السيرة النبوية: ١٦٤/٤، والإصابة في الكنى.

(١) السيرة: ١٦٧/٤، وانظر أبا ذر الغفاري في طبقات الصحابة.

بلغ المصطفى ﷺ بجنده المؤمنين مدينة «تبوك».

وهناك أتاه «يُوحَن» صاحب أيلة، فصالح نبي الإسلام وأعطاه الجزية.

وكذلك أتاه أهل جرباء وأذرح، فصالحوه على الجزية.

وتخلف «أكيدر بن عبد الملك النصراني» صاحب «دومة» فندب له المصطفى «خالد بن الوليد» في كتيبة من جنده. فأخرج «أكيدر» أخاه في فرسان دومة للقاء كتيبه خالد، ودار قتال سقط فيه أخو أكيدر قتيلاً، وانهزم فرسانه...

وعاد خالد بن الوليد إلى معسكر المسلمين، ومعه «أكيدر» قد نُزِعَ عنه قباؤه، وكان من ديباج مخصوصٍ بالذهب.

قال المصطفى ﷺ وقد رأى أصحابه يلمسون القباء بأيديهم ويعجبون منه: «أتعجبون من هذا؟ فوالذي نفسى بيده، لمناديل سعد بن معاذ في الجنة، أحسن من هذا».

ثم أطلق المصطفى ﷺ صاحب دومة، بمصالحة على الجزية.

ورجع المصطفى ﷺ إلى المدينة، بعد أن بنى مسجدًا في «تبوك» وأقام بها بضع عشرة ليلة، لم يجاوزها إلى ما وراءها من أرض الروم.

فماذا عمن تخلفوا بالمدينة لم يخرجوا للجهاد؟

أتاه المنافقون منهم، يخلفون له ويعتذرون، فلم يملك ﷺ إلا أن يقبل ظاهر عذرهم، مفوضاً أمرهم إلى العليم بما يسرون وما يعلنون.

وأما الذين تخلفوا تكاسلاً، عن غير شك ولا نفاق، فلم يجدوا ما يعتذرون به، وكرهوا أن يضيفوا إلى ذنب القعود عن الجهاد، وزر اختلاق عذرٍ يقدمونه إلى الرسول ﷺ، كما فعل المنافقون.

وأنكر ﷺ موقفهم، ونهى أصحابه أن يكلموا أحداً منهم حتى يقضى الله فيهم، وكانوا ثلاثة: «كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية» صدقوه القول أن لم يكن لهم عذر.

ونبذهم المجتمع الإسلامي نبذاً أليماً، وكابدوا من تأنيب النفس اللوامة، ما الموت أهون منه وأرحم، وأترك لأحدهم «كعب بن مالك الأنصاري» وصف محنته وصاحبيه، فيسأ روى ابن اسحاق بالسيرة النبوية، عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب، عن أبيه قال:

«ما تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط، غير أني تخلفت عنه في بدر، وكانت غزوة لم يعاتب الله ولا رسوله أحداً تخلف عنها...»

«ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ العقبة وحين تواتقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت غزوة بدر هي أذكر في الناس منها - يعني: من العقبة.

«وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة...»

«وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، فغزاها ﷺ في حر شديد واستقبل سفراً بعيداً، واستقبل غزو عدو كثير، فجلى للناس أمرهم ليتأهبوا لذلك أهبة، والمسلمون كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ - أي ديوان مكتوب - فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له ذلك، ما لم ينزل فيه وحى من الله...»

«فتجهز رسول الله ﷺ وتجهز المسلمون معه، وجعلت أغدو لأتجهز معهم فأرجع ولم أقض حاجة فأقول في نفسي: «أنا قادر على ذلك إذا أردت» فلم يزل ذلك يتمادي بي حتى سمر بالناس الجهد فأصبح ﷺ غادياً والمسلمون معه، ولم أقض من جهazy شيئاً، فقلت: «أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحق بهم». فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئاً، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً. فلم يزل ذلك يتمادي بي حتى أسرعوا وتفرط الغزو - يعني فات وسبق - فهممت أن أرتحل فادركهم، وليتني فعلت، فلم أفعل.

«وجعلت إذا خرجت في الناس بالمدينة بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم، يحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مطعوناً عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء.

«ولم يذكرني ﷺ حتى بلغ تبوك؛ فقال وهو جالس في القوم: «ما فعل كعب بن مالك؟» فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله، حبسه برداه والنظر في عطفيه. فقال له معاذ بن جبل: بش ما قلت! والله يا رسول الله ما علمنا منه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ.

«فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك، حضرنى بتي، فجعلت أتذكر الكذب وأقول: «بماذا أخرج من سخطه رسول الله ﷺ غداً؟» وأستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي، فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادمًا، زاح عني الباطل وعرفت أني لا أنجو

إلا بالصدق، فأجمعتُ أن أصدقَه. وصبح رسول الله المدينة، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل جاءه المُخلفون فجعلوا يحلفون له ويعتذرون، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً. فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وأيمانهم ويستغفر لهم، ويكلُ سرائرهم إلى الله تعالى. حتى جئت فسلمت، فتبسم تبسمَ المغضب، ثم قال لي: «تعاله» فجئت أمتسى حتى جلست بين يديه فقال لي:

«ما خلُفك؟ ألم تكن ابعتَ ظهرك؟».

قلت: إني يا رسول الله، والله لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا لرأيتُ أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطيْتُ جدلاً. ولكنَّ والله لقد علمتُ لئن حدثتُك اليوم حديثاً كذباً لترضين عني، ولْيُؤتِيَنَّكَ اللهُ أن يُسخطَكَ عليَّ، ولئن حدثتُك حديثاً صدقاً تجدُ عليَّ فيه، إني لأرجو عُقباى من الله فيه. لا والله ما كان لي عذرا والله ما كنت قط أقوى ولا أيسرَ مني حين تخلفت عنك..

فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدقت فيه، فقم حتى يقضى الله فيك».

فقممت، وتار معي رجال من بني سلمة فاتبعوني؛ فقالوا لي:

- والله ما علمناك كنتَ أذنبتَ ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت عن أن لا تكون اعتذرتَ إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفارُ رسول الله ﷺ لك.

«فوالله ما زالوا بي حتى أردتُ أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسي. ثم قلت لهم:

- هل لقي هذا أحدٌ غيري؟

قالوا: نعم، رجلان قالوا مثلك: مرارة بن الربيع، وهلال بن أمية الواقفي.

«فذكروا لي رجلين صالحين فيهما أسوءُ، فصمتُ حين ذكروهما لي. ونهى رسولُ الله ﷺ عن كلامنا أيما الثلاثة، من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرتُ لي نفسي والأرض، فما هي بالأرض التي كنتُ أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتها، وأما أنا فكنتُ أشبُّ القوم وأجلدهم، فكنتُ أخرج وأشهد الصلوات مع المسلمين وأطوف بالأسواق ولا يكلمني أحد، وآتى رسولُ الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي: «هل حركَ تنفثيه يرد السلام عليَّ أو لا؟» ثم أصلى قريباً منه فأسارقه النظر، فإذا أقبلتُ على صلاتي نظر إليَّ، وإذا التفت نحوه أعرض عني.

«حتى إذا طال ذلك عليَّ من جفوة المسلمين، مشيت حتى تسورت جدار حائط «أبي قتاده»

وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ، فسلمت عليه فوالله ما ردّ عليّ السلام. فقلت:
 - يا أبا قتادة، أنشدك بالله، هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ فسكت. فعدت فناشدته مرة
 بعد مرة، فسكت عني فعدت فناشدته فقال: الله ورسوله أعلم.
 «ففاضت عيناى، ووتبت فتسوّرت الحائط ثم غدوت إلى السوق، فبينما أنا أمتسى إذا نبطى
 يسأل عني من نبط الشام، فجعل الناس يسيرون إليّ، حتى جاءني فدفع إليّ كتابا من ملك
 غسان، فيه:

«أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك.. فالحق بنا نؤاسك».
 «قلت حين قرأتها: وهذا من البلاء أيضا، قد بلغ بي ما وقعت فيه أن طمع في رجل من أهل
 الشرك!

«فعمدت بالرسالة إلى تنور فسجّرت بها.
 فأقمنا على ذلك حتى إذا مضت أربعون ليلة، من الخميس، إذا رسول رسول الله يأتيني
 بأمره أن أعتزل امرأتي، قلت: أأطلقها أم ماذا؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقر بها.
 وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك.

فقلت لامرأتي: ألقى بأهلك فكوني عندهم حتى يقضى الله في هذا الأمر ما هو قاض.
 وجاءت امرأة «هلال بن أمية» رسول الله ﷺ فقالت:
 - يارسول الله، إن هلال بن أمية شيخ كبير ضائع لا خادم له، أفكره أن أخدمه؟
 قال: «لا، ولكن لا يقربنك».

قالت: والله يا رسول الله ما به من حركة إليّ، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان
 إلى يومنا هذا، ولقد تخوفت على بصره..
 «فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله لا مرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن
 تخدمه.

قلت: والله لا أستأذنه بها، ما أدري ما يقول ﷺ لي إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب.
 «فلبنا بعد ذلك عتس لبال، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله المسلمين عن
 كلامنا، ثم صليت الصبح، صبح خمسين ليلة، على ظهر بيت من بيوتنا.. إذ سمعت صوت صارخ
 أوفى على ظهر سلع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر».

فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء الفرج.
«ونزعت نوبى فكسوتها من جاء يبشرنى، والله ما أملك يومئذ غيرهما، واستعرتُ ثوبين
فلبستهما ثم انطلقت اتيمم رسول الله ﷺ، وتلقانى الناس يبشرونى بالتوبة.. حتى دخلت
المسجد، فلما سلمت على رسول ﷺ، قال لى ووجهه يبرق من السرور:
«أبشِرْ بخيرِ يومٍ مرَّ عليك منذ ولدتك أمك».
قلت: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟
قال ﷺ: بل من عند الله».

قلت: يا رسول الله، إن من توبتى إلى الله عز وجل أن أنخلع من مالى، صدقةً إلى الله وإلى
رسوله.

قال ﷺ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرُ لَكَ».
وقلت: يا رسول الله، إن الله نجاني بالصدق، وإن من توبتى إلى الله أن لا أحدث إلا صدقاً
ما حييت»^(١).

الآيات التى بُشِّرَ بها هؤلاء الثلاثة الذين خلفهم الرسول ﷺ حتى يقضى الله فيهم، هى
آياتُ التوبة:

﴿..... لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُخَلَّيْنِ
وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ
قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ ١٧
وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِأَرَجَّتِ
وَضَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ
عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١٨﴾

(صدق الله العظيم)

(١) من السيرة: ١/١٧٥، بإسناد إلى الزهري عن عبدالرحمن بن عبدالله بن كعب بن مالك.

ونزلت معها، من سورة التوبة في أواخر العهد المدني بعد غزوة تبوك، الآيات البينات (الفاضحة) لزيغ المنافقين الممزقة لكل أقنعتهم، وفيها يعتب الله سبحانه على رسوله أن أذن لهم في التخلف. وكان، لو لم يفعل، بحيث يكشف عن خبث سريرتهم ويتبين له كفرهم وارتباهم:

﴿ إِنَّمَا يَسْتِزِدُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ
فُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ ٤٥ * وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ
لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ
اعْبُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ٤٦ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا
وَلَا وَضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ
بِالْقَاطِلِينَ ٤٧ لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى
جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ٤٨ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِذْ ذُنَّ
لِي وَلَا تَنْفِئْنِي إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَكِطَّةٌ
بِالْكَافِرِينَ ٤٩ إِنْ نُصِيبَكَ حَسَنَةً فَنُفِثْهُمْ وَإِنْ نُصِيبَكَ مُصِيبَةً يَقُولُوا
قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ٥٠ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا
إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ٥١
قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بَنَاتِ الْأَخْدَى الْحُسَيْنِيَّةِ وَنَحْنُ نَرْتَضِيكُمْ أَنْ
يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِي بَنَاتٍ فَتَرْتَضُوا إِنَّا
مَعَكُمْ مُتَرْتَضُونَ ٥٢ ﴾

(صدق الله العظيم)

وتقضى الآيات بحكم الله فيهم: تنفيهم عن الإسلام أحياء وأمواتا، وتعزلهم عن مخالطة المؤمنين، وتحرم خروجهم معهم إذا خرجوا للجهاد، حسبا لشر الفتنة، وتنتهى نبى الإسلام نبيا باتا عن أن يستغفر لهم أو يصلى على أحد منهم مات أبدا أو يقوم على قبره:

﴿ أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ ٨٦ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ۖ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۖ ﴿٨٧﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُفْعِلُوا مَعِيَ عِدًّا وَإِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ۖ ﴿٨٨﴾ وَلَا تَضِلَّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَتَاكُ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَدْرِهِمْ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٩﴾ ﴿ (صدق الله العظيم)

ثم يفصل الله جلَّ شأنه الحكم في المتخلفين.

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ٩١ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَيْنُهُمْ فَبِغْضٍ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ۖ ﴿٩٢﴾

۞ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتُنْذِرُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا
 مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩١﴾
 يَعْذِرُونَ إِلَيْنَا إِذَا رَجَعْتَ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ
 نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ آخِبَارِكُمْ وَبَشِّرِ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ يُرْزَوْنَ
 إِلَى عِلِّيِّ الْعَالَمِينَ وَالشَّهَادَةُ فَيَنْشُرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٢﴾
 تَخْلِفُونَ يَا اللَّهُ لَكُمْ إِذَا أَنْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُغْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا
 عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآ وَهُمْ بِمَنْعَةٍ جَزَاءُ يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٣﴾
 يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى
 عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٤﴾ ۞

(صدق الله العظيم)

(٥)

﴿وَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾

- سنة الوفود
- حجة الوداع
- وآية إكمال الدين
- وإتمام النعمة ..
- الرحيل ..

سنة الوفود

كانت غزوة تبوك في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة. بعدها فيها بقى من شهور السنة، تتابعت وفود القبائل العربية على دار الهجرة، ساعية إليها من كل وجه، تباع الرسول ﷺ على الإسلام. أسلمت «تقيف» وكانت قد امتنعت بالطائف يوم حنين. وقدم وفد «همدان» على رسول الله عليه الصلاة والسلام، مرجعه من تبوك. وجاء وفد «تميم»، وفيه: «قيس بن عاصم، وعطارد بن حاجب، والأقرع بن حابس، وعمر بن الأهتم، والزبرقان بن بدر». وجاء ضمام بن ثعلبة، في وفد «بنى سعد بن بكر». والجارود بن عمرو، في وفد «عبد القيس». والأشعث بن قيس في وفد «كندة» وصرد بن عبد الله، في وفد «الأزد». كما قدم وفد «طى» وفيهم سيدهم الفارسي «زيد الخيل» الذي قال فيه المصطفى ﷺ: «ما ذكر لي رجل من العرب تم جاءني، إلا رأيته دون ما يقال فيه. إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما كان فيه». ودعاه المصطفى ﷺ: زيد الخبر.

وجاء رجال من «بنى زبيد» فيهم عمرو بن معديكرب الفارس الشاعر. ووفد بني حنيفة، فيهم مسيلمة بن حبيب^(١). قال «ابن اسحاق» في سنة الوفود^(٢): «وإنما كانت العرب ترض بالاسلام أمر هذا الحي من قريش وأمر رسول الله ﷺ، وذلك أن قريشا كانوا إمام الناس وهادهم، وأهل البيت الحرام، وصریح ولد إسماعيل بن إبراهيم

(١) هو مسيلمة الكذاب، الذي ارتد وادعى النبوة بعد النسي ﷺ. وقتل الكذاب في حروب الردة

(٢) والطبرى في تاريخه. السنة التاسعة من طريق ابن اسحاق.

عليهما السلام، وقادة العرب لا يُنكرُ ذلك، وكانت قريش هي التي نصبتُ لحرب رسول الله ﷺ وخلافه، فلما افتتحت مكة ودانت له قريش... دخلوا في دين الله، كما قال عز وجل، أفواجًا، يضربون إليه من كل وجه.
يقول الله تعالى لنبيه ﷺ:

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۖ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝ ﴾

(صدق الله العظيم)

حجة الوداع . . والرحيل !

﴿..... أَلَيْسَ لَكُمْ دِينًا﴾
 دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ
 دِينًا ﴿﴾

(صدق الله العظيم)

تطهرت ديار الإسلام من وباء يهود، أعداء البشر.
 وتطهرت أرض المبعث وبلاد العرب من رجس الوثنية، وسقطت أقنعة المنافقين، وعُزلوا عن
 المجتمع الإسلامي، ودخل الناس في دين الله أفواجا.

فهل بقي من رسالة المصطفى ﷺ ما يؤديه في عصر مبعثه؟

كان من المتوقع أن يحج ﷺ مرجعة من هوازن، في ذى القعدة من السنة الثامنة للهجرة، بعد
 أن فتحت مكة وتطهرت الكعبة من رجس الأصنام. لكنه ﷺ لم يشأ أن يسهد الموسم وهو وقتئذ
 خليط من المسلمين جند الفتح والمكيين مسلمة الفتح، ومن المشركين من سائر القبائل العربية
 التي شهدت الموسم وهي على الشرك. وحج بالمسلمين الصحابي «عتاب بن أسيد القرشي
 الأموي»: من مسلمة الفتح.

بعدها في السنة التاسعة، كانت سنة وفود القبائل على النبي ﷺ ومبايعته في دار هجرته
 ﴿ودخل الناس في دين الله أفواجا﴾ وفي الموسم بقايا من المشركين، وكثرة من المسلمين لا علم
 لهم بمناسك حجهم، فهي تحج على ما عهدت من بقايا حج إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.
 وقد خرج أبوبكر من المدينة في نلामائة من المهاجرين والأنصار. وفي طريقه إليها لحق به
 «على بن أبي طالب كرم الله وجهه» مبعوثاً من النبي عليه الصلاة والسلام، على نافته القصواء.
 فتلا على أهل الموسم سورة التوبة، ونادى فبهم: «ألا يحج بعد ذلك العام مشرك، ولا يطوف
 بالبيت عريان». ومن وقتئذ خلص الحج للمسلمين.

بعد سنة الوفود، حجَّ ﷺ حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة، - وهي الحجة الأولى للإسلام، لم يحج قبلها بعد مبعثه - وفيها علّم المسلمين مناسك الحج، وخطب فيهم خطبته المشهورة التي كانت الوصية الأخيرة إلى المسلمين من نبيهم المصطفى عليه الصلاة والسلام، قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«أيها الناس، اسمعوا قولي فإنني لا أدرى لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً. أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا. وإنكم ستلقون ربكم فيسألکم عن أعمالکم وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون، قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله. وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع. وإن أول دمائكم أضغ دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب - وكان مسترضعاً في بني ليت فقتلته هذيل - فهو أول ما أبداً به من دماء الجاهلية.

أما بعد أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه إن يقطع فيما سوى ذلك فقد رضى بما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم».

وبعد أن بين المصطفى ﷺ إبطال الإسلام للنسيء، وحدد الأشهر الأربعة الحرم، أوصى بالنساء خيراً، ثم ختم خطبة الوداع بقوله:

«فاعقلوا أيها الناس قولي فإنني قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً: أمراً بيناً، كتاب الله وسنة نبيه. أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئٍ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفسٍ منه فلا تظلمن أنفسكم، اللهم هل بلغت؟».

هتف المسلمون جميعاً، ممن شهدوا حجة الوداع: اللهم نعم.

فقال ﷺ: «اللهم أشهد».

في حجة الوداع، نزل الوحي بآية إكمال الدين، وإتمام النعمة، قال تعالى:

﴿..... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ
دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ
دِينًا﴾

فأحس المصطفى ﷺ أن قد نُعي إلى أمته، وأنه على وشك رحيل..

ورجع المصطفى ﷺ إلى المدينة فأقام بها بقية ذي الحجة والمحرم وصفر.. وفيها جهَّز
«أسامة بن زيد بن حارثة» رضى الله عنها، ليخرج إلى الشام في جند الإسلام، ومعه المهاجرون
الأولون رضى الله عنهم..

وأمره ﷺ، أن يصل بالإسلام إلى تخوم البلقاء من أرض فلسطين.
وبدا كأن المصطفى ﷺ أتم رسالته، وترك للمؤمنين من بعده أن ينشروا الدين الحق في
الآفاق، وأن يحملوا لواء الميمون إلى المشرق والمغرب!

الرحيل

تم يموت محمد بن عبد الله ﷺ، ويحيا المصطفى ﷺ في رسالته، نبى الإسلام المبعوث خاتماً للنبيين ومصدقاً لما بين يديه من الدين كله.

وتكون آيته، بعد أن أتم رسالته، أن يجوز عليه المرض والموت، كما جازت عليه أعراض البشرية وهومها وعواطفها، من حزن وكل وكره وضيق وكرب، مثلما تجوز على سائر البشر. لكيلا يُفتن به المسلمون فينسوا أنه بشرٌ رسول، كما فُتن من قبلهم، فاتخذوا نبيهم مع الله إلهاً.

في ليالٍ بقين من صفر، في السنة الحادية عشرة للهجرة، نسكا المصطفى ﷺ من مرضٍ ألم به، فحسب آل البيت النبوى والمسلمون معهم، أنها وعكة طارئة لا تلبث أن تزول، دون أن يتصور أحدٌ منهم أنه مرض الموت.

وتقل المرض على «محمد بن عبد الله» فاستأذن نساء أمهات المؤمنين أن يُمرض في بيت عائشة، وقال ﷺ: «مُرُوا أبا بكرٍ فليُصل بالناس».

ولم يطل عليه المرض..

أهل شهر ربيع الأول، وخرج أهل المدينة لصلاة الصبح من يوم الاثنين، فبينما هم في المسجد وأبو بكر يصلى بهم، رُفِع الستر من باب بيت أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها، وخرج المصطفى ﷺ عاصباً رأسه، فما كاد الناس يلمحونه حتى كادوا يفتنون في صلاتهم برويته فرحاً به، لولا أن أشار إليهم أن «اثبتوا على صلاتكم».

وشعر أبو بكر بما كان من المصلين خلفه، فعرف أنهم لم يصنعوا ذلك إلا لرسول الله ﷺ، فنكص عن مُصلاه يفسح مكانه للمصطفى، لكنه دفعه وقال: «صل بالناس».

وجلس ﷺ عن يمين أبي بكر، فصلّى قاعداً، حتى إذا قُضيت الصلاة أقبل المسلمون على نبيهم المصطفى فرحين مستبشرين، يهللون ويدعون ويباركون.
لم يدروا أنها صحوة الموت!

دخل المصطفى ﷺ بيته والوقت ضحى، فاضطجع على فراشه في حجر زوجته عائشة، - التي اختار بيته ليُمرّض فيه - فما راعها إلا أن تقل في حجرها، ونظرت في وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول: «بل الرفيق الأعلى من الجنة»^(١)

من بيت المصطفى ﷺ علا نحيبُ النساء فصك مسمع المدينة التي كانت قد استبشرت برؤية الرسول ﷺ في صلاة الصبح من ذلك اليوم!

وفي ذهول المباغتة، وجم الناس بين مصدق ومكذب، وكان «عمر بن الخطاب» أسد مَنْ أنكروا أن يكون محمد ﷺ قد مات!

وجاء أبو بكر، وعمرُ في المسجد يتواعد من يزعم أن رسول الله ﷺ قد مات، قال: عفا الله عنه:

«إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفى! وإن رسول الله ﷺ والله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات، والله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى، فليقطعن أيدي رجالٍ وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ مات!».

تركة أبو بكر لم يكلمه، ومضى لا يلتفت إلى نساء حتى دخل على المصطفى ﷺ في بيت ابنته عائشة، فإذا هو مسجى هناك، فأقبل عليه محزوناً حتى كشف عن وجهه فقبّله، وقال: «بأبي أنت وأمي، أما الموتة التي كتب الله عليك، فقد دُفنتها، نم لن تصيبك بعدها موتة أبداً».

ثم ردّ البردَ على الوجه الحبيب.

(١) السيرة : ٣٠٤/٤.

وخرج إلى الناس المحتشدين في المسجد، و«عمر بن الخطاب» ما يزال يكلمهم فدنا منه وقال مترفعًا، قد أحس ما أخذ ابن الخطاب من وقع الصدمة:

- على رَسِيلِكَ يا عمر، أنصت!

فلما لم يلتفت إليه، أقبل على الناس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«أيها الناس، مَنْ كان يعبدُ محمدًا فإن محمدًا قد مات، وَمَنْ كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت».

ثم تلا الآية، من سورة آل عمران:

﴿..... وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلَ أَفَلَا يَنْفَكُ مَا كُنَّا نَفْكَرُ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْفَكْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ٥١﴾

فكان الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ..

أما عمر بن الخطاب، فما هو إلا أن سمع أبا بكر تلاها، حتى وقع إلى الأرض ما نحمله رجلاه، وقد عرف أن محمدًا قد مات..

جهَّزوه للرحيل يومَ الثلاثاء.

ثم فتحوا باب بيته لألوف المسلمين فدخلوا عليه يودعونه ويصلُّون عليه أرسالاً: الرجال منهم أولاً، ثم النساء، ثم الصبيان.

ودفنوه حيث قُبُض، في بيت زوجته عائشة بنت أبي بكر رضى الله عنها.

رفعوا فراسه فحفر له تحتها، ثم أضجعوه هناك في ليل الأربعاء من ذلك الشهر، ربيع الأول، السنة الحادية عشرة من هجرته.

دفنوا محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي ﷺ.

وعاس النبي الرسول ﷺ، خاتم النبيين.

ذاك الذى اصطفاه الله فأرسله باهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله ولو كره الكافرون. فى فجر تلك الليلة الغراء من شهر رمضان المبارك، التى خرج فيها مع النور البازغ يتلو الكلمات الأولى من هذا القرآن:

معجزة نبوة، وكتاب سريعة، ولواء عقيدة وجهت التاريخ وحررت الإنسان.
والنور الذى حداً مسرى البشرية الأمية من ليل الجاهلية،
وقاد مسعاها إلى آفاق المتل العليا للحق والخير والجمال.
لِلَّهِ الحمد والمنة :

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ
وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ٥﴾

(صدق الله العظيم)

١٩٩٢ / ٧٤٥٥	رقم الإيداع
ISBN 977-02-3784-1	الترقيم الدولي

١ / ٩٠ / ١٧٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

استروحت إلى صحبة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، فإذا بي في فيض
من سناء قد طويت أبعاد المكان وأمد الزمان إلى مسرح الأحداث الكبار
التي بدأ بها عصر جديد للإنسان ..
ليس التاريخ ما أقدمه وليس السيرة ، وإنما هي مشاهد مما اجتنيتُ
سيطرت على وجداني .. ارتبط فيها الماضي الحى بالحاضر المشهود .
ولم أشأ .. بل لم أستطع أن أنصرف عن هذه الصحبة مع المصطفى -
صلوات الله عليه وسلامه .. فكأنى إذا أعكف على كتابتها أطيل مدى
أنسى بها - وألتبس من مشاركة أصدقائي القراء ما يضعف لى عطاءها
السخي .

د / عائشة عبد الرحمن
« بنت الشاطي »